جزيرة في المحيط

رواية

بقلم

أحمد القاسمي

عنوان الرواية: جزيرة في المحيط.

المؤلف: أحمد القاسمي.

البريد الإلكتروني: elkacimiahmed63@gmail.com.

تصميم الغلاف: المؤلف.

رقم الإيداع القانوني: 2018MO2866

ردمك: 978-9920-36-054-8

طبع: PUBIM COLOR. حي المغرب العربي. المسيرة II. الرقم 1691.

تمارة. المملكة المغربية. الهاتف: 0661262895.

الطبعة الأولى؛ 1439 هـ الموافق 2018 م.

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

الفصل الأول

القرية

بلغ عبد الله من العمر ستة عشر عاما، وقد جد في فهم وحفظ ما يتطلب هذا الدرس أو ذاك؛ فنجح في أقسام المرحلة الابتدائية والاعدادية، واستعد كما أراد أن يعتاد للمرحلة الثانوية، إلا أنه غالبا ما كان يتأخر عن الوصول في وقت الالتحاق بقاعة الدرس المقنن؛ أو لا يذهب بالمرة؛ لأنه لم يكن يتوفر دائما على ثمن تذكرة لركوب سيارة أو حافلة تنقله مسافة أكثر من خمس كيلومترات، ففي يوم وكباقي الأيام احتاج كذلك إلى نقود يدفعها مقابل تنقله؛ فامتدت يد أمه إلى منديل مُعلّق غطت به شعر رأسها، وأسبلت على باقي جسدها أثوابها؛ كانت مشمرة عن ذراعيها وساقيها؛ تدلك في قصعة من طين ورثتها عن جدتها قطعة عجين. احتذت خُفاً من البلاستيك، وخرجت تستحث الخطو؛ تقرع أبواب جاراتها؛ تسألهن مبلغا من المال يُقرضنه إياها. رجعت بعد وقت قصير مهدودة بالحرج، ناولت ابنها دراهما؛ أحكم عليها هو بقبضته، ثم التقف محفظته وانفلت كالسهم يجري إلى قارعة الطريق؛ يلوح بيديه إلى السائقين.

لم يجد زملاءَه من التلاميذ في قاعة الدرس؛ كانوا زُمراً؛ ينتشرون خارج أسوار المؤسسة وداخلها؛ يلعبون البليات[1] والكرة. سأل أحدَهم:

– ألم يحضر الأستاذ؟

---

[1] البليات: مفرده بلية، وهي كرات زجاجية صغيرة؛ في مركزها شكل هندسي ثلاثي الوجوه وملون يلعب بها الأطفال.

أجاب ذلك التلميذ الذي يُباري في اللعب قائلا:

– اليوم السوق الأسبوعي؛ فلا يتغيب الأستاذ أو يتأخر؛ إلا ليشتري ما يحتاج إليه خلال أيام الأسبوع؛ مما تعرضه خيام السوق من الضروري والكمالي.

فلم يطق عبد الله الانتظار، فعاد إلى البيت سيرا على الأقدام...

في اليوم التالي لم يفكر عبد الله قط في الذهاب إلى الفصل الدراسي؛ فقد ضاق ذرعا بما يحول بينه وبين فصل التعلم والتحصيل؛ وهو الحاجة إلى المال، وهذا غير مُيسّر لأسرته. استيقظ من نومه في الصباح، وتنقل في أرجاء المنزل منكس الرأس، وأمه في ركن من المطبخ تنشغل عنه بإعداد الفطور، وأبوه كذلك؛ وجهه إلى ما تُمسك يداه؛ يُحكم سيور حذائه؛ فلم يلتفت إليه ولو بنظرة واحدة أو يخاطبه بكلمة.

وكان قد سمع أمه البارحة تتحدث إلى أبيه؛ قالت له:

– في أية جهة من البحر نصبت الشباك؟

أجاب قائلا:

– غير بعيد عن الشاطئ الصخري.

قالت بعطف:

– أوَ ما زلت تروم بهذا المكان؟ لقد دفعت الأمواج بقارِبك واصطدم بالصخور فتفكك، وكلفك إصلاحه بما لا طاقة لك به.

قال:

– إنه بعيد عن طريق المراكب والسفن؛ فقد تحرف إحداها الشباك، كما أن البحر هادئ هذه الأيام.

قالت متنهدة:

– ندعو الله السلامة.

قال:

– هذا كل ما بوسعنا.. الدعاء.

أحكم أبوه نطاقه الجلدي، ووضع على رأسه قبعة من نبات الدَّوم المجفف؛ مخرومة الحواشي، ثم قام وسار؛ فتح الباب فاندفعت ما ألفته مسامعُهم؛ أصوات بحر تتموج مياهه في زحف وتقهقر، وفي هذه المرة برفق، وهدير محرك مركب صيد يهدر من بعيد؛ وما يملأ خياشيمهم؛ من روائح أعشاب البحر، وطُحلب الصخور. اتجه إلى قارب خشبي؛ صدِئ حديدُه بماء البحر المالح، وتشقّق طلاؤُه وبهت بأشعة الشمس، وتصدّعت أخشابه وكثرت ثُلمُه.

ذهب عبد الله إلى أمه وقال لها:

– سأرافق أبي في رحلة الصيد.

قالت:

– قال بالأمس أن البحر هادئ هذه الأيام.

قال:

– فما دام البحر كذلك فلا تخافي.

قالت:

- الله معكما.

وسار عبد الله خلف والده؛ يُسرع الخطو، ثم دفع بالقارب إلى مياه البحر؛ امتطاه أبوه وبدأ هو بالتجذيف بهمة ونشاط لم يسبق أن انتاباه من قبل، ووالده يشجعه.

طافا بالقارب وأمسكا بالحبل الطافي على الماء وسحباه؛ فانجذبت إليهما أطراف الشباك؛ تلفظ ما احتفظت به في جوفها من أنواع مختلفة من الأسماك؛ التي تساقطت على الألواح الخشبية لسطح القارب؛ تضرب بزعانفها ورؤوسها؛ تمتص خياشيمُها القانئة بقايا ماء سحبتها خيوط الشباك؛ كدساها في صندوق فاحتلت نصفه، وبقي النصف الآخر فارغاً. نظر عبد الله إلى أبيه بقلق؛ سُرعان ما تبدد حين أعلن أبوه أنه صيد يفي بالغرض، ثم قفلا راجعين، وتجاوز بهما القارب في إبحاره مد المياه، وانغرست مقدمته في فتات صخر الشاطئ. حمل أبوه صندوق السمك، ووطئت قدماه الرمال، ثم اتجه إلى الطريق لتنقله وسيلة من إحدى وسائل النقل إلى المدينة؛ ليبيع حصيلة شباكه في سوق السمك.

أما عبد الله فقد سحب القارب بعيدا عن أمواج البحر التي تزحف وتتراجع، وظل زمنا متكئا على القارب حتى آلمت حديدة حاشيته منكبيه، ثم نظر بعيدا هنالك عند التقاء البحر بالسماء، وسأل محدثا نفسه:

"أ بعد هذا البحر أرض وأُناس؟ أ فيهم الغني والفقير؟ وأطفال يعانون اليُتم والحاجة، ونساء طوالق محررات من قيد زواج يجمعهن برجال يُعربدون، وأكثر من هذا... أ في تلك الأرض ما يحدث في قرية الصيادين هذه مما يستحيي من

ذكره. أبي كما حكت والدتي حملني وأنا رضيع بين ذراعيه، وهي في أثره تحمل صُرر حوائجنا. ثار في وجهه أخوه؛ كانا يفلحان معا في حقل ورثاه عن جدي. حاك أخوه ذاك من الأقاويل والحيل لينفرد بالأرض؛ فانفرد بها. وفدت الأسرة المطرودة إلى هذه القرية. بنى أبي هذا البيت الخشبي؛ احترف البحر؛ يخوض في لُجه مدفوعا بكسب القوت. لم يستفسر قط عن أحوال البحر، فهو قد اعتاد مخاتلة الأمواج حتى أضحى يضحك من الخطر الذي يُحدق أحيانا بقوارب الصيادين، وإذا حذرته والدتي يقول: "للشاطئ ثغور[1] رملية؛ إذا ما حال الموج بيني وبين ثغر فغير بعيد عنه ثغر آخر انفلت منه؛ فأجدني أطأ شاطئ النجاة سالما معافى".

ولم يزد عبد الله عن هذا كلاما آخرا؛ فقد آثر السكوت عما يحدث في كهوف نحتها البحر في الصخور؛ سقوفها من أخشاب متهرئة من مراكب بالية تخلى عنها أصحابها؛ ضرب لا ينتهي طيلة الليل على أوتار الكمان، ونفخ في الناي ونقر على الدفوف وضرب بالصُّنوج؛ فتنبعث موسيقى تندفع لإيقاعاتها قدود نسوة في رقص يعبر عن أقصى انعتاق الجسد الأنثوي، وعب ما في الكؤوس من سوائل مُخمرة مُقطرة من العنب والتين؛ تُضعف القلب وتذهب بالخيال مذاهب السحب في السماء؛ بعيدا عن مَطبّات الأرض؛ فاقتراب وأنفاس وأُلفة وارتعاشات...

---

[1] "(الثغر): الفرجة في الجبل ونحوه،(...) والثغر الموضع يُخاف هجوم العدو منه. ومنه سُميت المدينة على شاطئ البحر ثغرا. (ج) ثغور". (المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، مكتبة الشروق الدولية، الطبعة الخامسة، مصر، 2011؛ ص. 100).

مما يُحكى من ماضي القرية أن أحدا ممن يرتادون هذه الأوكار انهال بقنينة ما تزال بها ثُمالة خمر لم يشربها على رأس خصم له؛ فسقط هذا الأخير ميتا مُضرّجا بدمائه.

سيغادر هذه البيوت وفضائح ساكنيها؛ سيهاجر إلى ما وراء البحر؛ سيركب مركبا يصنعه بنفسه من خشب أشجار تلك الغابة النابتة هناك، والممتدة إلى الشرق. عندما كان يذهب إليها ليطارد الطيور والأرانب والقنافذ؛ يصادف جذوع أشجار ساقطة؛ تكون جذورها قد خرفت ولا تقوى على حملها فتنهار؛ سيجلبها وينشرها إلى قطع من خشب؛ فمما كان يقرأ من قصص الأنبياء والرسل أن نوحا وبأمر من الله حُمل هو والذين اتبعوه من قومه وآمنوا برسالته في فُلك صنعه بيده؛ لذلك سيقتدي به؛ ففي أفعال من اصطُفي قُدوة وملاذ.

فقد رأى ما يَنْدى له الجبين ويستحيي أن يرويه؛ فأهل هذه القرية لا بد وأنهم هالكون بما أسرفوا وطغوا.

التقطت يوما أُذناه حديث أبيه إلى أحد جيرانه من البحارة. قال أبوه:

– كنت أُعدّ الشّبكة للصيد في صباح باكر من ذلك اليوم؛ مر بي أحدُهم؛ سار يجر قدميه بِتثاقل، ثم أقفل[1]؛ كان ثملا ووقف أمامي؛ كنت أظنه عابر سبيل أو سائل يريد من أحد ما يقوم بِأَوده. كانت هيئته منحطة؛ يرتعد من برد نسيم البحر؛ قال:

– سلبوني مالي.

---

[1] أقفل: رجع.

قلت له:

– من هؤلاء؟

قال:

– بت الليلة الفائتة حتى طلوع الفجر أُقامرهم؛ ربحوني بالورقة المغشوشة؛ لا تكاد تصدق؛ نهبوا مني مبلغا من المال.

أمطر أبو عبد الله أعداد ذلك المبلغ في أُذن جاره؛ ففغر فم هذا الأخير؛ لم يصدق ما سمع وتعجب لحال هؤلاء الصيادين التعساء؛ يُفرغون ما احتوته أمعاؤُهم بدُوار البحر قيئاً؛ مقابل مال زهيد يكسبوه من بيع السمك نهارا ليقامروا به ليلا؛ بدلا من أن يصرفوه على أبنائهم وزوجاتهم.

إسراف واحتيال وغش وغدر وخيانة وطغيان ونصب وسطو؛ جميع هذا شامل للقرية؛ فلا بد من الهجرة.

ووالداه؟

قال: "سأتركهما وديعة عند الذي خلق؛ فهو الباري... الأقدر بمصيرهما".

وإن كفاه الله شأن أبويه فرحلته في البحر ليست بالأمر الهين؛ فانصبت عليه أسئلة كثيرة؛ هل سُيقاوم فُلكه رحلة البحر الطويلة؟ سيُحيط به الماء من كل جانب وسيرتفع به الموج وسيهوي به، وسيصفع أخشابه بلا رحمة، وستجرفه التّيّارات بعيدا عن مساره المرسوم، وهل لذراعيه من القوة ليمُسك بالدفّة والشراع؟ هل سيمتص نسيج الشراع اندفاع الرياح فيمتلئ ويدفع المركب دون أن تنحل خيوطه؟ والسارية؟ هل ستُقاوم وهي تصارع قوة الريح فلا تنكسر؟ فيُترك

وحيدا مع البحر الشاسع والتيارات الجارفة، والجوع والعطش، وأشعة الشمس تأكله.

كما ارتسمت في ذهنه صور ومشاهد؛ منها ما يطمئن إليها؛ ذلك أنه يسمع من وقت لآخر ما يتناقله بعض البحارة؛ أنه مهما طال الإبحار في تلك الجهة التي سيقصدها فهنالك أرض تطأ عليها قدما إنسان، ومنها ما تنقبض لها نفسه ذلك أن البحر يثور في إحدى نوباته؛ فراكبه لا بد وأنه يقاوم لُجه في يأس واستخذاء أو هالك.

الفصل الثاني

الفُلك

سيبني عبد الله قاربه طبقا لما لاحظه هناك في الخليج؛ الذي يبنون فيه نجارو القرية القوارب والمراكب؛ بل سيجعل سفينته أقوى بكثير فلا يتوعدها البحر المحيط بالغرق.

أين سيصنع مركبه؟

فسرية المكان هي أساس نجاحه...

أن يكون ذلك المكان بعيدا عن سُبل المارة، وعن أنظار الفضوليين، وعن مسامع الحراس الليليين والمتسامرين؛ فلا تصل إليها دقات المطرقة المتتالية ومضغات المنشار الصاخبة في الخشب.

ففكر...

خلف البيت حديقة مُسيّجة؛ صغيرة المساحة... هي نهبا لعيون الجارات...

والشاطئ الرملي والصخري مكانان عامران وإن خلت بعضُ أفضيتِهِما...

كاد أن يتراجع أمام طول التفكير؛ فلمعت في ذهنه جهة من جهات الساحل. كان يترك البحر وراء ظهره في بعض الأوقات، ويتوغل داخل القارة مسيرة نصف ساعة؛ فيجد مغارة نحتتها سيول الأمطار؛ فيما مضى من الأزمنة الجيولوجية، وملأتها الرواسب من الأتربة والحصى. دخل بهوها عبر فجوة انهارت أتربتُها بسيل من طوفان أحد فصول الشتاء؛ فنقل إليها عدة النجارة: المنشار والمطرقة والمسامير، ومثقاب صنعه بنفسه يُسرّع سفينه الحاد بخيط متين مربوط

إلى رأسي قوس، ومِسْحج[1]، ولحاف للنوم عليه ليلا أو للتمدد عليه نهارا وقت القيلولة، ومؤونتَه من طعام وشراب.

جلب جذوع الأشجار؛ كان ينشرها بالليل؛ فراكم ما يكفيه من قطع طولية من الخشب؛ على إيقاع أزيز الصرار وصدح الطيور وصياح النوارس ونقيق الضفادع، وزعيق قطط تتصارع في حلبات البيوت، وفي الأنهُر التي تلت تلك الليالي بنى هيكلا له مقدمة بمقياس معين ومؤخرة بمقياس آخر؛ من قطعة طويلة؛ شد إليها أضلاعا من عيدان عريضة باتجاه عَرضي؛ فبدا ذلك الهيكل كقفص صدري، ثم كساه بألواح صغيرة السمك.

كانت مطرقته تنزل على رؤوس المسامير؛ فتُصدر دقّاتها صوتا يختلط بذلك الذي تُحدثه مطارق صانعي السفن في الخليج؛ بين طلوع الشمس واحتلالها سمت السماء؛ ففي هذا الوقت يكون سكان القرية بين نائم مهدود بسهر الليلة الماضية؛ يرتفع شخيره تحت أغطية تتمدد أعضاء جسمه بسخونتها، وبين مُبكر يستحثه الاسترزاق إلى شباكه المنصوب في مكان موغل في البحر، أو قارب لم ينته بعد من بنائه، أو إلى شبكة لم يفرغ من حياكتها.

فلم ينتبه أحد من هؤلاء إلى ما يمكن أن يحدث في ذلك الكهف المجهول، أو يصل إلى مسامعه ما يجعله يرتاب.

فيهِن ساعداه كما تهن سواعدُهم أولئك البناؤون؛ عندئذ يحرر مطرقته ومنشاره ومثقابه من قبضة يده، ويتراجع بعيدا عن القارب، ثم يدور حوله طارقا بيده

[1] "(المسحج): آلة يُبرى بها الخشب، (ج) مساحج"، (نفس المعجم السابق؛ ص. 436).

خشبه؛ فيُسمع له دوي، ويُحرّكه بقوة مُختبرا صلابته. يُمعن فيه النظر بعينين فاحصتين؛ فيسره ما عاينه من حال المركب فيبتسم.

حتى الآن كان لعمله الذي دأب عليه نتائج مُرضية، ثم يفرح لشيء آخر هو أنه أشرف على إنجاز المرحلة التالية لمشروعه؛ وهو بناء سكن على سطح الهيكل يأويه من برد الليل ويقيه لفحات شمس النهار. قبل ذلك كانت قد خطرت له فكرة تزيده ثقة في مدى مقاومة المركب للبحر؛ وهي أن يُثبت في كل جانب من الجانبين الداخليين للمركب برميلين من اللَّدينة[1]؛ فارغان ومُحكما الغلق ليطفو بهما المركب فلا يغرق؛ إذا ما أطبقت عليه موجة عالية وامتلأ قعره بالماء.

قَسّم بيته الذي سيطفو به على الماء بعد حين من الوقت؛ إلى مكان خصصه لفرن يطبُخ فيه أَكله، وآخر ركب فيه أريكة خشبية ينام عليها ليلا، ويتمدد عليها نهارا، ومنضدة يُدوّن عليه يوميات رحلته، ومد في الداخل صُنبورا يتفجر منه الماء العذب؛ يهبط عبر أُنبوب من خزان معلق على سطح المسكن؛ سعته من الماء تكفي لأكثر من أسبوع، وعلى رفّ وضع قنديلا يُعبأ بالزيت؛ يستمد منه فتيلُه لهيبا يُنير؛ فبث فيه هذا الأثاث دفئا وأثار فيه استئناسا.

ما إن اعتلى ديك خُمّ الدجاج طرف عمود سقف البيت؛ في فجر أحد الأيام، ولم يكبح حنجرته فصاح؛ حتى غادر عبد الله فراشه، ونحى السُّقاطة الحديدية من عُروة الباب؛ فانفتح هذا الأخير، ثم خرج يُسرع المشي في المسرب

---

[1] "اللّدينة: جمع لدائن؛ مادة عُضوية تقبل التشكل بالحرارة والضغط". (www.almaany.com).

الذي يؤدي إلى الغابة. اندس بين الأشجار وسار، ثم نظر إلى علامة وسم بها جذعا بطول أربعة أمتار؛ كان قد شذّبه منذ أيام تاركا له فرعين بديا كقرني كبش. أدار ظهره وقبض بكلتي يديه عليهما، ثم جر الجذع إلى الكهف. أزال لحاءه بسكين قاطع؛ ناحر لحلاقم الذبائح، وصقله فكان هذا الجذع هو سارية المركب.

أما الشراع فهو مثلث الشكل؛ طول ارتفاعه أربعة أمتار، وقاعدته متران؛ قطعة واحدة نسجتها أمه على نول من أعمدة وعارضات خشبية؛ من خيوط كوّمتها في كُبّات؛ حصلت عليها بتفكيك أنسجة ألبسة من صوف بالية؛ اشترتها من رحبة السوق الأسبوعي المخصصة للألبسة المستعملة. ثابرت أياما على ذلك بحنان الأم الساذج؛ لأن ابنها الوحيد عبد الله طلب منها ذلك؛ فهو لحاف يتدثر به في نومه، أو فراش وثير يقي عظامه قساوة البلاط؛ دون أن تدري الغرض الآخر منه.

محرك المركب هو ذلك القِلع[1]؛ يستمد قوة دفعه للمركب من طاقة هبوب الرياح، وليكون آلة يُتحكّم فيها حسب الحاجة وخاصة في التوجيه؛ فلا بد أن تتوفر أدوات أخرى؛ حبال للشد والإلجام وإحكام الشراع أمام الريح، وحلقات لرفعه وإنزاله، وبكرات تُكرّ عليها الحبال وتتمدد؛ فالشراع يلين مرة أمام الريح

[1] "القلع: شراع السفينة، (ج) قلوع، وقلاع، وقِلَعة". (نفس المعجم السابق؛ ص. 783).

ويشتد مرة أخرى، وهو في ذلك مراوغ ومخاتل؛ ليشق المركب إبحاره بسلاسة وبسلامة؛ دون أن ينكسر فيطويه الموج بين لُجَجه.

فمن أوراق نبات الدوم المجففة فتل حبالا متينة، ونحت من الخشب بكرات قوية، ومن قضبان الحديد صنع حلقات مصقولة.

ستحتضنه التيارات البحرية، وسيغيب هو في مداعباتها له، وهي ستمضي به إلى حيث تريد؛ فينتبه في إحدى اللحظات فيجد أنها قد غررت به؛ فيدير الدفة ليأخذ الاتجاه الذي عيَّنه؛ وهو الطريق الذي قرر أن يسلكه، ويُرخي الحبل القابض بعمود قاعدة الشراع، أو يوتره حسب اتجاه الريح وقوتها؛ هذا ما كان يتصوره وهو يجهز آلة الإبحار: السارية والشراع والدفة والحبال والحلقات والبكرات...

ولا يغيب عن ذهنه أخطر ما في ركوب البحر...

فالبحر يوصد في وقت من الأوقات؛ لا يقربه إلا جاهل أو غرّ أو أحمق[1]، وفي وقت آخر يبسُط أحضانه بوداعة ورفق؛ ففي فصول الأمطار الباردة تشتد من

---

[1] يقول البحار العربي شهاب الدين أحمد بن ماجد (ولد في 838 هـ؛ حسب تحقيق أنور عبد العليم في كتابه "ابن ماجد الملاح"؛ سلسلة أعلام العرب؛ مارس؛ 1967م؛ مصر) في أرجوزته البحرية:

وينبغي معرفة الأرياح * ومغلق البحر والمفتاح
فغلقه يمكث ربع عـــام * مدة تسعون من الأيــام

ثم يقول بعد ذلك:

فهذه التسعين فـــها الغـــلـــقـا * حقيق من جاز بها أن يشقى
من مضض الوحشة والتنـــدم * وكثرة الوسواس والتـــألم
أما الضرورات فكم منها جرى * كم جاز فيها أحمق وخاطرا

حين لآخر رياح فتصير هوجاء؛ فعاصفة تُطوّح بالأشياء سواء صغُر حجمها أو كبُر؛ كما يُطيّر نسيم هادئ استلذه الناس عود قش، أو جناح ذبابة أو ريشة طائر، وفي فصول انحباس المطر وصفاء الأجواء وسخونة حرارة الشمس تسري في الأجساد؛ يُغري البحر الهادئ بالإبحار؛ فنظر إلى السماء؛ صفا وجهها إلا من غيوم رمادية اللون منتشرة هنا وهنالك، وإلى صفحة البحر التي تموجت دون أن تظهر للأمواج ذِرْوات، ولا تفرز رذاذا؛ سكنت وانغلقت على نفسها، وتذكر هبات الريح؛ كان يُرفرف لها نشير الغسيل؛ تداعبه بلطف ولا تُعنّفه كما يحدث في الأحوال الجوية العاصفة؛ فتأكد بأن أكثر من عشرين يوما ما تزال تفصله عن اليوم الذي سيبحر فيه؛ فكان يعود خلال هذه المدة إلى مركبه ليضيف إليه ما ليس له بد منه؛ من صقل وتلميع وطلاء.

إن الشطآن التي سيرسو عليها ستكون طبيعتها مجهولة لديه، وكذلك كيف سيستطيع أن يُجاوز حواجز مائية تخلقها أمواج في مداخل الخُلجان أو المراسي؛ كأنها تريد أن تهمّ بغريم لها، وتُفرغ ما تسلحت به من أسباب القوة؛ بأن تصطدم بأرصفة تكسير الأمواج؛ فتتراجع مهدودة تجرف في وهْدتها راكب البحر، وهي في جلبة. تتزود من جديد فتُعيد الكرّات؛ فهو غريق في لُجّها وارتباكاتها؛ فلا يلج مياه خليج أو مرسى هادئة ناجيا إلا بعد لأي، وإلا فإن مركبه ألواح خشبية تتهشم على الصخور الصلدة والناتئة، ثم هو بقايا تنقضّ عليها الأمواج فلا تبقي من هيئته إلا أجزاء متفرقة. ستجرفها التيارات البحرية

إلى شواطئ أخرى، وتلفظها حطبا هشا؛ ليّنه ماء البحر وأشعة الشمس؛ قابل للاشتعال؛ فهو وقود يستدفئ به البحارة من البرد القارس.

فما يُبقي مركبه طافيا يكفي أن يرسو داخل البحر وبعيدا عن ميدان معركة حامية الوطيس بين الأمواج الهادرة والشطآن الصخرية، ولا تصطاده مياه قليلة العمق إذا ما تقدم بمركبه؛ فيركب قاربا صغيرا ينفلت به راسيا؛ إنه قارب نجاة حتى في توغله في البحر؛ إذا ما طرأ ما يُسيء؛ فقام وشمر على ساعديه وصنع زورقا صغيرا وصلبا من أربع قطع؛ لوحان جانبيان مرتفعا المقدمتين، وأخرى ثبتها في المؤخرة شكلت الصندوق، ورابعة مستطيلة وعريضة تقوست عند المقدمة لتندحر تحتها الأمواج؛ وهي الأرضية، والقاعدة التي سينساب بها القارب على المياه، ومجذافين يسيرانه بضربهما في الماء؛ فهما عكازان يتكئ بهما ويزحف فاقدُ الساقين أو مشلولُهما.

ولينقل المركب من مكان بنائه إلى البحر؛ فلا غنى له عن مركبة متحركة تقودها دابة؛ فركّب هيكلا خشبيا على محورين تدور عليها أربع عجلات، وبمقبضين شد إليهما حبلين ستُقاد بهما المركبة جارية على الأرض.

ففي أحد الأيّام قبل أن يسمع عبد الله من بعيد آذان صومعة؛ إيذانا بحلول صلاة الصبح قاد بغلا شائخا من أَرسُنه؛ وجده تائها في الغابة؛ تركه مالكه ليقضي نحبه هناك؛ فربط إلى أعِنّته الحبلين؛ فتحركت المركبة الخشبية تئن ألواحها تحت ثقل المركب؛ صوب شاطئ رملي وقع عليه اختياره منذ أيام. أمسك بعنان الدابة وهي تتراجع بالمركبة والمركب إلى مياه البحر؛ التي تهادى عليها المركب

منفلتا مما كان يشده؛ شامخا بمقدمته وبساريته في خُيلاء وفي صمت، عليه مُسوح غَبَش[1] الفجر.

[1] "الغبش: بقية الليل وظلمة آخره". (www.almaany.com).

الفصل الثالث

الرحلة البحرية

أبحر عبد الله بمركبه الذي بناه بيده مهاجرا قريته؛ فكانت هذه مذكرات أيام رحلته التي دَوّنها، وجاءت في ضمير المتكلم.

اليوم الأول

الشّبح

في الوقت الذي كنت أثابر فيه على بناء المركب متنقلا في الثُّلث الأخير من الليل؛ بين بيتنا والمغارة والغابة؛ أَلِفّ في الأمكنة والمسالك بحرص شديد على أن لا أثير انتباه أحد؛ لم ألاحظ شخصا من السكان يتفرسني بنظرات مُرتابة، أو يتفحصني ليقف على حقيقة أمري، غير أنه في اليوم الذي خطّطت فيه لنقل المركب لمحت شبحا على ضوء القمر يقف منتصبا في ظلام الليل بين أشجار متطرفة في مدخل الغابة؛ يتغافل ويصطنع عدم الاهتمام؛ فلم ألتفت إليه مرة أخرى وجددت في سيري، ثم راوغته سالكا بالمركبة والدابة طريقا آخر في اتجاه شاطئ آخر؛ غير الذي تمتد عليه مساكن الصيادين، ثم لما استسلمت قدماي وعجلات المركبة وحوافر البغل لأُحدور متجه إلى منطقة المد والجزر؛ رأيته ثانية واقفا بين الصخور يرقُبني وينظر إلي شزرا، ثم جالسا يغافلني بنظرات خاطفة إلى أفق البحر.

قلت:

– ليكن من يكون فقد انتهى عملي، ومركبي سيطفو بعد حين، ومهما تحرى فلن يقف على ما أُبيته في نفسي.

فلم أبال لما قد يحدث؛ قد يُماط ستار الليل وينتشر ضياء شمس الشروق؛ فيحول بيني وبين رحلتي مانع، فعجلت بفك القيود التي تشد المركب إلى المركبة الخشبية؛ فانفلت المركب يخبط بقاعدته في الماء ويميل جهة اليمين وجهة اليسار؛ في رقصة خفيفة؛ ساحبا معه مرساة غاصت ونشبت رؤوسها في الرمال، ثم استقر تتهادى به الأمواج. بعد ذلك نقلت إليه بالقارب صندوقا كبيرا جعلت فيه كل ما أحتاجه إليه في رحلتي.

ربّتت على خيشوم البغل بحنان وشكرته، ثم حررته من الطوق الجلدي؛ فمال برأسه جانبا ومضى يضرب بحوافره في الرمال وحصى الشاطئ.

نظرت إلى بيتنا قائلا:

– سأراكما يا والدي في لقاء آخر إذا قُدر ذلك، وإذا حدث غيره فلا تدري نفس بأي أرض تموت.

جالت عيناي مرة اخرى في ذلك الاتجاه الذي رأيت فيه الشبح؛ كان ما يزال يجوس بين الصخور يتوارى لحظة ويشرئب برأسه. قلت في نفسي: "هذا لا يُثنيني".

ودفعت بالقارب إلى الماء قافزا إلى داخله. جذفت بقوة فانساب مُصافحا المركب كأنهما في لقاء حميم. صعدت فوجدت سطحا ثابتا؛ فسُمع لقدمي وأنا أطأ بهما دقاً. رفعت القارب ووضعته في الخلف ثم نشرت الشراع فرفرف، ووترت

الحبل فامتلأ بالريح. وجهت الدفة بمِقْبضها؛ فانطلق المركب بسرعة يخترق بمقدمته صفوف الأمواج الزاحفة. انتعشت بنسيم ذلك الصباح وبرذاذ البحر. ثبتت مقبض الدفة بحبل عرضي واتجهت إلى جانب المركب ومكثت يداي على الحبل ليتزود الشراع بطاقة الريح؛ ناظرا هناك بعيدا في عُرض البحر الفسيح، ثم ألقيت بآخر نظرة إلى الوراء، كان الضباب يغطي بردائه الشفاف الشاطئ؛ فلم أُبصر غير نور ضوء ضعيف وعلامات باهتة لبيوت القرية، ولا أثر للشبح الذي تعقبني منذ الهزيع من الليل. ظللت أسأل من يكون إلى أن يمّمت بوجهي حيث يبحر المركب؛ فلم أعد أفكر فيه البَتَّةَ؛ فغيابي عن البيت يدل على رحيلي ولا يحتاج أبواي إلى من ينقل إليهم الخبر.

اليوم الرابع

الابن المفقود

لم أنح بعد ذلك الاتجاه الذاهب في امتداد البحر؛ مكانا قد ينتهي بجزيرة أو بقارة أو بماء البحر يفضي بي إلى الماء نفسه؛ فظللت أسير بمحاذاة الشاطئ الصخري في اليومين الثاني والثالث؛ وذلك في رحلة أمتحن فيها المركب، وأقف عل مدى مقاومته للأمواج والرياح؛ فألوذ بمرفأ قريب إذا وقع حادث، ومن حين لآخر أنظر إلى الشاطئ مُستأنسا بما يجري على صخوره ورماله ومراسيه؛ فكان هناك أناس؛ منهم الجالسون يُطلقون العنان لأنظارهم في البحر الممتد إلى الأفق، وآخرون ذاهبون آيبون يستحثهم العمل، وفي البحر كنت أصادف صيادين يعتلون قوارب خشبية تكاد تستسلم لمصيدة الأمواج؛ فتنتظم سواعدُهم بدون

وهن في حركات تجذيف متتالية ومستمرة، وآخرون يحررون حِبالتهم من بكرات اللفّ؛ فينشرونها أو يجذبون أخرى حُبلى بالسمك؛ قد لا يكفي إثنان أو ثلاثة منهم لجمع أطرافها فيُنادون علي وقد استنفدوا ما لديهم من قوة؛ فأُساعدهم بحزم ومثابرة وبلا تردد؛ فيرمون إلي مقابل هذا العمل بكمية من السمك أشويها على مجمر من طين أتغذى عليها، وواظبت على مؤازرة الصيادين في صباح اليوم الرابع، وكأن قُدرة بعثت بي إلى هذه الناحية، وبعد أن انحدرت الشمس وبدأت تصبغها حمرة الغروب، وانعكس شعاعها على السحب كأنه شواظ يُلهب هذه الأخيرة، ولما خبا اللهيب في المساء وكان ما يزال القُرص يرسل ضياء أحمر؛ برح جميع الصيادين البحر؛ فوجدتني أقلب ناظري في جميع الاتجاهات؛ فلا أجد إنسانا. أعود فأنتبه فمركبي هو إِلْفي فأنا وهو نُصبح وحيدين وقد عمّت عتمة المساء الدنيا. أرفع وجهي إلى السماء لأرى سربا من الحمام يجد في تحليقه عائدا إلى أوكاره، ثم أميل برأسي فأشاهد قاربا صغيرا يمتطيه شبحان؛ ما يلبث يُصارع الأمواج من أجل أن يبقى طافيا. استغربت وجوده قريبا من ناحية غير صالحة للإبحار بالمرة؛ فقد ترمي به الأمواج على الصخور؛ فهو ألواح مهشمة، وصاحباه يتشبثان بالماء فهما غريقان. لم أتأخر لحظة واحدة؛ وتّرت الحبل فاستقبل الشراع ريحا قوية؛ فمرق المركب من بين الأمواج يخترقها بمقدمته. ما إن اقتربت حتى انهلعت بهول ما رأيته؛ صيادان عجوزان رجل وامرأة؛ يُحرران شبكتهما من مياه ضحلة لعل شيئا في الأعماق أمسك بها، وقد يكون قد جنح بها التيار إلى هذا المكان. ألقيت بالمرساة ثم سبحت في اتجاههما. كان الرجل يجاهد بعضلات

شائخة والمكرشة الجلد الشباك العصي؛ فزلت قدمه وسقط؛ صاحت المرأة وحاولت أن تتلقفه؛ غُلبت على أمرها فهوت هي الأخرى...

صعدت إلى مركبهم. شددت الرجل من إبطيه؛ ساعدته فقام يخطو؛ كان سالما وكذلك المرأة. قلت لهما:

– أُتركا الشبكة فهي مشدودة في القاع، والأمواج تُطوح بالقارب فلن تبلغا ما أردتما، سأتدبّر أمرها... جذّفا بعيدا فقد ترمي بكما الأمواج على الصخور.

أخذت نفسا وغطست في الماء ضاربا برجلي ثم سبحت. كانت عيون الشباك ملتفة بصفائح هيكل سفينة غارقة؛ نخر الصّدأ معادنها؛ وقعت في أحد الأزمان فريسة للمياه الضحلة. انتشلت السكين المربوط بساقي وقطعت الطرف المشدود؛ فتحررت الشبكة وكاد الموج أن يطويها بين لِحاجه؛ غير أنني أمسكت بها وصعدت إلى السطح مستنشقا الهواء. سلمت طرفها إلى الصياد العجوز فسحبها إلى القارب وقد أمسكت أسماكا كانت صيدا يغني الصيادين عن أي شيء آخر.

دعوتهما إلى مركبي فلبيا؛ كانا زوجين تجاوزا سن الستين...

ضمني الرجل بحنان أبوي بيديه المعروقتين، ووضع صدغه الناتئ على خدي، ومسح بارتعاش على شعري؛ فلا أخطئ إذا قلت إنه أبي في عطفه وأنا ابنه في استجابتي للشمته على جبهتي، وفعلت زوجته كما فعل؛ فلا أحسبها إلا أمي، وبكيا... أهو بكاء فرح على سلامتهما من الغرق، أم هو إحساس آخر؟ لأني رأيتهما ينزويان بعيدا؛ الزوج يمسح دمعا اغرورقت به عيناه، والزوجة أجهشت في

بكاء يخنقها؛ فتسمرت في مكاني مبهوتا؛ كنت أحسب أنني أسعدتهما بما قمت به إزاءهما؛ فانبرت هي للكلام؛ قالت:

– لا تعجب يا بني فوراء بكائنا نازلة...

قال الرجل:

– كان لنا ابن يكبرك في السن نُكبنا فيه.

وخفضا رأسيهما؛ لم يستطيعا أن ينطقا بكلمة فقد خنقهما البكاء.

استطرد الرجل:

– كما ترى يا بني ليس لنا ابن يعولنا؛ لقد اختفى فجأة منذ ثلاث سنوات؛ لا نعرف أ هو حي أم ميت، وكما ترى أننا عجوزان لا نقوى على الخوض في البحر لنصطاد ما نتقوّت به؛ لو لم تحضر في الوقت المناسب لأغرقنا الموج فنحن جثتان تنهشهما الكائنات البحرية.

التزمت السكوت؛ لقد ظهر أثر اختفاء الابن عليهما كثيرا؛ فتابع الرجل كلامه يحكي قصة ابنه المفقود:

– في فجر أحد الأيام سمعت ابني وأنا في فراش النوم يمشي في أرجاء البيت، ويستحم ويُعد فطوره ثم يُلملم ألبسته وحوائجه. نهضت لأن ما قام به ليس كما اعتدنا؛ فقد كان لا يبرح البيت ليذهب إلى الصيد في هذه الجهة من البحر بقاربنا؛ إلا بعد أن تطلع الشمس. قلت له: إلى أين أنت ذاهب في هذه الساعة المبكرة؟ قال لي بأن كمية السمك التي يظل اليوم بكامله يصطادها لم تعد تكفي لعيشنا، وقد عثر على عمل بإحدى سفن الصيد الكبيرة. لم أثنه عن

المضي إلى عمله الجديد؛ فكان يعود بعد أيام بمبلغ من المال تطول بها رحلات الصيد؛ تحسنت به معيشتنا، وفكرنا في أن ندخر ما يفضُل لبناء بيت يأويه وأسرته التي نرتقب أن نساعده في تأسيسها. انتظرنا في أحد الأَمْسِية لعله يعود كالعادة؛ غير أنه لم يظهر... وانتظرنا وقلنا لعل رحلته هذه المرة ستطول، وما زلنا ننتظر. حدثنا بعض البحارة أنهم شاهدوا في أحد الأيام سفينة صيد تتوغل في المحيط بلا هوادة، ولم تظهر بعد ذلك واختفاؤها لا يفسر إلا بأنها غرقت في إحدى العواصف، وتحدث الجميع بذلك وقد أعرضوا عنا لأنهم يُدركون مدى خطر البحر.

قالت زوجته:

– أرجو أن لا يكون ما تقوله حقيقة؛ فنفسي تحدثني بأنه ما يزال على قيد الحياة؛ إنه ثمرة رحمي وحدسي يُنبئني بهذا...

فإن لم يكن يعرف هذان الزوجان جيدا هجمات البحر الشرسة لما بكيا وخافا من أن يفقدا ولدهما وإلى الأبد، وإن كانا يتعلقان بأمل عودته دون أن يصيبه مكروه.

بروايتهما لواقعة اختفاء ابنهما كنت أفكر في والدي وفي نفسي فأقول: وإن لقيني نفس المصير فماذا يكون حال أبي وأمي؟ فلولا الفقر لما كان ابن العجوزين من ضمن طاقم السفينة؛ ولولا الفقر واستهتار سكان قريتي لما هاجرت.

هل حادثة الابن المفقود تنبيه لي؟ وما ظهور هذين العجوزين في طريقي إلا علامة تلوح في أفق رحلتي؛ فأعود من حيث أتيت.

قررت في الأخير أن لا أعود وكأنني قد وُكّلت من طرف هذين الوالدين بمهمة البحث عن ابنهما في ذلك الاتجاه الذي أسير فيه، والجهة التي أقصدها.

قلت لهما:

– إني مبحر في ذلك المسلك الذي أفضى بولدِكما إلى المجهول، وإني أعدكما إذا وجدت أثرا له سأسعى ليرجع أو أحمل إليكم قصة اختفائه.

رأيتهما يتشبثان بخطى متعثرة بجانب المركب ليغادرا؛ وعليهما أمارات الحزن واليأس، ويضمهما زورقُهما؛ وتجذف المرأة مكفكفة دموعها، والرجل يحييني رافعا يده؛ لا أدري أ هي تحية لقاء أو وداع؟

لم أتنح عنهما إلا بعد أن اختفيا في عتمة المساء التي كانت قد زحفت؛ فعدت إلى حبالي وشراعي وانطلقت بشجاعة إلى وسط البحر.

اليوم الخامس

سَبْي من بلاد النساء

لا يخلو شبر من الأرض من ليالي الأنس والمتعة والانحلال؛ ما دام الانسان هائم على وجهه على ظهر البسيطة يبحث عن ضالة وطره؛ التي لن تكون شيئا آخر غير الكسب المادي واللذة الجسدية؛ لا يحول بينه وبين تحقيقها عائق سواء في أرجاء القارات أو في البحر...

لا يركض الأسد ملك الغابة وراء فريسته باستماتة إلا بعد أن تخلو معدته من الطعام، ولا يأكل منها إلا مقدار ما يُذهب جوعه، ولا يملك من متاع الدنيا شيئا ويستسلم لقدره الأخير عندما يشيخ فتتربص به الضباع. أما الانسان

فيأكل بشراهة إلى أن تَتْخَم معدته؛ فيفرغ ما في بطنه قيئا ليعود مرة ثانية وثالثة؛ ليأكل ما بيده ويطمع فيما بيد الآخرين من بني جنسه...

في تلك الليلة التي ودعت فيها الزوجين العجوزين؛ لم أكد أقطع مسافة ميل بحري[1] حتى لاحت من بعيد أضواء تنبعث من داخل سفينة راسية في داخل المحيط، وسمعت نغمات كمان ونفخا في ناي وضربا على الدفوف بإيقاع سريع، وغناءاً بحناجر رجال، ورقصا بالأحذية على الخشب؛ فكان جميع هذا فورانا موسيقيا صاخبا ورقصا هستيريا وتدافعا جنونيا بالأجساد، وتدحرجا لقوارير الخمر على الأرضية الخشبية.

أبطأت سرعة المركب ولم أتقدم كثيرا. مشيت إلى الخلف وأنزلت القارب؛ ركبته ثم جذفت... كانت أذناي تلتقطان لغطا، وحين اقتربت سمعت إصدارا لأمر موجه إلى أنثى؛ فتصنت وكان هذا:

– هيا ارقصي وإلا جلدْتُكِ بهذا السوط.

يقول آخر:

– أ تضربها بسوطك؟

وأحد آخر يقول:

– إنه حزامك الجلدي الغليظ.

وصوت آخر:

---

[1] "المِيل: مقياس للطول قُدر قديما بأربعة آلاف ذراع، (...)، وهو بري وبحري؛ فالبري يقدر الآن بما يساوي 1609 من الأمتار، والبحري بما يساوي 1852 من الأمتار". (نفس المعجم السابق؛ ص. 931).

- حزام يجعلك تتمنطق بحزم.

يقول الآمر مرة أخرى:

- هيا ارقصي.

وغيره يقول بعجب:

- أوه... إنها خيزرانة!

وآخر:

- ظبية!

فآخر:

- جميع ما فيها معقود!

ثم آخر:

- لقد أينعت على التو.

يقول الآمر مرة أخرى ضاحكا:

- ليسكت جميعكم وإلا أوسعتكم ضربا على مرأى منها.

وجاء صوت جَهْوري آمر:

- أنا أرنبها الجَمُوح.

يقول آمرها بالرقص:

- بل أنا... إنها ملكي... أنا الذي سبيتها في غزوتي الشاقة الأخيرة.

قال صاحب الصوت الجهوري:

– أنا قائدكم؛ لا تنالوا من الأشياء إلا بعد أن أباركم فيها... لن تزف إليك يا هذا إلا بعد أن أقضي منها وطري[1].

استشاط مالكها غضبا وقال:

– ماذا تقول أيها القائد؛ فجميع أوامرك تُطاع إلا ما تطلبه الآن؟

قال القائد:

– أقايضك فيها بهذا الخاتم.

رد الآخر قائلا:

– الخاتم والساعة الفضية وسوار معصمك الذهبي.

قال:

– إنك تستدرج زملاءك إلى مزاد تريد أن تعقده؛ فهذا كثير؛ إذن سأنالها بحد السيف.

قال:

– لتكن المبارزة هي الفاصل بيني وبينك أيها القائد الطاغي.

قال:

– طغيانك أكبر. سبَيْت صبية ليس لها حام.

قال:

– منذ متى كنت بهذه الشيمة أيها السفاح.

---

[1] "الوطر: الحاجة فيها مأرب، (...)، (ج) أوطار، ويقال: قضى منه وطره: أي نال منه بغيته". (نفس المعجم السابق؛ ص. 1085).

قال:

– لن أُفسد على هؤلاء الرجال سهر هذه الليلة؛ سأُرجِأ مبارزتك إلى حين... ناولني يا ساقي الحان كأسا.

لم أفهم ما يجري؛ هل بينهم حقيقة أُنثى؟ أم يتمثّلونها بعد احتسائهم للخمور؛ لقد خفتهم وارتعدت فرائسي؛ عندما سمعتهم يتوعدون بعضهم البعض بالمبارزة بالسيوف؛ هي سكاكين حادّة يُشهرونها دون شك في وجوه بعضهم البعض، ومقايضة بعضهم البعض كما قالوا في فتاة سباها أحدهم.

من هؤلاء، ومن أين جاءوا، ولأي غرض كانوا يبحرون، وإلى أين يتّجهون؟

جذّفت وطُفت بالقارب حول السفينة؛ كانت بمحرك الوقود السائل. لم أجد أحدا يقوم بحراستها؛ فاطْمأننت وقلت سأتسلح بذكائي. قرَّبت الزورق من جانب السفينة؛ فوجدتني مباشرة أسفل نافذة دائرية. اعتليت حاشية القارب بقدمي وقبضت بيدي على دَرابَزين[1] السفينة؛ فقاربت قامتي النافذة، ثم نظرت إلى الداخل... كانوا نفرا من عشرة رجال أشداء. عرفتهم من خلال بشراتهم المحترقة بأشعة الشمس وكحول الخمور إنهم صيادون تعساء، وكانت المرأة حقيقة؛ فهي فتاة في مثل سني؛ يحيطون بها وهي بينهم ترتعش من الخوف، ولم يكن غيرها من النساء.

[1] "(الدّرابزين): حاجز على جانبي السلم؛ يستعين به الصاعد، ويحميه من السقوط،). (نفس المعجم السابق؛ ص. 286)، ويقصد به هنا حاجز جانب السفينة.

يتقدم الواحد منهم لتبطش بها يده، يصرفه آخر بحزام جلدي عريض؛ لم يُخالجني شك في أنه هو مالكها، ويُغافله آخر ويجرب حظه؛ فيلمس الفتاة باشتهاء وينفلت هاربا. يتقدم آخر فيدفعها بكلتي يديه إلى أحدِهم يتلقفها ضاما إياها بصدره؛ فتنزل عليه الضربات؛ يتراجع وقد آلمه السوط الجلدي؛ فيهيج ويهجم على صاحب السّوط بسكين محاولا قتله؛ يتلقاه هذا بلكمة؛ فتبدأ معركة دامية لا تنتهي إلا بعد أن يُفرّق بينهما إثنان بعد جهد جهيد.

إن ما يُمارس على الفتاة هو احتقار واستصغار، وتكالب على جمال أُنوثتها، واستئصال لبراءتها الظاهرة في عينيها الفزعتين. في انتفاضتها المتتالية، وهروبها الذي لا يُجدي علامات خوفها الشديد. لفظاعة ما شاهدته حدثت في قفص صدري هزات عنيفة؛ فاشتد شهيقي وزفيري وأصبح جسدي كله كمغزل يتذبذب، وغلت الدماء في عروقي. إن الفتاة جزء مني؛ إن تعرضت لاعتداء في جسدها سأفقد صوابي، وستظل صورته ماثلة أمام عيني ما بقيت حيا. سأفعل كل ما يُسعفني لأحررها من هؤلاء السّفِلة من البشر.

تلفتت حوالي بجنون ورميت ببصري إلى سطح السفينة؛ فوجدت براميل بنزين الوقود؛ رُصت على جانب من غرفة القيادة، وسلسلة حديدية بطول مترين مُدّت بإهمال؛ لم أتحر وجودها في ذلك المكان؛ هي قطعة من تلك التي تُرفع بها المرساة، وقارب نجاة... حدثت نفسي: "هذا يكفي".

كانت المبارزة قد بدأت بين الذي يدعي ملكيته للجارية وقائد المركب. عُدت إلى المشاهدة من خلال الكُوّة... كانا يطعنان جسديهما؛ كلاهما يمسكان

بسكينين عريضين؛ في عيونهما أثر ما يُبطنان، وهو الضربة القاتلة. استَرجعت هدوئي؛ فقد تبين لي أنهما سيقتتلان إلى حد الموت، وبدا لي أني سأنحو بالفتاة. كان الجميع ثملين؛ يتساقطون مهدودين بالكحول على أرضية السفينة كأوراق الخريف.

أوغر القائد سن سكينه في كتف الآخر؛ فهوى هذا الأخير ينزف من دمه. امتدت يد القائد وهو يترنح وقبضت بساعد الفتاة النحيل؛ دافعا إياها إلى الأمام؛ يسُوقها صاعدا السلم المفضي إلى السطح؛ يحيط خصرها بذراعيه ويدخل بها إلى المقصورة.

أنزلت بسرعة زورق سفينتهم إلى البحر، وتركته ينجرف بعيدا بالتيار البحري، وسكبت محتوى البراميل من البنزين على السطح، وبميلان السفينة بأمواج البحر انحدر السائل القابل للاشتعال سيولا على مساحة كبيرة، ولم أخطئ احتكاك رأس عود الثقاب بحديد محزوز كمبرد فالتهب، ثم رميته؛ استقبله البنزين بحفاوة، فارتفع لهيب كأنه منفوث من فوهة بركان؛ امتد إلى الحبال فتساقطت أطراف من هذه مشتعلة؛ وتأججت النار في السفينة، ثم غصت في الماء وأدرت السلسلة بزعانف مروحة المحرك، وهجمت على المقصورة. كان القائد يستميل الفتاة بعواطف كاذبة وعيناه تشعان خذلانا طافحا. دفعته بكل ما أوتيت من قوة فسقط على وجهه يئن؛ معفرا بسائل الوقود فاختنق بالرائحة القوية؛ فوهنت قوته بالنزال والخمر. أحكمت بقبضتي على ساعد الفتاة وأدليتها كدلو في قاربي، وأسرعت مجذفا بعيدا.

سمعت أحدَهم يُنبّههم وقد طمَس الخمر عينيه:

– أُنظروا؛ واحد منكم هرب بالفتاة... لنُنزل القارب ونلحق به... أطفئوا النار وشغلوا المحرك.

لكن عندما تفقدوا القارب وجدوه قد حمله التيار بعيدا، والنار المستعرة قد أتت على مقدمة السفينة، وأُدير المحرك فطارت المروحة المكبوحة بالسلسلة الحديدية؛ مُدمّرةً المؤخرة؛ فانتهى كل شيء. رأيتهم وقد رموا بأنفسهم إلى البحر. كان قد حدثني أحد الصيادين في إحدى ليالي الصيف بأن سمك القرش يكثر في هذه الجهة من المحيط؛ وقد نزف هؤلاء فمن غير المستبعد أن تستدرج دماؤهم هذا الحيوان البحري الشرس؛ فهم وليمة مستساغة له في تلك الليلة.

لم أكن أتردّد؛ فكان إبحاري دائما في ذلك الاتجاه الذي أسير فيه منذ أن غادرت القرية، ولم أكن لأعيد النظر فيه حتى في لحظة تخليص الفتاة من أيدي ذوي الرُّعونة والاستخفاف؛ فكنت أهمز مطيتي بآلات الإبحار محاولا الابتعاد عنهم أكثر ما استطعت؛ فلا يَقْفون آثارا لا علم لهم بها؛ فأرجاء البحر شاسعة؛ فسرت في ذلك الاتجاه الذي أشار إليه أحدُهم، ولما وارتني الأمواج وأخفاني الظلام أخذت الطريق المعاكس مُتوغّلا في البحر؛ وبذلك يكونون قد ضلوا طريقي؛ إذا ما بقيت لهم وسيلة يركبونها ليتعقبوني.

كانت الفتاة تظن في كل من يحاول الدنو منها أنه يُمني نفسه المتعطشة بأن تنال منها ما تشتهي؛ فما زالت تنظر بخوف. حاولت أن أُطمئنها بأني مُسخّر إليها في وقت كانت في مَسيس الحاجة إلى مُنقذ. نظرت إلي أخيرا باستكانة

وبكت. أشرت إليها بالدخول إلى المأوى. اتجهت إلى الأريكة وجلست بانهيار، وما زالت لا تصدق أ أكون آزِرُها أم كائنا مدفوعا بغريزته على مُحياه مروءة ظاهرية. فكرت فيما يُستحسن أن يُقنعها؛ فخاطبتها:

– لا تنزعجي... أعدك أنني سأعود بك إلى ديارك...

مسحت أخيرا دموعَها وتمددت ضامة يديها إلى صدرها ورجليها إلى سُرّتها، ونامت بهيئة جنينية.

انتبهْتُ في أحد الأوقات فلاحظت أن الظلام بدأ ينجلي، وظهر نور برتقالي اللون في الأفق يتقدم قرص الشمس؛ يُعلن عن بداية نهار ينقل الفتاة من ليلة سوداء ومريعة كأنها أضغاث أحلام؛ إلى دنيا يعمها شُعاع الشّمس؛ فضوء يكشف عن جمال طبيعة؛ يعيد للكائنات سعادتها بوجودها؛ فما كان منظورا أشرعةُ سفن عابرة بيضاء ترفرف هنالك بعيدا، وطيورُ النورس يقطع صوتها المنبه صمت الشواطئ الخالية في ذلك الصباح المنعشة برودته، ودلافين لطيفة ناعمة المظهر حنونة تسابق المركب، وحط على الصاري طائر أجنحته بألوان قوس قزح؛ مُعرّجا في رحلة طيرانه مُلقيا علينا تحية السلام. استيقظت الفتاة على ضوء الشروق وعلى أصوات الصباح الخافتة، وخرجت إلى السطح. كنت مشغولا بتوجيه المركب وملاطفة الأمواج، ودون أن أنصرف عن النظر إلى ضبط الاتجاه سألتها:

– من أية بلاد أنت؟

قالت:

– من بلاد النساء.

سألتها باستغراب:

– أتوجد بلاد بهذا الاسم؟

قالت:

– عدد رجالها قليل؛ الكثير منهم مُسنون؛ تعولهم زوجاتهم من صيد السمك.

قلت:

– أ لم يلِدْن ما يكفي من الذكور؟

قالت:

– أنجبن رجالا شداداً.

قلت:

– هل هاجروا وإلى أين؟

قالت:

– بل رُحِّلوا... سيقوا طوابيرا إلى حرب ضروس؛ فمنهم الأسير والمفقود والمقتول؛ فكان النساء نهبا للقراصنة؛ يظل هؤلاء يجوسون بين الصخور عند غروب الشمس؛ متربصين بالفتيات اللواتي يساعدن أمهاتهن في الصيد على ظهور قوارب ملفقة بقطع من خشب بالية ومتشبعة بماء البحر المالح.

قلت:

– ما فهمت أنك كنت ممن يُساعِدن أمهاتهن.

قالت:

– وكان أبي ممن استُنفروا للحرب مُجبرا على القتال. كان حاكم تلك البلاد يُعلن على جيرانه والقوافل التجارية حروبا مفاجئة؛ ليغنم لنفسه ولذويه ولبطانته النساء والمال والحلي والفاخر من الألبسة. لا يطرأ على باله حال من أحوال الرعية؛ كان سكيرا ومتسلطا وناهبا.

قلت:

– فما مصير والدك؟

قالت:

– جاءنا في ليل أحد الأيام رجل ملثم وقال لأمي: زوجك أسير في بلاد بعيدة. اعتني بنفسك وابنتيك واصبري فقد تطول مدة الأسر أو قد لا يعود.

قلت:

– لك أخت إذا؟

قالت:

– تصغرني بسنتين.

استطردت قائلة:

– وطالت مدة الأسر كما قال الرجل الملثم.

سألت:

– كم؟

أجابت:

– ست سنوات ولا نعرف أ ما يزال حيا أم ميتا؟

قلت:

– كان عمرك زمن الأسر عشر سنوات.

قالت:

– ستبقى صورة والدي ماثلة أمام عيني.

– ما اسمك؟

– آمنة.

و اسم أبيك؟

– عُمر.

قلت مُتأهّبا إلى عُدة الإبحار وكنت قد سهوت طيلة الحديث:

– لنأخذ طريق العودة. في أي جهة تقع بلادُك؟

قالت:

– في الاتجاه الذي تغرب فيه الشمس.

سألتها:

– كم سيطول السفر؟

أجابت:

– نهارنا هذا.

قلت:

– لنُرافق الشمس في رحلتها في السماء مُستأنسين بها.

أدرنا ظهورنا للشمس المشرقة ووجهنا مقدمة المركب في اتجاه تلك الناحية التي نأمل أن ينتظرنا فيها القُرص في غروبه.

اليوم السادس

في بلاد النساء

لم أفطن إلى ما سيترتب عن وجود الفتاة في مركبي وفي وسط البحر من حوادث؛ قد لا تطرأ على البال؛ قد أُسْجن أو أُقتل أو ألقى مصيرا آخر لا أعرفه؛ فقد شجعني نجاحي في إنقاذ الفتاة؛ كان يبدو الغدر بها في عيون أولئك الأشرار، واقتتلوا لا لغيرة عليها بل ليبدأ أولُهُم في تحويل فتاة غِرّ إلى امرأة نديمة وبغي؛ لا تمتنع فتستجيب؛ قلت شجعني ما فعلت على المضي في اصطحابها إلى أن تلتقي بعشيرتها؛ وفي أقرب وقت إذا أمكنني ذلك؛ فكنت ألتفت بخوف وبتأهّب في كل ناحية أرى فيها علامة تدل على أن مركبا أو سفينة تُبحر؛ فتُساورني شكوك في رُكّابها هل هم من دِماث البشر أم من أشراره؟ وتمر السفينة بالقرب منا ويلوح إلي أحد ركّابها بيده بتحية خالصة أطمئن إليها. كنت آمر الفتاة بالنزول إلى المقصورة وتوصد عليها الباب، ولا تقوم بأي فعل يدل على أن في المركب شخص ثان أنثى؛ فيثير هذا في العديد من العابرين فضولا، أو نصادف آخرين يستسلمون لنفوسهم الشريرة، وكلما تقدمت أتصور أحداثا جساما؛ وأسأل شخصي: كيف سألج شواطئ بلاد النساء، وكيف سأتخلص من آمنة عند اقترابي؟ ثم كيف سيكون لقاؤها بأهل تلك البلاد من النسوان؟ لم أستبعد وجود قوات الحاكم الطاغي لخفر الساحل، وقراصنة لخطف النسوة؛

يراقبون ظهور الإناث على زوارق الصيد تجنح بها الأمواج إلى مكان بعيد في البحر، فتراجعت شجاعتي ورغبتي في الإقدام على أكثر مما قمت به، ولن أستعيد رِباطة جأشي إلا بعد أن أوصلها إلى والدتها وأختها دون أن يمسسها أحد بسوء أو يعبث بها.

أنا سائر في درب من دروب الحياة؛ ينجلي الظلام الذي كان قد داهمنا وقت وصولنا عن أشباح لا أدري طَبْعها؛ ولا تنتظر غير ما هو أسوأ. كانت الفتاة تنظر إلى الأمام من خلال الكُوّة في الصباح الباكر من اليوم السادس وتتبين من العلامات ما يدل على أن الشاطئ قريب؛ فصاحت في إحدى اللحظات بسرور وتهلل وجهها فرحا، وهي تشير إلى قاربي صيد تعلو بهما الأمواج وتنخفض، وتُميل هامات تغطيها قبعات حيكت بسعف النخيل؛ تحميها من أشعة شمس لافحة في وقت الظهيرة. قالت:

– إنها إحدى جاراتنا... هي وأمي يتشاركن في الصيد.

قلت:

– لنقترب منها، ثم اسأليها.

نظرت الجارة إلى قاربي وهو يدنو بعينين هادئتين؛ ماضية في سحب أسماك انغرزت في خياشيمها صنانير من الصُّلب؛ لم تعر اهتماما إلينا أول الأمر؛ لعل الأشعة التي تعكسها صفحات الأمواج تُغشّي بصرها، ثم انتبهت إلى يد تلوح؛ فأمعنت النظر إلى صاحبتها... عرفتها أخيرا؛ فالتفتت إلى الوراء مستنفرة

صيادات أخريات بأن يُنادين على أم آمنة. نظرت آمنة وأنا كذلك إلى حيث نظرت الصيادات؛ فلم نعرف لها مكانا... قالت الجارة:

– أمك هناك تركن بقاربها إلى صخر... منطوية على نفسها منذ اختفائك.

فارتفعت الأيدي بالتلويح، وعم المكان صياح النسوة ينادين على الأم، وزغاريد وتصفيق ورقص.

أشارت الجارة إلي بسبّابتها سائلة آمنة:

– من يكون هذا الشخص؟

قالت آمنة:

– إنه هو الذي خلّصني.

قالت الجارة:

– إنه فتى بحار... حاذق وشجاع... يظهر منه هذا.

جاء مركب الأم سريعا. تحرر المجذافان من قبضتي يديها؛ وتُركا لحركات الموج؛ فتَلقّى حِضن الأم الابنة، وتدفقت دموع الفرح.

أدرت الدفّة فتزحزح مركبي مُغيّرا اتجاهه نحو وسط البحر. انسحبت به بعيدا أنا الذكر الوحيد بين مجتمع للإناث؛ عن النساء اللواتي تجمعن بقواربهن يُباركن عودة الفتاة ولقائها المفاجئ بوالدتها. فحلولي المباغت ببلاد النساء وبرفقتي آمنة سيثير الشكوك؛ هل سيقتنع البعض منهن بأنني مُنقذها فحسب؛ فابتعدت بقدر ما استطعت وكأني هارب من حكم جائر؛ تصورتني على التو بأني ضحيته؛ فلم تعد تظهر إلا رؤوس النسوة ترتفع وتنخفض بحركة الموج. رجعت من جديد إلى

حريتي غير ملزم بفعل أي شيء أو تنفيذه؛ غير أن هذا الشعور لم يستمر طويلا...

فذلك الشعاع الذي يظهر ويختفي لم يكن سوى ما تعكسه العدسة الزجاجية لمنظار مكبر، وهو بين يدي شخص يراقبني؛ أ هم قراصنة أم بحارة الحاكم؛ الماضون في حراسة السواحل والثغور؟ سواء أ كانوا من هؤلاء أم من أولائك قررت أن أجنح بمركبي إلى شاطئ رملي أختبئ فيه، أو شاطئ صخري يحميني من وصول سفينتهم إلي. ما كاد قاربي يقطع مسافة قصيرة حتى اعترضه مركب كبير لم أر مثله من قبل؛ فكثيرا ما تُعجبني أشكال السفن؛ بمقدمتها المندفعة إلى الأمام وبمؤخراتها المقوسة والوطيئة، وعليها تُبنى المقصورات المطلة على السطوح؛ بشرفاتها المزينة بأعمدة مخروطة، وفسحات بين الحواشي وجُدُر المقصورات؛ تزيد ركوبها أُلفة ورضى في النفس المتعطشة للانطلاق نحو المجهول، وتُذهب سأم المكوث الطويل في البحر. لم تتسق أجزاء ذلك المركب، وكان ينغمس بثقل قطع خشبه السميكة؛ فيخيل للناظر أنه سيغوص في الأعماق؛ فكان إبحاره بطيئا، وقد صمم لارتياد البحار والشطآن في أي وقت من السنة؛ لا تُثنيه حالات الطقس الرديء، وارتفاع الأمواج في عاصفة هوجاء؛ مطلي بلون المياه الضحلة الغامق. تُصوب من داخل بدنه، وعبر فتحات ضيقة فوهات مواسير المدافع والبنادق؛ فأدركت أنه سفينة حربية؛ على متنها بحارة جنود؛ مهمتهم خفر سواحل مملكة الحاكم. أطلق القائد العنان لسفينته هذه؛ فطفقت تدور حول مركبي في محاولة لإرعابي؛ فتتالت الأمواج التي أحدثها غاطس السفينة الضخم،

وأطبقت على قاربي من جميع النواحي؛ فسدت دوني كل مخرج أحاول أن أنفذ منه؛ بل كانت تلك الأمواج أسواراً عالية تقف في وجهي؛ فلا مخرج لي؛ ثم أُرسل حبل رُبط في طرفه مِخْطاف حديدي انغرزت أسنته في خشب مركبي؛ فكانوا بعملهم هذا قد أخذوا بأرسان جوادي. جذبوني إليهم وأحكم أحد البحارة بقبضة من حديد على ياقة قميصي ورفعني؛ فوجدتني مدحرجا على سطح المركب الذي امتلأ بالحبال الغليظة وصناديق الذخيرة، وجزمات جلدية متينة. رفعت بخوف عيني إلى مُحتذيها؛ كانوا بوجوه غبراء وشعور شعثاء؛ لا أكاد أتبينها. قمت وأنا أُعيد نطاقي إلى وضعه المعتاد، وكمي قميصي وسروالي إلى هيئة أعضائي. كانوا عقبانا كاسرة تَربَّوا على التعذيب وسفك الدماء. تنهش مخالبهم في جسدي دفعا بي وركلا في ساقي وظهري، وصفعات تدوي على قفاي. لم أستفسرهم لم كل هذا، فلم أعرف سببا لذلك؛ وما أرجحه أنني في حسبانهم أحد المتربصين بالنساء، أو يستخبرنني؛ فظهر من بين مناكبهم وقاماتهم الطويلة قائدهم؛ تصفحني ونادى بصوت ترتج له أركان السفينة:

– أين مندوب السجن؛ نادوا عليه حالا؟

صاحوا جميعا:

– إنه بيننا أيها القائد.

فتقدم عملاق ذو جبهة ضيقة ووجه عريض. تدلّت وجنتاه فلا يُحسب إلا أنهما تمضغان قطعا من اللحم. يشتد زفيره ونفيره؛ تتقدمه أنفاس حارة وكريهة؛ لفحت وجهي ودَوّختني. أمره القائد قائلا:

- أحْكم وَثَاقه واحتفظ به حتى نودعه في سجن الكهف البحري.

ساقني المندوب العملاق إلى حاشية المركب مخاطبا إياي:

- أدِر ظهرك يا خاطف غوان بلاد النساء واجلس.

جعل يدي إلى الخلف وربطهما بحبل متين إلى عمود خشبي، وتفنن في العقْد إلى حد أحسست كأن الخيوط المفتولة تذبح مفصلي يدي.

اليوم السابع

في سجن الكهف البحري

لم تكن أية جهة من الجهات تعنيني أكثر من تلك التي تُبحر إليها السفينة؛ فكانت عيناي تتنقلان بين ما يجري على سطح المركب حيث كان عسكر البحر ينفذون أوامر قائدهم التي كانت تصدر بنبرة حادة؛ لا يُسمع غيرها؛ تستعجلهم وهم في خوف؛ فالتباطؤ يعني على الإطلاق رفض وتعنت. كان في نظراتهم استسلام واستخذاء؛ فسجن الكهف ليس فقط لمن فعل ما لا يُرضي الحاكم وتمس منافعه المادية؛ هو أيضا لمن لا ينصاع لأوامر ممثليه والمندوبين الرسميين... قلت كانت عيناي تتنقلان بين ما يجري على السطح وبين مرمى البصر؛ تُحدقان في المجهول؛ أنتظر لتكشفان عن شكل المكان الذي يُحبس فيه المسجونون، ويظهر من قسوة هؤلاء أنه ليس سجنا فقط؛ فللسجن يوم تُفتح فيه أبوابُه لأحد يتم تسرحه... فهو مقبرة للأحياء.

زال ضباب البحر باندفاع السفينة وتقدمها -بعد نصف ساعة- عن كتلة صخرية هائلة؛ كانت جزيرة يحُفّ بها البحر من جميع الجوانب؛ فليس هناك فقط

سجن في شكل كهف بحري؛ فهو في جزيرة تبعد عن البر مسافة طويلة؛ تخضع شواطئها لمراقبة بحارة السفينة؛ يظل ربانها يقظا؛ كنت أتابع حركاته لا يستغفلني؛ فكنت متأهبا لأمر يُصدره يعنيني؛ فلم أره يدخل إلى مقصورته؛ ولا يغمض له جفن، ولا يتأخر في تصويب منظاره المكبر في أية جهة يُعينها له حدسه. يتوارى خلف صار ليظهر من وراء آخر. لوطء جزماته وقع متتابع؛ يصل إلى المسامع؛ فكان نَوَسانا يتحكم في نظام ذهاب البحارة وإيابهم؛ فيما يقومون به ويقعدون عنه؛ وفيما يتناولونه من أدوات وفيما يتركون منها، وفيما يأكلون وما يشربون؛ كان عضلة من جسد الطاغي تسري فيها روحُه، ودماء تغلي فيها من شرايينه.

أُمر بإلقاء المرساة فاصطدمت بالماء؛ فتطايرت على وجهي قطرات باردة؛ ساحبة معها سلسلة حديدية؛ كان لاحتكاكها بهيكل السفينة الحديدي صرير يعلن نهاية الرحلة؛ فسَرَت في جسدي قُشعريرة وارتعدت مفاصلي. نقلت عيني بين القائد وعساكره، ونظرت أبعد من مقدمة المركب فرأيت جرفا عاليا؛ كانت الجزيرة أجرافا بذلك العلو؛ ليس لها شاطئ رملي؛ لذلك اتخذوها سجنا أبديا.

أمر مرة أخرى ذلك القائد الفطن فاستجاب البعض بأن جروا إلى رافعات؛ فكوا عُقد حبالها فهوت زوارق وارتطمت بالماء؛ قفز إليها بحارة بمجاذيف. حررني ذلك العملاق من القيد وشد ياقة قميصي، ثم رفعني وتركني في الفراغ أهوي في داخل أحد القوارب، وهو في أثري لا يخلي سبيلي؛ فجذف البحارة في بحر يمتد داخل مغارة؛ تردد صوت التجذيف في أرجاءها، وما يزالون يجذفون حتى اصطدمت مقدمات القوارب في مساحة من الرمل؛ يصل إليها البحر

بأمواجه في مده ويتراجع عنها في جزره، ففي مده يختفي مدخل المغارة؛ فلا تظهر لعابر شواطئ الجزيرة، ولن يعود من يؤخره عمل من البحارة إلا بعد أن تجزر المياه في الغد؛ هذا يحدث في فصل صفاء السماء وسكون الرياح وهدوء البحر؛ أما في فصل العواصف والرعود والبروق والمطر المدرار؛ فتزحف أمواج البحر وتشرع في جلد الأجراف الصخرية؛ فيُسد مدخل المغارة؛ فلا قادم يستطيع أن يلج داخلها ولا أحد يحاول أن ينفلت إلى الخارج؛ فيُترك السجناء بين الحياة والموت مدة تزيد عن ستة أشهر.

لم ترس القوارب، ولم تمهل الأمواج الزاحفة والمتقهقرة البحارة حتى تطأ أقدامهم الأرض؛ فكانوا في صراع مع المياه التي تموج. يتمكن أحدهم أخيرا من التعلّق بصخرة؛ فتعود الموجة خاوية الوفاض؛ لقد أفلت وفي يده طرف حبل أحكم عقده حول رأس الصخرة الناتئ؛ فاستقر القارب. أنزلني العملاق وساقني في أرض رخوة؛ كانت تعلوها طبقة من النباتات البحرية، وفي سيري كانت تلك الأرض تتكسر بوطء قدمي، وسمعت في نفس الوقت أصوات تهشيم بأقدام العملاق والبحارة؛ تشبه تلك الصادرة عن قطع الخزف وهي تتشظّى؛ نظرت إلى أسفل... شاهدت بقايا جماجم وعظام لهياكل آدمية جافة وهشة؛ امتص الماء المالح وحرارة الجو لزوجتها...

هل هي مقبرة للسجناء المتوفين؛ عرّتها الأمواج من التراب الذي تُطمر به جثتهم؟

لم يكن الأمر كذلك؛ فقد صادفت هياكلا عظمية ما زالت عليها قطع من أثوابها البالية؛ محصورة بين الشقوق أو ممددة على تضرس الصخور؛ فتخيلت صورة السجين الذي يموت فيُلقى بالجثة في مياه النهر البحري؛ ليحمله تيار الجزر بعيدا في البحر، أو يصيب جسده الوهن والضعف بسبب المرض أو الجوع؛ فيرمى به وفيه بقية حياة؛ لأن السجناء لم يجدوا ما يطعمونه به أو دواء لتطبيبه.

لو لم أُهاجر قريتي لما قُبض علي فأُساق إلى هذا المكان الذي تفوح منه رائحة الموت؛ لم تر مثله عيناي من قبل، ولم أكن أتصوره يوما. قد أندم على ما أقدمت عليه، ولكن الأمرين عندي سِيَّان؛ فليس ما يسود في قريتي أخف ضررا من هذا الذي يدفعني إليه العملاق الذي اعتاد على الزج بجميع هؤلاء السجناء في هذا السجن الرهيب. لم أر في طريقي إلا جرفا صخريا؛ يتدلى من أعلاه سلم من حبال تنتظم في طوله الضارب في مدخل مغارة أخرى في الأعلى –تشع منها أضواء لهيب نار– عيدان خشبية هي الدرجات. في عتمة المكان سمعت العملاق كأنه يخاطبني؛ كنت مذهولا؛ أذناي لم تعد تلتقطان شيئا مما يحدث حولي؛ فسمعته يقول ربما للمرة الثانية أو الثالثة:

– تسلق يا هذا خير لك؛ أن تستوي قدماك على أرض المغارة من أن تتردد فيرمي بك الحبل الذي لا يستقر على حال غريقا في البحر.

أسرعت فأُفضي بي إلى مغارة منقورة في باطن الجزيرة؛ لم أر غير هوابطها ونوازلها وأشباحا لرجال؛ منهم من يستلقي على ظهره يُحدق في الفراغ، ومنهم

من يضطجع نائما وفمه إلى الأرض يمتزج لُعابه بالتراب، وآخرون يحشرون أنفسهم بين النوم واليقظة في حفر طولية كأنها توابيت.

كان قد اختفى الشَّفق؛ ضوء الغروب الآتي من مدخل الكهف، والذي كان يعكس في تقدمنا خيالاتنا على الجرف الداخلي؛ فلم يكن إذا يصل نور الشمس إلى المغارة العليا الْبَتّة؛ في ركن منها كان أحد السجناء يقوم على قِدر كبير موضوعٍ على نار؛ يحرك ما فيه بمغرفة خشبية كبيرة، ويتصاعد بخار السائل الذي يغلي؛ لم يكن شيئا يجهز غير ماء يُسلق فيه أُرز؛ يُمد إلى المحبوسين في أطباق من خشب العرعار.

هل كان العملاق والمكلف بزجي في السجن على الأثر؟ بالرغم من فظاظته فإني كنت أستأنس به في طريقي إلى هذا المكان المخيف. بحثت عنه فلم أجده؛ لم يصعد؛ كان السلم قد سُحب ورجع هو والبحارة أدراجهم إلى السفينة؛ لقد سمعت المجاذيف تضرب في مياه النهر البحري ضربات العودة، ويبتعد صوتها شيئا فشيئا حتى يُغيّبها البُعد.

اليوم الثامن

الرجل الملثم

نظرت في عمق المغارة فلم أتبين لها نهاية. تراجع السجناء وأخذوا لهم أماكن بعيدة عن حافة الجرف؛ تُسحب على المساحة التي تليها الجثث؛ فيُلقى بها في جوف المغارة السفلي؛ كأنها فم فاغر لوحش لاحم مفترس؛ فابتعدت أنا أيضا عن الحافة المريعة؛ مُمهّدا طريقي بين بقايا الجماجم وعظام الهياكل وأجساد

ساجية[1] بين الحياة والموت، ثم لذت بركن آمن مالت إليه نفسي؛ انكمشت فيه ملتمسا دفء جسدي...

يجري حديث بين سجينين:

قال الأول:

– لا يكاد أحد أن يشبه ذلك الرجل الملقب بالملثم في عطفه وحنانه.

قال الثاني:

– أ لا تراه يقوم بنفسه بخدمة المساجين.

قال الأول:

– نعم... إنه يسهر على إدارة القِدر؛ يطبخ لنا الطعام كما يطبخه لصغاره.

قال الثاني:

– هل تعلم ماذا قال لي يوما؟

– قل لي عفاك الله من جحيم هذا السجن.

– قال لي بأنه ينقل أخبار المساجين وأسرى الحروب إلى زوجاتهم وأبنائهم، ولا يطلب مقابل ذلك إلا وجه الله.

– أ لم أقل لك في البداية أنه يشفق على الناس ويرأف بهم.

– غضب الله على أولئك الذين وشوا به.

– أولئك لا يكاد يخلو منهم مكان وموجودون في كل زمان.

---

[1] ساجية: فاترة وساكنة.

غادر الثاني مكانه واقترب من الأول، ودس وجهه في منكب صاحبه؛ يريد أن لا يسمع أحد كلامهما، ولا يذهب صوتُهما أبعد من مجلسِهِما.

قال الأول:

– وإن كُنّا في هذا الأَتون[1] لا يَصْلى بناره غيرُنا، فإننا نخشى أسماعا مبثوثة.

قال الثاني:

– أو تظن أن بين هؤلاء الموتى جاسوس مبعوث به ليَسترقّ السمع؟

قال الأول:

– لا يأخذك شك في هذا؛ فكل وسيلة يتسلح بها الطاغية إذا كانت تحقق الغرض.

قال الثاني:

– في دنوي منك يعني الرجل الملثم.

قال الأول:

– إنه هناك يُطعم السجناء؟

قال الثاني:

– إنه مطبوع على الإيثار.

قال الأول:

– ذلك ما لمسناه فيه.

قال الثاني:

---

[1] "الأتون: الموقد الكبير، كموقد الحمام...". (نفس المعجم السابق؛ ص. 4).

– إن حراس حاكم هذه البلاد يُرخون له حبل القيد ويتركونه يتصرف باندفاع حتى يُظن أنه يخطط لشيء غير القيام على خدمة المساجين.

قال الأول:

– كأن يُتّهم بأنه يُهيئ لثورة داخل السجن.

قال الثاني:

– وليُنفذ فيه حكم الإعدام بالمقصلة.

قال الأول:

– وليكون أُمثولة لغيره.

قال الثاني:

– انتهى كلامنا عند هذا الحد.

وعاد الثاني إلى مكانه وقد أحنى رأسه؛ كأنه لم يتحدث بشيء ولم يسمعه. كانت نظراتي تجول في هيئة الرجل الملثم وفي قَوامه، وفي تقاطيع وجهه، وهذان السجينان يتفوهان بكلامهما، وكنت أقول: كان عليهما أن يحذراه إذا كان يعلمان ما يُدبر له صحيحا.

أو يستطيعان فعل ذلك؟

فإذا ما حاولا إخباره بما يُخطط له سينكشف سعيهما؛ فهما في عداد المتواطئين.

كان الرجل يُلثّم وفي حُسبانه أن لثامه يُخفيه عن أنظار الرُّقباء؛ فيسعى ناقلا ما تحاول سرايا الحاكم أن تُبقيه سراً وهو مصير من استُنفروا؛ أقول هذا وعمر والد

آمنة واحد من هؤلاء؛ وكانت قد قالت آمنة أن رجلا ملثما جاء في إحدى الليالي إلى والدتها بالخبر اليقين؛ أن زوجها سجين في بلاد بعيدة... إذا فهذا هو الرجل الملثم، وما كدت أخلُص إلى هذا الاستنتاج حتى انجلت عنّي غمة السجن؛ ففي صُحبتي لهذا الرجل ما يُتوقّع حُدُوثه.

ومنذ ذلك الحين وأنا أتحين الفرص لأجتمع معه وأبحث عما يصلني به من كلام لا يتبرم به. عندما كان يعود إلى الحيز الذي يحتله يُمسك بكتاب، وعلى حُزمة من نور الشمس تجد طريقها إلى الداخل عبر فتحة في الصخور يقرأ ما طبع على صفحاته. حبوت نحوه على شظايا الصخور كطفل استدرجه شيء ما له شكل، وقلت له:

– أنا أيضا لدي رغبة في القراءة.

قال دون أن ينظر في وجهي:

– هذا الكتاب يفيض نورا. إذا أمسكت به وقرأت حرفا منه والذي يليه، والكلمة والتي تتبعها؛ تَبدّد ظلام سجنك، وأُضيئت جنباتُه ورحُب بك المكان؛ فلا تضيق بك جُدُره. تجد فيه أنيسَك ونديمك، وتطرب به وتمرح؛ فلا يجد الحقد ولا الضغينة ولا الشكوك ولا عداوة تُكنّها لأحد طريقها إلى قلبك؛ حتى للحاكم العاتي نفسه. تستصغر ما من أجله سُجنت... تافه ذلك السبب. يشقى السجين ويَدمى قلبه وينهشه الندم لأنه أجرم، والحياة ماثلة أمامه ترتدي أردية سوداء؛ يتجرع وجودَه في الحياة مرارة؛ فينهار وقد يُقدم على الانتحار. فيه عتق من جحيم الدنيا والانطلاق إلى عالم الآخرة... فأنت أيها المودع في مثل

هذا السجن لبطش منك وتطاول، ولتُهمة أُلصقت بك أنت برئ منها؛ فأُلْقِمت ظلما تجتره وتهذي به في ظلمات ووحشة السجون؛ قد تُذهب بعقلك فأنت مجنون لا قيمة للدفاع عن نفسك. تقرأه فتقر بأن الجاني والمجني عليه رميم؛ لا يبعثهما إلا الباعث؛ فلا تأسف على فعل ناشز زائل لم يغير من ذرة، ولا على قول؛ وإنما هي عضلة اللسان لا لاجم لها فاقدة للعقل تنشر الكلام كالنار في الهشيم. أنت في هم كبير وهول عظيم تتوقع الأسوأ؛ فلا تطالعك إلا آيات منه تُرتّل من بعيد أو من قريب؛ تصل إلى مسامعك؛ لا تحُثّك إلا على الهجر الجميل؛ فالخلاص مما كنت فيه... هذا الكتاب هو ما أُوحيَ...

قلت:

– حفظنا منه سورا ونحن بعد تلاميذ في المدرسة، وفُسّرت لنا بعض آياته؛ ستجدني من القارئين له.

قال:

– لا أفعل غير ما يُملي علي الكتاب.

قلت:

– ذلك ما يشهد به الناس.

قال:

– هؤلاء الذين جمعني بهم السجن و...

قاطعته قائلا:

– ... وزوجة السجين عمر وابنته آمنة.

قال مستفهما:

– أَ وَ حدّثْنك عني؟

قلت:

– نعم... وهناك قصة لا تعلمها... كانت آمنة ضحية خطف فحررتها وأنا مهاجر في عُرض البحر، وما إن أوصلتها والتقت هي بأهلها، ولذت بالبحر؛ حتى قبض علي الحُرّاس وزجّوا بي في هذا السجن؛ بأي سبب؟ لا أدري بالضبط وقد رجحت أنهم ظنوا أن رغبة دفعتني، أو مُستَخبر...

واستطردت سائلا إياه:

– أ لا يكون لنا مخرج من هذا السجن... أ لا نفكر في كيفية للهرب؟

قال:

– لن يكون ذلك إلا بمشيئة الله.

فقلت وأنا أتراجع إلى مكْمني:

– فلا أحزن إذن.

جابت عيناي أرجاء الكهف ثم استقرتا في امتداده الضارب في عمق الجزيرة؛ لم أر له حدا غير الظلام، ولم أسمع غير سقوط قطرات الماء، ثم قمت وخطوت؛ تُعثِرني الصخور الناتئة، وتزل قدماي من حجارة ملساء، وتوخز أصابعي شظايا مسنونة، وطال سيري في بعض الوقت وكدت أطأ شيئا ممددا؛ كان جسدا هامدا، ثم آخرا... أَ وَ ما تزال المغارة تمتد إلى ما لا نهاية بهذه الأجساد الميتة؟

اضطجعت منهوكا بما رأيت. تحرك عن قرب جسد ملثم الوجه ودنا مني قائلا:

– هل أنت عبد الله؟

قلت مُستفهما:

– نعم...؟

أماط اللثام؛ اندهشت... كانت والدة آمنة، وتحرك جسد ثان؛ فكانت إحدى صاحباتها، وأحاطتا بي.

قالت أم آمنة:

– سُق الرجل الملثم إلى هنا.

أدرت وجهي من حيث نفذت وسرت حثيثا، وأمطرت في أذن الملثم هذا الكلام:

– والدة آمنة تريدك... إنها هناك.

كادت عيناه أن تنفلتا من مَحْجريهما وفغر فمُه. مَشيْنا معا. أطبقَتْ يد كل واحدة على يد كل واحد منا، وقادتانا آمرتين:

– سنغطس في هذا البئر وسنُمسك تنفسنا بعض الوقت...

وغُصنا فلفَظَنا تيار مائي قوي إلى بحر؛ تعكس مياهه أشعة الظهيرة التي غلبت على بصرنا، ثم امتطينا جميعا قاربا وجذفنا إلى شاطئ مهجور؛ يَحفزنا الخوف من متعقب قد لا نفلت من عينيه هما من عينين يقظتين، ولم نتبادل كلاما مع المرأتين.

قالت الصاحبة:

– استنفرا أرجلَكما في ذلك البُعد الذي لا يُبقي من أثرِكما شيئا.

وقالت أم آمنة:

– سِرْ يا عبد الله بمحاذاة الشاطئ مسيرة نصف نهار؛ ستجد قاربك عند رجل مسن، وخُط بإصبعك في كفه هذا الرمز ليعرف أنك غير مُنتحِل.

وعادتا إلى القارب وجذفتا في بحر خليج تملأه أعمدة وأجراف صخرية؛ استأمناه من مُتعقب يُدبّر سوءاً.

الأيام السبعة التالية

دفين الصحراء

سبعة أيام وأنا أسافر في الصحراء؛ في قافلة من الجمال والنوق العربية؛ قائدها يهتدي بالنجوم؛ يَتيمّم بضرب كفيه على الرمال؛ يركع ويسجد والإبل ماضية في سيرها بعيون ناعسة مطمئنة.

كان قد خرج الرجل من السجن حاسر الوجه، وما إن سطع عليه ضياء الشمس حتى امتدت يده إلى أحد جيوبه واستل منه لثامه الذي لا يفارقه، ثم أداره على هامته ووجهه؛ فلم يُبق غير عينين ترمقان. سألته:

– أ لا تدُلّني على البلاد التي سيق إليها والد آمنة مأسورا؟

قال:

– أُترك هذا البحر المحيط وراء ظهرك وودع قاربك إلى حين، واضرب في الصحراء، وقد يطول بك السفر، ثم اسأل بعد سبعة أيام عن حصن ذو أسوار من طين وحصى، ومن تتوسم فيه الصدق أن يُرشدك إلى رجل اسمه عمر؛ ذائع الصيت؛ صانع المراكب والسفن الصغيرة؛ تزين قصور الميسورين، ويتباهى بها

مُشتروها بأنها من صنع يد رجل من أهل البحار؛ وقع في الأسر في معركة كذا وفي زمن كذا... اصبر فالسفر إليه طويل وشاق.

قلت:

– الأرض مسالك؛ فسأجد من يسلك نفس الطريق؛ فنكون معا في صحبة تُنسينا مشقَّة السفر.

قال:

– إذا قُدر لنا أن نلتقي مرة أخرى فذلك ما نرغب فيه، وإذا افترقنا وإلى الأبد فاذكُرني في خاطرك ولا تدع الزمن يُنْسيك... سأبتعد مقدار ما استطعت من قطع المسافات الطوال عن أنظار العُملاء.

أعاد أطرافا من لثامه على وجهه واختفى بين صخور الشاطئ. هل سيركب البحر أم سيهيم على وجهه على ظهر اليابسة؟ كائن حي هو الآن، وسيكون مهما طال عُمُره من الأموات؛ فأدعو له حيّا كان أو ميّتا.

قررت أن أُرجأ استعادة مركبي؛ فأدرت ظهري للبحر كما أُوصِيت ونظرت بعيدا؛ فلم أر أثرا لرمال الصحراء؛ هي أراض ترتفع وتنخفض، وجبال تعلو ترتدي قلنسوات من ثلج يذوب فيجري أنهارا. كانت رياح دافئة تَهُبّ من تلك الجهة أذهبت عني قُشعريرة السجن. وسرْتُ؛ تُدمي ساقي النباتات الشوكية وتُأرجحُني الجلاميد، ويُزلُّني الحصى. احتلت الشمس السمت فاشتد لهيبها. لاح من بعيد عريش يستظل به رجل هرم؛ يجلس على وركه؛ كان قد انتهى على التو من صلاة. التفت يستطلع دنو خطواتي. حييته واستسقيته ماء. قال:

– دونك الجرة المعلقة؛ فإن فيها ماء باردا.

شربت بارتواء. سألته:

– أنا مسافر أبغي الصحراء؟

قال:

– لن تبلغ مشارفَها إلا بعد أن تقطع تلك الجبال البادية هناك. أُعبر فجا من فجاجها وامض لتجد قافلة قادمة من حواضر الشمال؛ تحمل بضائع ميسُوريها؛ متجهة إلى بلدان ما وراء الصحراء للتجارة، والتمس رفقة طيبة، ولا تشارك أحدا في مُجون؛ فتنحرف عن الجادّة التي توصلك إلى ما وطنت نفسك لأجله.

قلت:

– رجائي أن أعود بالخبر اليقين أ هو من الأحياء أم من الأموات... عمر والد آمنة.

قال:

– لا يظهر منك غير هذا... هذا مزود من جلد الخرفان فيه مسحوق من الدقيق المحمص، وهذا إناء من طين؛ الماء والمسحوق مخلوط طعام يُذهب جوعك في الطريق.

قلت:

– أنا مُريدُك أيها الرجل الصالح... أُدعوا لي في تهجّدك ليلا وفي صُبحك وفي ضُحاك؛ عادة ما تسير القافلة وقطاع الطرق يترصدون لها.

قال:

– رحلت أيها الفتى من الديار وضربت في الأرض غير مهموم ولا مغموم. اِستودعت الله والديك. لن تكابد من نوازل الدنيا لا قليلا ولا كثيرا، وستظل دوما هكذا لأنك مجبول.

كان للمِزود حبل مفتول ثبته على كتفي، وجعلت حول فتحة للإناء خيطا ثبته هو الآخر، وودعت الرجل وسرت كما أسير دائما، وفي سفري يمضي بي الزمن وقد تزودت بشيئين؛ بخير الزاد وهو تقوى الرجل الصالح، وبقوت يُغنيني عن أن أمُدّ يدي للغير.

مررت برجل في سن الكهولة يعمل في بستانه بين أشجار مورقة ومثمرة بالتين والرمان والعنب. تحلّب فمي لحموضة في تلك الثمار؛ فلم يكن لي بد من أن أسْتطعِمه؛ فأعطاني حبات كثيرات. شكرته واستأنفت المسير في طريق طويل. كنت أتوقف وأرمي ببصري إلى الوراء؛ فلا أجد غير السكون ولهيب الأرض يتراقص في الأجواء، أو أنظر إلى الطريق لعلي أصادف بَعْرا لعِير تكون قد مرت فألحق بها. كانت قافلة مارة تجدّ جِمالهُا في السير؛ لوحت لقائدها الذي لم يرني، ثم لوحت ثانية وتعالى ندائي على جميع من يرافقها وعدوت؛ كانت قدماي تطآن رملا فتسيخان ولا أتقدم إلا أمتارا قليلة، وفي إحدى اللحظات رأيت القافلة تتباطأ لتنتظرني؛ فلحقت بها أخيرا.

حييت الجميع وخاطبت قائد القافلة:

– أريد الصحراء وأنا في رفقتكم.

قال:

– هل أنت تاجر أم أنت غير هذا؟

قلت:

– لم أفهم.

قال:

– لا يرافق القافلة التجار فقط؛ قد تكون رقّاصا يحمل الرسائل المتبادلة بين الحكام، أو جاسوسا يصطاد مقدمات الأفعال، أو مهرب محظورات.

قلت:

– أنا لست هذا ولا ذاك. أقصد حصنا عاليا؛ أسواره وأبراجه من طين وحجر وحصى؛ فيها رجل أُسر في إحدى الحروب؛ ينتظره أهله بأحر من الجمر.

سار وسارت القافلة وهو يقول:

– إن سجن الحصن الذي تسأل عنه أيها الفتى لم يبق منه غير أطلال تسكنه البوم والسّحالي.

قلت بألم قاتل:

– ومساجينه أين رُحِّلوا؟

قال:

– ذلك لا علم لي به.

قلت:

– أرشدني إلى مكانه يحفظك الله.

قال:

– سأدلك على رجل هو الآن في سن متقدم؛ كان حارس السجن فيما مضى من زمنه وهو قائم.

قلت:

– قد أجد عنده خبرا.

قال:

– وستجد أخبارا وحكايات أُحيطت بالسجن.

رددت كلام قائد القافلة مرات عدة دون أن أعي ما أقول: "وستجد أخبارا...". لقد سار ولم يزد على كلامه شيئا، وأنا امتنعت عن توجيه أسئلة إليه. أ وراء ما نطق به لا يرضي النفس؟ لم أتحر وتأخرت عنه خطوات. تركته وشأنه وسرت كالجميع في صمت.

أذهب عني مكان به نبع عين وأشجار قزمية وحشة السفر الطويل والرتيب في الخلاء المجدب. توقفت القافلة وامتدت أعناق الابل إلى حوض ماء، وقصد الرجال النبع؛ فارتووا من ماء عذب يجري متلألأ تحت أشعة الشمس الحارقة ببريق الفضة، ومُدت حُصر ولُحُف، واستلقى القوم في استراحة رغيدة؛ أوان مليئة باليابس من الفاكهة، وأكواب من شاي مغلي على نار وقودها عيدان من أشجار صحراوية يابسة، وصنعوا عجينا من دقيق وسووه قطعا على لوح صخري؛ وضعوها على جمر ملتهب وغطوا عليها برمل ألهبه ذلك الجمر.

دعاني سائق القافلة إلى مائدته؛ ما احتوت عليه فقط إناء فيه تمر ولوز وزبيب وأكواب الشاي وخبز. كان يرفع رأسه كالبعض في اتجاه واحد؛ كأنهم ينتظرون

شيئا ما سينبثق من سراب الصحراء؛ كان ذلك الشيء حقيقة: اثنان من رجال القافلة يعودان وفي حوزتهم غزال اصطاداه؛ كان يرتع في قطيع في الأجمة النابتة حول المياه المتدفقة من العين. ذبحاه وسلخا جلده ودهنا لحمه بِسَمْن معتق، ثم شوياه على نار حامية؛ فتصاعدت رائحة الشواء وملأت أُنوفَنا فتشممناها باشتهاء، وما إن قُدم حتى امتدت الأيدي تنهش بأصابعها في لحم أجرت النار دُهنه، ومضت الأحناك في مضغ والبلاعيم في بلع؛ فلم يبق من ذلك الغزال غير عظام تغطيها نتف من عصب لم تنل منها القواطع. امتلأت البطون فبَلُدت الأدمغة وارتخت العضلات؛ فتمدد أفراد القافلة؛ منهم من اضطجع وغفا، ومنهم من نام يُسمع شخيره.

كان ذلك الضوء الذي يسبق شروق الشمس قد ظهر في اليوم التالي؛ فتململت الأجساد في مضاجعها وتحركت ذاهبة أو آيبة؛ تُجهز الرّكائب. يسود المكان سكون إلا من دبيب المشي والهمس، أو تقطعه من حين لآخر أصوات الأباعير.

يشد كل رجل طرف الحبل الملجم لجمله؛ فتنهض الجمال تعتلي قوائمَها الطويلة؛ محملة بالبضائع، وتتحرك في سير متئد متفرقة هنا وهناك، ثم تلتئم في قافلة يتقدمها قائدها بجمله. أتخلف عنها ببضع الأمتار وألتفت إلى الوراء؛ فلا أرى غير كثبان الرمل تذرو الرياح ذراتها فتتحرك؛ فاستوحش ما نطويه من مسافات. أستحث الخطو إلى المقدمة وانتظر كالجميع ما يمكن أن يظهر من

أجسام حية أو جامدة، وألازم القافلة كما يلازم الرضيع ثديي أمه؛ وإلا فأنا في تيه عنها في هذه الفلاة.

سمعت أحدا يُناديني:

– أنت أيها الباحث عن سجن الحصن البائد؟

التفتت إلى مصدر المناداة؛ لم يكن أحدا غير قائد القافلة. رفع يده وأشار؛ فتتبعت عيناي أُصبعه المتجه إلى هنالك. رأيت طللا من أسوار مبنية بالتراب والحجارة، يحيط بها النخيل من كل جانب، وغير بعيد عنها بيوت دائرية؛ يُغطّي سقوفَها جريد النخيل وأوراقه اليابسة. يجلس بأبوابها شيوخ ينُشون الذباب بمنشات منسوجة من الخوص؛ هم سكان واحة خارج الزمن؛ لا ينتظرون غير غروب الشمس ليأووا إلى فُرشِهم، وليستيقظوا في الصباح على ضوء الفجر، والوافدون يُعرّجون عليهم إلى الجنوب وإلى الشمال.

قال لي القائد:

– بين أولئك الشيوخ حارس السجن القديم؛ فعنده أخبار من تبحث عنه من السجناء القدامى.

تلك آثار السجن وهذا حارسه قاعد بين المسنين يحكي عن السنوات التي أمضاها في مراقبة المداخل والمنافذ والممرات، ويعرف كل من يُزج به مكبل اليدين والرجلين، ومن يفرج عنه محررا من القيود، ومن مات بين الجدر السميكة لم ير نور الشمس قط، وقد استنتجت من كلام قائد الإبل أن هذا الحارس خدم مدة قد تزيد عن ثلاثة عقود.

شكرت الجمّال وشددت على يده بحرارة مودعا إياه وجميع المرافقين، وملت عن القافلة الجادة في السير، ثم سلكت طريقا ينزل إلى واد حافته متضرسة؛ تتوسطه بقايا السجن المنهارة، وعامر بنخيل باسق. حييت جماعة رفع أفرادها رؤوسهم نحوي وبعيون متصفحة ومتسائلة. سألتهم:

– أيُّكم كان حارس ذلك السجن؟

أجاب أحدهم:

– أنا هو.

سررت به فصافحته بحرارة؛ فهو الوحيد الذي سيطلعني على مصير عمر. ذيَّل حديثي بهذا الكلام:

– أُبيدت جنبات ذلك السجن أما حكاياته فستظل حية في ذاكرة الأجيال.

قلت:

– أ لهذا الحد؟

قال:

– أعلم يا بني ما لم تعلمه. عايشت سجناءه. كنت قريبا منهم وعرفت ما لا يعرفه ذووهم؛ منهم من استُنطق وعُذب حتى الموت، ومن حُبس في زنزانة لا يُمدّ إليه من الطعام إلا المرّ؛ فهَزل وما زال كذلك حتى مات... اجلس أولا واسترح واشرب لتستعيد بعض طاقتك، ثم اسأل عن ما شئت من السجناء.

قدم إلي كوب شاي؛ ارتشفت منه ثم قلت:

– قدمت من بعيد؛ من شطآن البحر؛ باحثا عن أسير؛ قال لي من كان يجري وراء أخباره: أُترك هذا البحر المحيط وراء ظهرك واضرب في الصحراء واسأل بعد سبعة أيام عن سجن الحصن، ومن تتوسم فيه الصدق أن يدلك على رجل اسمه عمر ذائع الصيت؛ صانع المراكب والسفن الصغيرة؛ تُزين قصور الأغنياء، ويتفاخر بها مشتروها بأنها من صنع رجل من أهل البحر؛ وقع في الأسر...

قاطعني قائلا:

– ترك عندي وديعة؛ ما صنعته يداه؛ تحفة فنية في شكل سفينة شراعية، وما كسبه من مال من بيع تلك التحف... يرحمه الله. كان مريضا وأُخلي سبيله بعد أن بلغ منه المرض مبلغا شديدا، واستُيأس من علاجه. وارياه التراب منذ ثلاث سنوات هناك في مقبرة؛ زحفت عليها الرمال فلم يعد يبدو من القبور غير شواهد هي ألواح تُتشظّى من صخور هذا الوادي؛ محت أحوال الأجواء ما خُطّ عليها من أسماء المقبورين وتواريخ ميلادهم ووفياتهم. هل تعلم لماذا كان يصنع السفن الشراعية؟ لأن أهل هذه الواحة يدمنون قراءة قصص الرحالة والبحارة، وحكايات سندباد البحري؛ فكان لهم شوق إلى رؤية شطآن البحار والجزر البعيدة؛ فكان عمر مُلهِمَهم ومُفتّقا لخيالاتهم التي تذهب بهم بعيدا؛ هنالك في عالم البحار المحيطة والأمواج الصاخبة.

توكأ على عصاه وتحرك قائما. قال:

– هيا معي إلى البيت؛ فإنك حللت أهلا ونزلت سهلا.

قلت:

– هي حسرة تملأ الباطن وحزن على عمر ينفطر له القلب. تكاد دموعي تسبق ما أُسر به إليك.

قال:

– أعرف ما مدى أثر ما أخبرتك به. كان يحدثني عن أسرته وواقعة أسره، وكيف سيق مع من استُنفروا للقتال، وإنك بمجيئك خففت عني ثقلا طالما كابدته، ولم يغمض لي جفن منذ أن استأمنني، كنت أسأل كيف سأتصل بأهله وبأية وسيلة... أ أنت قريب لهم؟

قلت:

– لا... وإنما هي الدنيا ألقت بي في درب أسرة عمر.

وأردفت قائلا:

– سأعود من حيث قدمت.

قال:

– القافلة الآيبة إلى مدن الشمال ستمر علينا بعد يومين أو ثلاثة. ستعود ولم نسمع قط عن قافلة لم تصل إلى نهاية الرحلة المخطط لها؛ فالإبل تمضي ولا عائق يعترضها، والآية لمن يستعبر: "أ فلا ينظرون إلى الابل كيف خُلقت"[1].

أذهب عني كلامه الصادر عنه هو الشيخ الذي خبر الحياة ومن أهل الواحات والصحاري ومن ذرية مربي الإبل؛ الحزن ووحشة بُعدي عن الساحل الذي ترعرعت في قراه.

---

[1] سورة الغاشية؛ الآية 17.

دلف إلى داخل البيت؛ فمشيت في أثره. بُسطت على الأرضية فرش وثيرة من صوف، ووسائد مزينة. جلسنا معا وكان ما يزال يتفرس في وجهي. ثم قال:

– سأعطيك الوديعة مُستأمناً إياك كما استأمنني صاحبها؛ فلا أذكّرك بما توجبه وديعة رجل هو في ذمة الله وأهله في فقر؛ فاحرص يا بني على تسليمها؛ فتكون من الفائزين، وسيذكرك الجميع؛ ذوو الفقيد وعشيرتي. هذه زوجتي وهؤلاء أبنائي وزوجاتهم وأحفادي وحفيداتي؛ كثيرا ما ألحوا في السؤال: متى يا أبانا ستسلم لأصحاب الوديعة وديعَتهُم. متى ستفي بوعدك. متى ستُنبئ الأرملة واليتامى بخبر الوفاة حتى لا يظلون في انتظار ما لا يُنتظر؟ فلا تُخيب ظني فيك.

قلت:

– إنني هاجرت بسبب الفساد الذي استشرى في قريتنا، وركبت البحر بقارب لا يقاوم العواصف البحرية إلا بقدرة القادر. أ أتحمل مشقة السفر إلى هذه الواحة المنعزلة في آخر هذه البيداء من أجل خيانة الأمانة؟ لقد نويت أن أخدُم أسرة عمر لأنهم كانوا ضحية الجبروت.

امتدت يده إلى صندوق خشبي؛ أمام أنظار زوجته وأبنائه وحفدته كأنهم أشهاد؛ فأخرج منه سفينة شراعية متقنة الصنع أثارت إعجابنا، وكيسا مملوءاً بالنقود، ثم أعاد المحتويات، وسلم الصندوق إلي.

كنت أذهب –طيلة مدة انتظاري للقافلة– إلى مقبرة السجناء؛ فأجلس زمنا طويلا متأملا قبر عمر، ومتفكرا في مثواه الأخير الذي يبعد عن بلده وأهله؛ الذين حرُموا منه وحُرم هو أيضا منهم... أي فعل سوء قام به؟ أ يرُدّني هذا عن

استئناف رحلة الهِجران... لا يُصْرفني أبدا؛ سأمضي بحثا عن أرض تطمئن لها نفسي.

اليوم الخامس والعشرون

العودة إلى الشاطئ

قبيل صلاة عصر اليوم الثالث من إقامتي بواحة السجن البائد؛ جرت جماعة من الأطفال في اتجاه معين يتصايحون ويتسابقون؛ فتطلع الشيخ مشرئبا إلى ذلك القادم، ثم قال:

– هذه قافلة العودة إلى الديار يا عبد الله؛ هنيئا لك ورافقتك السلامة.

ودّعت الرجل وأفراد عائلته مُقبّلا رأسه وظاهر يده اليمنى؛ هذا ما درجت عليه عاداتنا نحن صغار بعض أسر تلك القرية الباغية، ثم لحقت بالقافلة، وهي سائرة كان الرجل يوصي قائد القافلة بالعناية بي؛ فظل قائد الإبل طيلة مدة السفر في الصحراء حريصا على تنفيذ الوصية؛ فكنت ملازما له في غداته ورواحه وهو مثابر في التحدث إلي ليرفع عني السأم والضجر.

اجتزنا رمال الصحراء وشارفت بنا القافلة أرضا تستقبل هبات نسيم بارد آتية من البحر؛ فنَشِقْتُه وتخيلته محملا برائحة الطحالب والأعشاب البحرية والسمك. في أحد الأوقات كنت أسير وكأني أسمع هدير الأمواج، ثم كأني أرى أشرعة بيضاء ترفرف في أرجاء البحر؛ كأنها سرب من طيور النورس نزل إلى المياه؛ تتهادى به الأمواج. وطئت قدماي رمال الشاطئ، وداعبت أصابعي موجة زاحفة تحمل برودة مياه البحر، ثم تلفتت حوالي مُستكشفا المكان؛ فأدركت أن

علي أن أمشي إلى يساري مُستحضرا ما قالته لي أم آمنة:" سِرْ يا عبد الله مسيرة نصف نهار؛ ستجد مركبك عند رجل أهرمه الدهر، وخُطّ بإبهامك في كفه هذا الرمز ليعرف أنك لست منتحلا".

تساءلت: أ يطفو مركبي أو يركن في مكان على اليابسة؟ بأي حال هو؟ هل سيتطلب ترميما لأبحر به من جديد وبثقة؟

وأنا عائد أحمل الوديعة فهل أستأمن من يسلك الطُّرق؟ فقررت أن أُخفيها، فوقع اختياري على جرف صخري، وفي مساحة تَرِبة منه دفنت الوديعة ثم مشيت...

تعلو بي القمم الصخرية، ويهبط بي مَسْرب مهدته الأقدام بين الصخور، وتتثاقل خطواتي في الرمال الجافة والخشنة؛ فأميل إلى أخرى ناعمة ومُبلّلة بمد المياه، ويطول بي السير فأشك في مدى صدق كلام أم آمنة. أمضي في إحدى اللحظات أتساءل بما لا يطرأ على بالي أول الأمر: كيف سأجد الرجل المسن، وعلى أية هيئة هو، وفي أي مكان؟ هل يعيش منفردا أو في جماعة؟

ظهرت لي من بعيد صومعة مسجد؛ فقلت مخاطبا نفسي: "يا آيبا من فلاة هذا مسجد له أبهاء ظليلة؛ يجري فيه الماء العذب لإطفاء الظمأ وللارتواء؛ فاغرف واشرب بكفيك، وبعد شمّر وتأهّب لتأكل من عجل حنيذ". ابتسمت واتجهت إلى مسجد صغير المساحة، يتسع لسكان تتفرق بيوتهم فيما وراء كثيب رمال الشاطئ، ثم دلفت إلى الباحة، وأقيمت الصلاة فقام من حضرها مع الجماعة لأدائها، وبعدها تحلق البعض حول قصعة طعام يأكلون؛ أكلت معهم

ودعوت للمحسن بحسن الخاتمة، وأخذت خُفّي وقصدت الباب خارجا. وجدت بالباب رجلا مُعمّراً؛ لا تكاد ساقاه تحملانه؛ يمد يده سائلا المغادرين. يستجدي قائلا:

– يا عبد الله تصدق مما رزقك الله... يا عبد الله تصدق مما رزقك الله...

فالسؤال موجه إلى كل عبد من عباد الله. قلت له مازحا: أ تعني يا والدي شخصا بعينه؛ فأنا عبد الله ولكني لا أملك من متاع الدنيا شيئا.

حملق الرجل في وجهي وتفرس ملامحي، ثم امتدت يده وقبضت بكل ما أوتيت من قوة على ساعدي ودفع بي إلى خلوة قائلا:

– أخيرا عثرت عليك أيها الرحّال الصغير، أنا الذي أودعت عنده أم آمنة مركبك.

امتدت يده فخططت في كفه رمزا؛ فاستيقن بي.

سألته:

– كيف عرفتني؟

قال:

– عليك آثار السفر الطويل في الصحراء. أدكنت حرارة الشمس بشرَتك، وهزُل جسمُك، وصلب عودك، وقصدت المسجد للارتواء، ولتُطعم من جوع؛ فقد قالوا أن البحث عن عمر الأسير فيما وراء الصحراء سيُغيّبك مدة من الزمن طويلة.

ظهر الأسى بعيني وقلت:

– وافت المنية عُمر على إثر مرض شديد أُصيب به وهو في السجن.

قال:

– رحمه الله.

وخفض كل منا رأسه يتفكر في مآل عمر ويستعبر.

قال الرجل يحثني:

– هيا أسرع فأنت في حاجة إلى يومين بنهارهما وليلهما لتستريح، ثم بعد ذلك سأدلك على المكان الذي يربض فيه قاربك.

ودفع بي متوكأ على عكازه بيده اليمنى، وعلى عضدي بيده اليسرى، ويشير بهامته قائلا:

– هذا الطريق إلى البيت... ستحل ضيفا علينا... الهوينى يا ابني فقد شاخت عظامي... سترى حفيدي يعمل في الحقل؛ يبذُر ويشذّب ويُجري الماء في السّواقي. ستتعرف عليه وهو سيجد فيك صاحبا له ويُؤازِرك.

سألته:

– أ تمتلك بيتا وحقلا؟

أجاب:

–... ولي زوجات وأبناء وحفدة.

سألته مرة أخرى باستغراب:

– وماذا يعني استجداؤك بباب المسجد؟

أجاب بوجه ضحوك:

– من أجلك.

لا حظ استفساري فاستطرد قائلا:

– تلك قصة أطلعتني امرأتان على بداية حدثها؛ فأبيت إلا أن ألعب أنا كذلك دورا فيها حتى النهاية؛ سأرويها عليك: لم تغب يا عبد الله عن أنظار هاتين المرأتين؛ أم آمنة وصاحبتها؛ فلم تصرفهما عنك وباقي نسوة القرية فرحة عودة الفتاة سالمة، وظللن يتتبعن إبحارك بإعجاب ويطمئن عليك؛ إلى أن شاهدن ما روعهن وهو اعتراض سفينة حراس الساحل لطريقك؛ تلقفتك بعنف وغابت في ضباب البحر متجهة إلى سجن الكهف البحري، وتُرك مركبُك وحيدا تتلاعب به الأمواج؛ فتصدين لخيوط بداية الحادثة؛ لتنسجن بأنفسهن ما بادر إلى فعله أولئك الجنود حتى لا يُغيّبونك في غياهب[1] السجن فتموت نكرة؛ لا يطلع أحد على مصيرك؛ فأول ما تهيأن إلى القيام به هو استرجاع المركب حتى لا تحمله التيارات البحرية بعيدا؛ فقَطرتاه بثلاثة قوارب بمساعدة نسوة يجذفن بسواعد قوية، ووارينه في داخل أجمة من نبات ملتفة أغصانه؛ لا يراه أحد، واتصلتا بي فقررت أن أُغيّر مكانه؛ فقد يكون أحد قد تتبعهُنّ، ثم زودتني أم آمنة بمعلومات عنك. بعد ذلك شرعتا في التفكير في خطة لتحريركما؛ أنت والرجل الملثم؛ وقد نجحتا. في أحد الصباحات زارتني أم آمنة وقالت لي بأن الرجل الملثم أخبرها بأنك أخذت طريقك إلى الصحراء للبحث عن زوجها

[1] "الغَيْهَب: الظُّلمة. والغيهب من الليل: الشديد الظلمة (...). (ج) غياهب". (نفس المعجم السابق؛ ص. 688).

عمر، ومنذ ذلك الحين وأنا أفكر في الطريقة التي ستمكنني من الالتقاء بك بعد رجوعك دون أن يعلم بذلك أحد الفضوليين؛ فاهتديت إلى حيلة معوز مسن يلبس أسمالا يستجدي، وثابرت على الوقوف بباب المسجد أياما إلى أن ظهرت، وكنت أعرف أن العائد من بلاد بعيدة وقد ألم به الجوع والعطش ولا مأوى له؛ لا بد وأن تشخص عيناه إلى صومعة مسجد؛ فيجد ما يُطفئ ظمأه و يُذهب جوعه، فها أنت ماثل أمامي وأنا سعيد لأني وُفّقت.

ما رواه هذا الرجل يدل على شيء واحد فقط؛ وهو كيف اجتمع جميع هؤلاء على نفس الهدف؛ بمد يد المساعدة إلى بعضهم البعض خارج دائرة ما يقنن من قوانين الزجر والإكراه، وبعيدا عن المجتمع الذي يتظاهر بما سُطّر من قوانين وأعراف وبأنه يقيم العدل؛ فالتعاون على الفضيلة إحساس باطني يُؤتى به كل امرئ صلحت بذرته ومن اكتسب يقظة الضمير؛ فآمنة قد عادت دون أن يمسسها أحد بسوء، وغادر السجينان مقبرة الأحياء؛ فهما طليقان معا الآن ينعمان بالحرية التي هي حق طبيعي؛ فلم يكن قد بقي بين الرجل ذي اللثام والمقصلة إلا أياما معدودات؛ فالحياة تعود بعد يأس؛ تتجدد في كل جماعة بشرية، وفاعل السوء يُكتشف أمره إن آجلا أو عاجلا.

قلت:

– كيف سيكون وقع خبر الوفاة على أفراد أسرة عمر؟

قال الرجل:

– ما نقوم به من شعائر تقربا للخالق هو ما يُشعرنا بوجود الفقيد بيننا حيا وهو ميت، وفي العزاء ما يُخفّف وطأة المصاب.

بدا حفيد الشيخ في المزرعة بين أشجار قصيرة فارع الطول. يرفع جذعه العريض فيرتفع ساعداه المشمّر عليهما إلى الأعلى؛ تمسك يداه بفأس لينزل به على الأرض مُهشّما أتربتها، ومُفكّكا أجزاءها؛ فيجري الماء بين طبقاتها؛ فتصير رطبة؛ تتمدد فيها جذور البذور؛ فتتفتح براعما وتنمو ثمارا؛ لتينع بعد ذلك. كان شابا عُتُلاّ مفجرا للطبيعة.

بعد الغذاء قام الشيخ وحفيده، وبرحت أنا متكئي، وسرنا جميعا يتقدمنا الشيخ في ممر يقود خلف البيت؛ إلى أن توقف في ناحية من نواحي حقله المسيج؛ تنبت بها أشجار ملتفة فروعها. امتدت يده وأزاحت بعض الأغصان والأوراق حاثا إياي على النظر إلى ما يوجد؛ فرأيت مركبي تُظلّله الأجمة من حر لفحات الشمس. أمررت عليه يدي كما يفعل الفارس مع جواده، ودققت فيه النظر؛ فما كان يستبد ببالي هو الطلاء؛ لم يفقد المركب منه شيئا؛ كان كِساء يحميه من الحر ومن برودة البحر وملوحته.

نطق الجد:

– سيساعدك حفيدي في إعادته إلى البحر ليلا؛ بنفس الطريقة التي حُمِل بها إلى هنا. أ لا ترى عربة نقله التي صنعناها ما تزال هي الأخرى صالحة؟

أومأت برأسي له أن نعم. قلت:

– لم أقنُط يوما فأخيار الناس مثلك كُثْر.

ورجعنا إلى بيت الشيخ الكبير والمؤثث؛ وقد أخذنا معا أنا والحفيد بعضُد الجد وهو يضحك. سأله حفيده:

– ما يُضحكك يا جدي؟

أجاب:

– وقوفي بباب المسجد مُستجديا.

فضحكنا نحن أيضا. استطرد قائلا:

– أ لا ترون كيف ينجح المسنون أمثالي في الاهتداء إلى الحيل؟

قبل آذان الفجر بساعة تلفعت أنا والحفيد بعمامتين غامقتي اللون، وتمنطقنا بحزم وانتعلنا أحذية لا تُصدر وقعا. قاد الحفيد حصانا من داخل الإسطبل؛ فتحرك موكب نقل المركب في اتجاه الشاطئ؛ لا يستغربنا مار في فجر ذلك اليوم؛ فما نحن إلا صيادَيْن مثقلين بهم سحب شبكة الصيد باتت البارحة منصوبة في البحر.

لم أنتبه لشخص آخر كان في الأثر؛ إنه الشيخ؛ كنت أسمع من وقت لآخر عثرات عصاه في مطبّات الأرض؛ فهو كما قال أبي إلى أن يلعب دوره في أحداث قصة أمسكنا جميعا بخيوطها حتى النهاية، وفطنت لماذا يرافقنا بالرغم من المشقة؛ سينبري للتفكير في حيلة إذا ما أستشعر طارئا؛ فقد يعترض طريقنا حرس الحاكم. بعد أن أنزلنا المركب إلى المياه أمر الجد حفيده بمرافقتي لاستعادة الوديعة.

اليوم السادس والعشرون

الوديعة المفقودة

كانت قد أشرقت شمس الصباح؛ فرفعت وجهي إلى السماء وجالت عيناي في زُرقتها، ثم نظرت إلى البحر وفي باطن نفسي دافع إلى منازلته من جديد؛ كما تُعاود الملاكِم رغبة في كسب نصر إحدى الجولات بدحر خصمه. كان هادئا فأحببت فيه هُياجه وخاطبته بيني وبين نفسي: "انتظرني يا بحر؛ ساكنا كنت أو ثائرا. أعرف أنك تحتفظ لي في أرجائك بأحداث جسام؛ فأنا في لين للخير ولأهله، وذو بأس للشر وللقائمين به وعليه.

أكلت البارحة ما يكفيني لاسترداد قوتي الجسدية؛ فعاد إلي نشاطي وأحسست بحيوية كان آخر عهدي بها عندما غادرت شاطئ قريتنا. كان اليوم السادس والعشرون هذا من رحلتي جميلا. صفت أجواؤه وإن كانت سحابة قاتمة تُداهمني من حين لآخر؛ سُرعان ما كانت تبتعد في عالم النسيان وهي وفاة عمر.

في طريقنا إلى المكان الذي خبأت فيه الوديعة قال لي الحفيد:

– أُنظر يا عبد الله.

نظرت إلى حيث أشار... إلى تراب المسرب؛ كانت عليه آثار أقدام.

أردف قائلا:

– هي لشخصين.

قلت بفزع:

– أ تريد أن تقول بأن أحدا سبقنا إلى الوديعة؟

قال:

– حسب معرفتي بالمكان لا أحد يخطر بباله المرور من هنا إلى أعلى الجرف.

فتابعنا السير وتسلقنا الجرف لنجد الحفرة فارغة والتراب متراكم حول فتحتها... لم تعد ساقاي تحملاني من أثر المفاجأة فجلست. قلت:

– مات عمر وذهب ماله.

قال الحفيد:

– لا تتفوه بهذا الكلام. أسرع فإني أعرف السالكين لهذه الجهة، فهم المختلون بلذاتهم... أ لا ترى أن آثار الأقدام لم يصلها مد الليلة الماضية؛ فعملية السرقة لم تتم إلا في هذا الصباح.

أجبت بأمل:

– نعم.

فهرولنا معا في جميع الاتجاهات؛ لعلنا نعثر على دليل يقودنا إلى الممر الذي سار فيه سارق الوديعة؛ كانت هي آثار الأقدام فتتبعناها. كان الحفيد قد ارتطم بشيء ما فتعثر وسقط؛ كان ذلك الشيء عصا مدت بعيدا؛ تمسك بها عجوز شمطاء؛ لا تقوى على المشي. قالت وقد جحظت عيناها وارتعدت وجنتاها الذابلتان:

– إثنان ممن يترددون إلى الشاطئ الصخري... إنهما مدمنا الكحول. شاهداك يا بني بالأمس وأنت تحمل الصندوق. وفي فجر هذا اليوم عادا ثملين يضحكان

ويرقصان. سرقا الصندوق ومرا من هنا... أسرعا فلن يبلغا أطراف الغابة حتى ينهارا من أثر الشرب.

ما دام الحفيد أدرى مني بشعاب هذا الساحل؛ فقد انخرط جريا في اجتياز المسارب وأنا أتبعه؛ لا أرى منه لطول قامته غير قاع كعبه الكبير؛ ينثر تراب وطئه نثرا. وصلنا إلى محيط الغابة؛ لم نعثر على أحد؛ فدخل الحفيد من جانب وأنا من جانب آخر، وبجانب الطريق الذي يخترق الغابة وجدنا الرجلين من مدمني الكحول كما قالت العجوز؛ جسماهما نحيلان وألبستهما بالية. كانا في عراك؛ فقد استل أحدهما سكينا من جيبه وصار يطعن صاحبه طعنا مؤلما، وغير بعيد عنهما الصندوق وقد أُفرغ من محتوياته؛ السفينة مرمية وكيس المال بين أرجلهما. يحاول كل واحد منهما أن يتلقفه. قال الحفيد:

– رويدك... لا تتدخل؛ فقد يُصوّب المتسلح سكينه نحو أحد منا؛ لنتوارى في ذلك الدغل حتى تنتهي المعركة.

قلت:

– سيقتل المتسلح صاحبه.

قال:

– لا أقطع بهذا فيده واهنة... فقط يريد أن يُثير الرعب فيه للانفراد بالكيس.

في تلك اللحظة توقفت عربة يقودها رجل ضخم الجثة؛ تعتلي هامته قبعة قوقازية[1] من نسيج كثيف، ويكسو بطنه المترهل جلباب رمادي اللون؛ حيك بصوف كث؛ يظهر أنه من أغنياء المنطقة. ترجل وما إن وقع بصره على الصندوق والكيس الجلدي حتى برقت عيناه وخضبهما احمرار الغدر، وطفحت وجنتاه الملتحمتان بالدم. قصد الرجل المزود بالسلاح وضربه ضربة جعلته ينهار على الأرض وفعل نفس الشيء بالآخر وتلقف الكيس، وما إن ركب العربة يريد الرحيل حتى ارتمى عليه الحفيد من الخلف ودفن رأسه في قُبّ الجلباب وأوثق يديه بأن أدار طرفي الكُمّين حول ظهره فشُلّت حركتُه وتدحرج على الأرض...

نظر إلينا بفزع وقال:

– أنا راجع من المسجد؛ كنت هناك مع العاكفين بعد الصلاة.

قال الحفيد:

– وحاولت أن تَغْنم مالا من بين أيدي مُدمنين ثملين.

قال باسترحام:

– هي غَواية الشيطان.

رد عليه الحفيد:

– بل أنت وأمثالك مصدر الشر كله، وإذا لم تنهك صلاتك فما أنت فاعل غير السوء.

---

[1] هي قبعة يشتهر بها أهل بلاد القوقاز ويسمونها (باباخا)، وتصنع من أجود الفراء، لذلك فهي غالية الثمن، ولا تشبه قبعة صاحبنا إلا في الهيئة كدليل فقط على غناه وتزعمه لجماعته.

قال متوسلا:

– لي طلب أيها الشاب الشهم؛ أطلق سراحي واستر معصيتي حتى لا يُفتضح أمري.

قال الحفيد:

– إنك تتظاهر بالورع. تتلصص وتتجسس وتتصيد فرص الكسب.

وانتشل الحفيد الكيس من بين أصابعه، وأخلى سبيله، ثم أعاد ما كان يحتويه الصندوق وحمله. قفلنا إلى الشاطئ. وجدنا الجد قاعدا يتأمل البحر. أحطنا به وكلنا لهاث نتصبب عرقا. قال:

– ماذا جرى؟

قص عليه حفيده ما وقع من أحداث؛ فنطق الشيخ بكلام يعني ذلك المنتهز؛ كبير قومه؛ فقال:

– أمثال هؤلاء كثيرون؛ لا يتأخرون في اغتنام الفرص والبحث عن أية وسيلة وإن كانت غير مشروعة يَثْرون بها.

اليوم السادس والعشرون

مناحة في بيت عمر

ما سمعه الشيخ من حدَثَي محاولة السطو على الوديعة جعله ينظر بعيدا ويوزع نظراته الخفيفة بيني وبين حفيده والوديعة؛ شعر بمدى أثر ذلك علي؛ فما أُسأل عنه هو إلى أي حد كنت حريصا عليها؛ كادت أن تضيع لخطأ ارتكبته؛ فبلغ

حرص المسن بأن طلب من حفيده مرافقتي في طريق تسليم الوديعة؛ فلم يتردد الحفيد؛ كان كله حماسا واندفاعا للذود عني وعن الوديعة. قال:

– ثَكلتْه أمه هذا الذي سيعترض طريقنا.

قال له جده:

– حاول ما استطعت أن لا يدفعك أحد إلى خُصومة ولا يورطك في فعل أو نزال أنت نادم عليه؛ فأنتما في مهمة جليلة، وهدف الآخر هو فشلكما وعودتكما خاويي الوفاض.

كان ما تفوه به خطة آسرة لنا؛ أحكمتنا سواء وعينا بذلك أم لم نع، وهذا ثمرة تربية هذا الرجل الذي عمَّر وخبر الحياة. لف الحفيد الصندوق بلِفافة من ثوب وتأبطه، وكان ذلك في اليوم التالي. ربت على كتفي وقال:

– هلم بنا يا عبد الله... لتعود إليك طمأنينتُك وسعادتُك برحلتك.

كان الحفيد كما قلت أدرى بالشعاب. اختار طريقا مختصرا فوصلنا بلا تعب ولا متاعب إلى الحي الذي يوجد به بيت عمر، ولتشابك الأزقة والدروب سألنا امرأة تجلس على صندوق خشبي –تحيك شبكة صيد– عن مقصدنا. نظرت إلى وجهينا نظرة خبير بأحوال الناس؛ فتركت ما بيديها وقامت قائلة:

– أ في الأمر ما يُحزن؟

أومأ الحفيد بأن "نعم"

كفكفت المرأة دموعها وقادتنا إلى البيت؛ دقت على الباب ففُتح؛ رأينا أهله بين جالس وقائم في الباحة للسخرة وللخدمة. احتضنت المرأة حاكية الشباك

الأرملة؛ فانخرطتا في مناحة انفطرت لها قلوب الحاضرات حزنا، ومن هرعن لدى سماعهن للنواح.

ليس بوسع الثكلى والأرملة غير العويل والنواح؛ فالابن أو الزوج قد سيق إلى الحرب؛ فأُسر وسُجن ومات حبيس القضبان، وتيتّم الأبناء وتُركوا للنوائب، أما الحاكم فهو آمن في قصوره وفي حمى حرسه؛ يولم في كل ليلة الأقارب وأفراد البطانة.

همز الحفيد ساعدي مادا يده إلي بالصندوق، ونطق في أذني قائلا:

– سلم الوديعة إلى أصحابها وتعالى لنُسرع بمغادرة المكان؛ فقد يكون من بين المعزّين من انتُدب للاستخبار؛ فنُعتقل.

تقدمت وأعطيت الصندوق إلى أم آمنة. قامت بفتحه واطلعت على ما بداخله، ثم قالت:

– ما في الصُرّة من مال فهو لهاتين اليتيمتين فليذخرنه لمضرات الزمن، أما السفينة فهي لك يا عبد الله إنها هدية من أهل الهالك فتقبلها واجعلها ومضات للذكرى.

أخذت الهدية شاكرا. ودعنا –أنا والحفيد– الجميع ثم اندسسنا بين نباتات دغل؛ نسرع الخطو؛ لا نثير بوطء أقدامنا غبارا، وبعد ذلك اختفينا بين صخور الشاطئ.

اليوم الواحد والثلاثون

سجين في جزيرة القروش

كاد النسيان أن يطوي قصة ابن الصيادين العجوزين؛ إلى أن كان هذا اليوم الواحد والثلاثون من رحلتي البحرية؛ فماذا حدث؟

سُرّ الشيخ بنجاحنا في تسليم الوديعة، وانشرح صدره. قال لي:

– ماذا ستفعل الآن يا ابني؟

قلت بدون تردد:

– سأتابع رحلتي البحرية؛ إلى أرض قد أجد فيها ما تصبو إليه كل نفس صافية؛ لا يُبقي شيئا من أدران هذه الحياة التي سادت والعالقة بالقلوب المكلومة.

زودني بمؤونة تكفي لعشرة أيام وأثثوا مقصورتي بلُحُف وفُرش صوفية وقطنية، وبكل ما أحتاج إليه إذا ما غيَّبني البحر في أرجائه الواسعة، ودعم الحفيد السفينة الهدية في ركن من السكن بحامل؛ فزادت المكان إثارة؛ شكرتهما، ثم ودعتهما لأعود إلى دفّة مركبي وإلى البحر، ولي شوق كبير إلى لقائهما؛ فبالحبل وترت الشراع فاستقبل هبة ريح قوية؛ فمال المركب إلى حيث تميل الرياح، وانطلق يشُقّ الأمواج شقا. يرفع مقدمته لينزل بها صافعا الماء، فتتطاير القطرات باردة يستقبلها وجهي بحفاوة؛ فأصيح:

– ونِعْمَ الحرية هذه.

تصل صيحتي إلى آذان الشيخ وحفيده؛ فيُلوّحان إلي مبتسمين وبحركات راقصة؛ فأُبادلُهما التلويح بيدي اللتين لا تشغلهما الآن غير الدفة والحبال، ولا وجهة لي غير ذلك الأفق الذي لم تنبثق بعد عنه نهاية لرحلتي البحرية.

في البحر ما يُستأنس به كالدلافين التي تجري مع مجرى إبحار المركب، أو نوارس تنعق وتحلق تتأبط أجنحتها أشواق البحارة إلى الشواطئ البعيدة. ضمّني بحر كائناته يُستغرب لحكاياتها؛ إنه السمك الطائر؛ يحوم بزعانفه مُنفلتا من بين الأمواج ليستقر على سطح المركب؛ فتذكرت من قراءاتي في المدرسة نصا يتحدث عن هذا النوع من الأسماك.

وقد يحمل إليك البحر أشياء فتلتقطها وتكون دليلا على قربك من الشاطئ؛ تنجرف مع التيارات بعيدا، وقد طفا ذلك الشيء؛ كان يعكس أشعة الشمس؛ ففرملت المركب بأن حررت الحبل من يدي وتركت الشراع يُرفرف مع الرياح، وأمسكت به؛ كان قارورة من زجاج؛ ليس بها سائل؛ مُحكمة الغلق بسدادة من فلين، وفي داخلها ورقة ملفوفة ومربوطة بخيط مفتول أمعنت النظر فيه؛ لم يكن من نبات القُنّب وإنما من ثمرة الجوز الهندي؛ تُجفف الجوزة وتُهشّم إلى ألياف بمدق تصير قابلة لفتل خيوط أو حبال؛ فالجوز إذا ثمار الجزر البعيدة. فتحت القنينة وأخرجت أوراقا جميع صفحاتها مكتوبة بخط اليد وبلغتي الأم، ودخلت إلى المسكن وبسطتها على المائدة، ثم شرعت في قراءتها:

"هذا ورق تُلف به البضائع بُنّي اللون؛ أحرر عليه أحداث قصة زجي بهذا السجن؛ في هذا اليوم من شهر يونيو؛ حيث ترتفع حرارة الشمس وقت

الظهيرة؛ فيُقيّل الحراس هناك على الشاطئ الرملي الوحيد بهذه الجزيرة؛ تحت ظلال أوراق نخيل الجوز العريضة؛ فأجد الحرية في الكتابة. يُطلق على هذه الجزيرة اسم (جزيرة القروش)؛ هل تعلم لماذا سميت بهذا الاسم؟ إنها محاطة بحاجز حي متحرك من أسراب سمك القرش؛ ولتعلم أن ما يستدرج هذا الحيوان البحري الشرس آكل لحوم البشر إلى هذه الجزيرة هو دماء ذبائح السجن وسَقْطها[1]؛ التي تُصرف للتخلص منها إلى البحر عبر أنبوب؛ فتفهم لماذا اتخذوها سجنا...

يهرب السجين فلا يجد مُمهّدا له غير البحر؛ إما أن يسبح في اتجاه جزيرة أخرى؛ أو يصنع رمثا[2] من بقايا أخشاب صناديق الشحن؛ يُبحر به مجذفا في اتجاه المجهول، وبكلتي الطريقتين هو طُعمة مريئة للقروش التي تحوس بالقرب من شواطئ الجزيرة ليل نهار.

لا أعرف بالضبط الاحداثيات الجغرافية لهذه الجزيرة، ولا سبق أن اطلعت على موقع لها على الخريطة. سيق بي إليها مغمض العينين في رحلة سوق المساجين في البحر مدة أسبوع.

كانت البداية في القرية الساحلية التي ولدت فيها وأقيم مع والدي في أحد أكواخها المتهاوية التي يسكنها الصيادون؛ فلم يكن لي بد من احتراف حرفة السابقين وهي صيد السمك. لم أكن أتوغل بالقارب الصغير أبعد من ميل عن

---

[1] "السَّقْط: أحشاء الدابة بعد ذبحها كالمصران والكرش والكبد وما أشبهها". (www.almaany.com).

[2] "(الرمث): الطوف، وهو خشب يُشد بعضه إلى بعض، ويركب في البحر (...). (ج) أرماث ورماث". (نفس المعجم السابق؛ ص. 385).

الشاطئ؛ أنصب الحِبالة في المساء لأُبكّر إليها في الفجر. لا يكون البحر معطاءاً في جميع الفصول وفي جميع الأحوال الجوية؛ فقد يبخل في ظرف أنت في أمس الحاجة إلى مال تشتري به ضروريات الحياة؛ هل كنت قانعا بهذه الحال أم لم تسنح لي فرصة لأمتهن عملا آخر يُدرّ علي الكثير؟

فكان ما وقع في ذلك اليوم...

كنت قد جذفت مُبحرا بعيدا؛ قرب خطوط إبحار السفن الكبيرة؛ فقد تمسك شبكتي نوعا من السمك غير مألوف ومكتنز أبيعه في سوق المدينة المركزي بمبلغ أُذخره. ظهرت سفينة صيد كبيرة تتباطأ في سيرها ثم تتوقف. نادى علي بعض الذين يعملون على ظهرها؛ فاقتربت بزورقي مجذفا، ثم رأيت سلما من حبال مفتولة يُرسل إلي فتسلقت درجاته، وعلى السطح قادني اثنان من البحارة إلى مكتب قائد السفينة. قال لي باستخفاف:

– كم تكسب من صيد السمك وبقاربك الخشبي ذاك، وبتلك الشباك التي كثرت رقعها؟

قلت:

– القليل؛ لا يَخفى عنك هذا، ولكني قانع بما يجود به البحر في موسم عطائه. لا أُتقن عملا غير الصيد.

قال وهو يتهالك على كرسي وثير:

– أ تعمل معنا في الصيد على ظهر هذه السفينة؟

أجلت ببصري في هيئة السفينة فاستعظمتها، ووجدتها تشبع رغبي في الصيد.

قلت بإعجاب:

– سفينة صيد كبيرة!

قال بابتسامة فاترة:

– نعم؛ إننا نصطاد شتى أنواع الكائنات البحرية؛ من الروبيان إلى أسماك القرش؛ كأبي مطرقة أو النمر أو القرش الأبيض الأكثر شراسة؛ هذا الأخير يضطرنا إلى الابحار في المياه الدافئة... إلى سمك التونة؛ حتى الحوت الأزرق وإن كان يُحظر صيده.

قلت بدون تردد وبحماس:

– أنا على استعداد.

واشتغلت على ظهر تلك السفينة. كان الأجر الذي أتقاضاه مُغريا، ولم أفطن وقتها وفي أول الأمر إلى ما تشحنه حقيقة السفينة؛ كانت ترسو بالقرب من محطات السفن بالسواحل أو من مراس[1] غير خاضعة للتفتيش... هل كانت تُفرغ حمولتها من السمك أم شيئا آخر؟

حتى كان ذلك اليوم الذي أحاطت فيه مراكب قوات خفر السواحل بالسفينة؛ هبط جنود البحرية إلى الأسفل ليكشفوا عن صناديق مملوءة بالمحظورات من البضائع؛ إنها المخدرات؛ فَزُجّ جميع من يعمل على ظهر السفينة في هذا السجن.

---

[1] تُميز حصافة المؤرخين المغاربة بين الميناء والمُرسى؛ الأول من مُدت أرصفته بالإسمنت لاستقبال السفن، والثاني تكون طبيعته ملائمة للرسو (المؤلف).

سألُفّ أوراق هذه الرسالة وأضعها في داخل القارورة وأرمي بهذه الأخيرة بكل ما أوتيت من قوة إلى البحر من أعلى سور السجن العالي؛ لتحملها التيارات بعيدا فيعثر عليها أحد المبحرين أو تُلفظ على شاطئ رملي؛ فيُبلغ حكاية أحد سجناء حَبْس جزيرة القروش؛ إلى والديه العجوزين اللذين يسكنان في إحدى قرى الصيد؛ المبنية بيوتها على شاطئ الرمال الذهبية".

انتهيت من قراءة الرسالة فقلت: "هذه إذا هي حادثة ابن الصيادين العجوزين الحقيقية". كانت فرحتي كبيرة بوقوع هذه الرسالة بيدي؛ لم تدم طويلا؛ فقلت مرة أخرى "وَ ا أسفاه على هذا الفتى... فقد ظهر من آخر السطور يأسه الشديد؛ أشار فقط إلى إسم الشاطئ؛ أما ما عداه من العلامات والدلائل فيبقى مجهولا؛ ففي أية بلاد يقع شاطئ باسم (الرمال الذهبية)؟".

لم أبرح مسكني؛ صرت أذرعه طولا وعرضا، أو أنا بين قاعد أتأمل حكاية الفتى المُغرّر به، أو قائمٍ أو مستلقٍ على ظهري مُفكرا، ولا أستطيع أن أنطق بسؤال كان بحجم جبل؛ أُسْتُعصي علي الجواب عنه؛ كان هو: أ من وسيلة أو كيفية يُحرّر بها الفتى من سجنه فيرجع إلى أبويه؟

سِرت حثيثا إلى المائدة؛ تناولت القنينة وتأملتها وشممت ما بداخلها من رائحة؛ كانت لسائل الجِعة[1]؛ حاولت أن أستنتج من بطاقتها اللاصقة التي أُتلفت بعض أجزائها بماء البحر؛ أنها مطبوعة بحروف وبلغة أقوام الجهة الأخرى من المحيط؛ إذا فلا تدل على أي شيء. عُدت إلى الرسالة؛ فالخيط الذي لُفّت

[1] "الجِعة: نبيذ الشعير والقمح". (نفس المعجم السابق؛ ص. 130).

به كما اكتشفت من ألياف ثمرة الجوز الهندي، ونخيل هذه الفاكهة البرية لا ينبت إلا في جزر ما وراء البحار الجنوبية، والتيار البحري هو الذي جرف القنينة، وإن حاولت أن أُقدّر المسافة الفاصلة بيني وبين جزيرة القروش اعتمادا على سرعة التيار؛ فلن أصل إلى نتيجة لسبب واحد وهو أني ليس لي علم بتلك السرعة؛ قد تكون أميالا في ساعة واحدة؛ فطرأت علي فكرة: السفن العابرة للمحيطات...

فارقت مسكني وقصدت سطح المركب، وصرت أُقلّب ناظري في أرجاء البحر لعلي أعثر على واحدة من تلك السفن؛ فألوح لبحارتها؛ فأنا رُبّان ضللت طريقي أو مركبي في محنة واحتاج إلى مساعدة؛ فلأصطنع هذا فأستدرجهم؛ فالمكلف بتصفح خرائط الإبحار على تلك السفن الكبيرة التي ترحل في مهمات علمية؛ يعرف بلا شك موقع جزيرة القروش، وأتفادى سفن الشحن؛ فالأولى ركابها مستكشفون، والثانية غبراء اللون تحمل البضائع وسائل خام البترول؛ فتكون في عجلة من أمرها مرهونة بوقت مُقنّن لا يُسمح لها بمخالفته، والبعض من هذه في حقيقة الأمر تمر وتُبدي استعدادها لمد العون؛ غير أني أخفي ما أُبيّته في نفسي وأشكرهم؛ فلأُبادر إلى مسح ميل بحري بكامله بمركبي، وأسرح بناظري في آفاق البحر؛ فكان لهذا الفعل نتيجتُه؛ فقد ظهرت سفينة شراعية كبيرة بثلاث سوار؛ تبحر بتهادن مُداعبة الأمواج؛ تحتك بصفحة المياه برفق وبسلاسة لا يستعجلها أي أمر؛ فهي سفينة للتأملات العلمية. أطلّت من كُوّاتها ومن وراء حواجزها الجانبية وجوه تعتليها لحي رمادية؛ أنهكها البحث العميق

والطويل في معرفة كنه الحياة واستخراج مكنونات الأرض؛ لتعرف حقيقة هذا الفتى الذي يُبحر ببرودة أعصاب في قارب خشبي. نطق قبطان السفينة؛ فقال:

– أ تحتاج إلى مساعدة؟

قلت:

– نعم.

مددت يدي بالحبل الملجم لمركبي لأحد البحارة ليُقيده إلى ماسكة السفينة، وتسلقت حبال السلم؛ فوجدتني بين أجهزة رصد فلكية ومناخية، والعلماء عاكفون على تسجيل المعطيات الرقمية والبيانات الحسابية؛ جالسون على كراس وطاولات من خشب ملمع من الآبنوس[1]. رجع القبطان إلى مقصورته حاملا منظاره المكبر؛ والأغلب أنه كان يقيس الأبعاد الطولية لمسار السفينة؛ فتبعته ناظرا في الأرجاء؛ فرأيت خريطة للعالم مبسوطة، وعليها أدوات لقياس المسافات والزوايا. قلت:

– توجد في المحيط جزيرة اسمها جزيرة القروش ولكني لا أعرف كيف أهتدي إليها.

قام ومد يده إلي بخريطة مطوية، ثم قال:

– أ لديك بوصلة؟

قلت:

[1] الآبنوس: شجر ينبت في الحبشة والهند؛ خشبه أسود صُلب، ويصنع منه بعض الأدوات والأواني والأثاث. (نفس المعجم السابق؛ ص. 1).

- لا.

سار إلى الرفوف فأخرج من أحدها بوصلة معدنية. بسط الخريطة وعلمني كيف أضبط بالبوصلة الاتجاه الذي يؤدي إلى الجزيرة، وكيف أحسب المسافة الفاصلة بيني وبينها بناء على مقياس الخريطة. أردت المغادرة فظهر على السطح الطباخ؛ أعطاني كيسا ورقيا مملوءً بالفواكه الطازجة: برتقال وموز وتفاح؛ فشكرتهم جميعا لصنيعهم، ورجعت إلى المركب، وما زال أولئك العلماء يُعاينوني ويلوح لي البعض منهم بأيديهم حتى غيبهم الأفق.

ظللت واقفا زمنا لا أدري أ طال أم قصر، ولم أنتبه إلى ما حولي؛ فما أجمل شكل هذه السفينة! وما أعظم تجهيزاتها الميكانيكية والإلكترونية! وما أبرع طاقمها من البحارة! وما أعلم فريقها من العلماء الذي يُبحر على ظهرها في رحلة تسجيل وملاحظات وتأمل!... تمتد بصيرة هؤلاء حتى إلى ما بدا على البر وفي أعماق البحار، وما هجرتي من القرية إلا لأطأ أرضا أجد فيها هذا المبتغى، ومواصلة السفينة لطريقها إلى العوالم التي لا تزال مجهولة شجعتني وزادت من حيويتي؛ فبسطت الخريطة ووضعت عليها البوصلة مطبقا ما لقنه إياي القبطان؛ من قواعد استعمال هاتين الأداتين، ثم تركت المركب يميل إلى الاتجاه الذي يشير إليه عقرب البوصلة. وترت الشراع كالعادة أمام الريح فدفع هذا الأخير المركب وجعله يدحر الأمواج؛ في اتجاه جزيرة تبعد عن جزيرة القروش بعدة وحدات من الأميال؛ ستكون قاعدة للتخطيط لتخليص الفتى المسجون.

اليوم السادس والثلاثون

عامل في مصنع تحميص البُنّ

لم يقع بصري على يابسة منذ أربعة أيام؛ فما أشاهده غير سفن السياحة أو التي تشحن حاويات البضائع أو خام البترول أو المواد المعدنية؛ تُبحر بدون توقف. يرمي إلي بعض البحارة بعلب معبأة باللحم أو السمك، أو بالفواكه الطازجة؛ وعندما أقول الطازج من الفواكه؛ فذلك ما يفتقر إليه البحارة في عُرْض البحر؛ وكثيرا ما يُصيبهم بسبب ذلك مرض مميت هو مرض الأَسْقَرْبوط[1]. فكان فكّاي يمضغان كل هذا وعيناي لا تبرحان الأفق والبوصلة، ويداي تقبضان بحرص شديد على مقبض الدفة والشراع؛ فقد يميل بي المركب مقدار درجة واحدة من دائرة إبحاري؛ فأجدني في اتجاه آخر غير الذي خططته على الخريطة وضبطته بالبوصلة.

وما يبْرز أمام العين؛ يُفاجئ أحيانا ولا يكون مُنتظرا؛ ففي جهتي اليمنى بدا ضباب يلف غابة كثيفة من نخيل وأشجار ونباتات وشطآن جزيرة صخرية منحدرة، ولحسن الحظ كان الوقت صباحا، وشمس البزوغ تسطع تاركة غِلالة من ذلك الضباب يصطبغ بحمرة الشروق. عندما دنوت شاهدت زوارق ومراكب مشدودة إلى حبال مراس؛ لا تستقر على حال على صفحة الماء؛ فالأمواج أبت إلى أن تظل تُدغدغها وهي كالجياد الجامحة؛ ولا يُلجمها إلا تلك الحبال المفتولة،

---

[1] الأسقربوط: مرض يصيب الجسم من سوء التغذية لنقص فيتامين (ج). يُصيب في الغالب البحارة لاعتمادهم فقط في التغذية على اللحوم المملحة.

وأخرى تغادر متجهة إلى أمكنة أخرى لتُفرغ حُمولَتَها، أو إلى بحار الشمال لأن موسم صيد نوع من السمك ربما قد حان، فأرى الصيادين يكومون الشبكات بكيفية معينة؛ مقاومين حركات اندفاع المراكب وميلانها بالمياه المائجة، وحتى لا أُثير انتباه سكان الجزيرة؛ فيتساءلون عن هذا الغريب القادم من بلاد بعيدة؛ بهذا المركب الغريب الشكل لا يُشبه مراكبهم؛ تسللت من بين القوارب والسفن بتُؤدة ورسوت، ثم كمنت بعض الوقت لأنظر فأرى أرصفة الميناء المبنية بالحجارة مكتظة بالأهالي؛ يبيعون ويشترون ويقايضون بعضهم البعض بشتى أنواع السلع وفيما تُثمره جزيرتهم من خُضروات وفواكه وبُقول في ذلك الصباح.

أنزلت زورق النجاة إلى المياه وجذفت، وما كدت أضع إحدى قدمي على الرصيف حتى سمعت أحدا يناديني:

– أنت أيها الفتى... أ لا تسمع؟

تلفتت فوجدت رجلا في سن الكهولة. يضع على رأسه طاقية خضراء من صوف ناعم، ويرتدي ألبسة طويلة ذات ياقات وأهداب؛ لا يظهر أنه أحد عمال الميناء؛ فهو رب العمل، لا يقوم إلا ليُصدر الأوامر؛ فيكلف هذا بحمل حاويات البضائع، ويرسل ذاك للمساومة في سلعة ما، ويأمر آخرا ليسطر على الورق الكميات والأثمنة.

قلت:

– أ تعنيني أنا؟

قال وقد تقطب حاجباه:

– نعم... هل ترى تلك السفينة الراسية هناك؟

نظرت إلى حيث أشار. قلت:

– نعم أراها.

قال وقد اعتاد الأوامر:

– احمل هذه الأكياس بقاربك إلى تلك السفينة الراسية هناك؛ أسرع فإنها ستُبحر بعد ساعة، ولا تزد عما يطلبه مني أرباب القوارب الآخرون من مقابل.

وحتى لا أُبدي ترددا فيظن بي الظنون؛ قلت بحماس:

– أمرك مُطاع أيها السيد.

وهرولت إلى الأكياس؛ فلم يمض وقت وجيز حتى كانت جميعها على متن السفينة. كان ذراعاي قد تألما بالتجذيف؛ فلم أُبد تأففا أو ضجرا أمام التاجر. أنقدني قطع مبلغ من المال؛ فشكرته دون أن أنظر إلى ما أعطاه إياي؛ كان قد وقف ينتظر رداً أو احتجاجا. ولما هممت بالانصراف؛ قال:

– كان عليك أيها الفتى أن تقول أ راض أنت بالمبلغ أم لا؟

قلت:

– أ يكفيني لشراء قوت يومي؟

رد قائلا:

– وسيبقى ما تُذخره لغدك.

فقلت:

– إذا فأنا مطمئن البال.

قال:

– أنت تستحق فعلا أكثر من ذلك.

واستطرد بملامح جادة:

– هل توافق على العمل معي باستمرار بهذا المبلغ؟

قلت بدون أن أفكر في الاقتراح:

– أنا موافق.

قال:

– إذن ستقوم ابتداء من الساعة الخامسة من صباح الغد بنقل الأكياس بالعربة من المصنع إلى الرصيف، ثم تحملها بالقارب إلى السفينة التي ستكون راسية في نفس الموعد.

فأومأت له برأسي بالموافقة.

دعاني قائلا:

– هلم لأُريك المعمل والطريق المختصر لنقل البضاعة.

قلت محدثا نفسي: "هل أُخدع كما خُدع الابن المسجون"، فأردفت قائلا: "لأطلع أولا على نوع البضاعة".

لم يكن المصنع بعيدا؛ وأنا أسير خلف الرجل إذ داهمت أنفي رائحة البُن تنتشر في المكان. وعندما دخلنا إلى ساحة المصنع الخارجية حيث تُكوم الأكياس؛ عرفت أن المعمل يختص بتحميص بذور البن.

قال الرجل:

– هذه أكياس مملوءة بحبات البن المحمصة، وهناك العربة؛ أ تراها؟

قلت وقد تأكدت بوجود العربة:

– نعم.

قال مُؤكدا:

– إلى الغد ولا تتكاسل؛ فللبضاعة زبائن ينتظرونها هنالك على مسافة أربعة أميال حيث تنتشر الجزر.

قلت بحماس دائم:

– اطمئن... سأبدأ الشُّغل في الموعد الذي عينته.

وسرعان ما انصرف وباله موزع بين أعماله التجارية؛ وأخذت أنا طريقي إلى أقرب سوق؛ اشتريت منه طعاما وقبعة حِيكت بسعف نخيل الجوز؛ حتى لا أسير عاري الرأس بين أفراد قوم تتحرك هاماتهم في خطوات ثابتة؛ تيها بتلك القبعات.

وآويت إلى مسكني؛ لأعيد ترتيب ما شاهدته على الرصيف، وما سمعته من صاحب مصنع البن؛ فأرى فيما يفيد ويلعب دورا حاسما في وضع خطة لتحرير السجين؛ فقلت: "أول ما أسعى إلى معرفته هو أية جزيرة من تلك الجزر التي قال عنها تاجر البن أنها منتشرة على بعد بضعة أميال؛ تسمى (جزيرة القروش)؟ لست في عجلة من أمري ما دمت قد حصلت على عمل أتعيش به؛ سأتريث؛ فما أحتاج إليه من معلومات سيأتي سِراعا".

أكلت وجبتي وشبعت؛ فارتخت عضلاتي، وقمت وأوصدت الباب، ثم استسلمت لنوم عميق.

لم أستيقظ إلا بعد ظهر ذلك اليوم؛ قمت وخرجت إلى سطح المركب، ونظرت إلى الأرصفة؛ كانت قد خلت من الناس؛ إلا من البعض ممن جاءوا للاستمتاع بسكينة حلت بالمكان بعد صخب وتصايح البائعين في الصباح. بدأ مد المياه؛ تصاحبه رياح قوية؛ شعرت برعدة تسري في جسدي؛ فرجعت إلى الداخل، وتمددت على الأريكة مُلتحفا؛ أُدوّن أيام رحلتي أو أقرأ في أحد الكتب التي حملتها معي، ثم بعد ذلك نمت قرير العين.

اليوم الأربعون

منتدب من أهل قريتي

لم أكن بطبيعة الحال على معرفة بما يُستهّل به النهار في هذه الجزيرة؛ هل هو صياح الدِّيَكة كما يحدث في قريتي؟ هل هو صوت أحد ينادي آخر مُستحثا إياه على الاستيقاظ؟ أ هي دمدمات أو همهمات جماعة من الناس كانت تسري قبل طلوع الشمس؟ كان أول ما وصل إلى أذني صوت ارتطام شيء ثقيل بالماء؛ فأرهفت السمع جيدا فأدركت أن مرساة لسفينة آبَت من السفر أُلقي بها في عُمق الماء؛ فخرجت ونظرت؛ فلم تكن السفينة التي رست غير تلك التي سأحمل إليها أكياس البن. تناولت ما فضل من أكل الأمس من خبز وزيتون، ثم أسلمت في غبش ذلك الفجر قدمي إلى قاربي وجذفت إلى الرصيف، وسرت

إلى المعمل؛ وجدت بالباب من دلني على الأكياس التي عُيّنت للشحن في ذلك اليوم؛ فشرعت في عملي وثابرت عليه مدة ساعتين.

وأنا مضطجع في الليلة الماضية إذ أومضت في ذهني فكرة؛ فتساءلت: "هل يوافق صاحب معمل البن على ما أرغب فيه، ووراء هذه الرغبة الهدف النبيل، وهو العمل على ظهر سفينة الشحن؛ في إفراغها من الحمولة المصدرة إلى تلك الجزر؟ أو إذا ما استعددت لتحميل مركبي بالبضاعة نظير ما يوافق عليه هو من مبلغ من المال؟ وبكلتي الطريقتين أتعرف على جزيرة السجن".

وسُرعان ما قلت محدثا نفسي: "تريث يا هذا ولا تعجل؛ فاليوم الذي ستبحر فيه إلى جزيرة القروش آت لا شك في ذلك".

فقررت ألا أفاتح أحدا فيما ابتغيت، ومضت أربعة أيام وأنا بين مستيقظ في فجر ليلة حالكة؛ لم يكن القمر خلالها في وضع يُضيء الطرق والمسالك لأولئك الذين يَسْرون، وناقل للبن بالعربة اليدوية، ومجذف بها على القارب من المصنع إلى الرصيف، ومن هذا الأخير إلى السفينة التجارية.

في اليوم الخامس من إقامتي بالجزيرة كنت قد انتهيت من حمل ضعف ما كنت أنقل من الأكياس؛ لأن الطلب على البن كان يتزايد يوما بعد يوم، وقصدت السوق كالعادة لأشتري اللحم والخضر وبما أتفكّه[1]؛ لتهيئ طبق من أكلة دسمة... وأنا أتسوق إذ شعرت بيد كبيرة وثقيلة تنزل على كتفي الأيمن؛ فالتفتت فإذا بي وجها لوجه أمام شخص أعرفه؛ إنه من أهالي قريتي؛ من أولئك الذين

[1] تَفَكّه: أكل الفاكهة.

يسعون وراء الأخبار والاطلاع على سوءات الناس. لم أنطق بأية كلمة؛ ظللت أنظر إليه مذهولا.

قال بصوت منخفض وببرود:

- كيف حالك يا عبد الله؟

قلت بتوتر:

- حالي بخير... لماذا أنت في هذه الجزيرة ومنذ متى؟

أجاب بفتور:

- أُنتدبت من طرف أهل القرية.

سألته بغضب:

- لأجل ماذا؟

قال بتلعثم:

- لأقنعك بالعودة.

قلت بغير اطمئنان:

- وما شأنك أنت؟

قال:

- ليس الأمر بهذه البساطة كما تتصور.

قلت وقد أصبحت نهبا للظنون:

- ماذا جرى؟ هيا أفصح... إذا كان ما يستدعي العودة سأفعل... هل أبواي مريضان؟

قال:

– إنهما في صحة جيدة إلا ما ترك اختفاؤك المفاجئ من أثر في نفسيهما... هجرتك أوقعت القرية في فتنة... لقد أُشيع أنك لم تهاجر إلا لأنك عثرت بأرض جزيرة على عرق من الماس والذهب، وأنك تُورّد هذين المعدنين النفيسين إلى صائغ يهودي مقابل مال كثير؛ مما غدا طافحا ينساب من بين يديك كالرمل؛ فلا تعرف في أي شيء تصرفه.

ضحكت بقهقهة ساخرة وقلت:

– ما أغبى سكان قريتي!

قال بعصبية:

– لم أنه بعد كلامي.

قلت ثائرا:

– أ ما يزال ما يستحق الذّكر؟

قال وعلامات الأسى على وجهه:

– فما إن أشيعت هذه الحكاية حتى هرع الفتيان في مثل سنك أو أكثر إلى اقتفاء أثرك؛ حيل بينهم وبين الخوض في لجج البحر؛ إلا ثلاثة منهم أبحروا من الشاطئ بطوف خشبي دون رجعة، وما يزال سكان القرية لا يعرفون مصيرهم.

لم أنْبِس بِبِنْت شَفَة؛ ما سمعته ألجم لساني.

استطرد قائلا:

– لذلك كُلّفت من طرف كبار القرية للوقوف على حقيقة الفتية المفقودين وأعود بك أنت إلى والديك، وقد أوشكت أن أحقق الهدف الأول.

سألته:

– أَ وَ علمت بحقيقة الفتية؟

قال:

–نعم.

قلت:

– أين هم؟

قال:

– في هذه الجزيرة.

قلت وقد فوجئت بما قال:

– لا أكاد أصدّق... في هذه الجزيرة؟

قال بدون تردد:

– نعم.

قلت:

– منذ متى؟

أجاب:

– منذ ثلاثة أسابيع.

قلت باستغراب:

– كيف وصلوا إلى هنا؟

قال:

– كادوا أن يُهلكوا في عاصفة هوجاء؛ لولا أن أنقذتهم سفينة؛ وجيئت بهم إلى هذه الجزيرة التي كانت في خط إبحارها، وهم في أسوأ حال.

قلت:

– ولماذا لا تعود بهم؟

قال ناظرا إلي بعينين منهكتين:

– إنهم مملوكون.

قلت:

– لمن؟

قال:

– لصاحب مقلع حجارة.

قلت:

– أ يعملون في قلع الحجارة؟

أومأ برأسه دون أن ينطق أن نعم.

قلت:

– ما أتعس هؤلاء الفتية... قد يستطيعون الهرب؟

قال وهو يشير برأسه بالنفي:

– سحب منهم صاحب المقلع كل ما يثبت هويتهم من أوراق كانت في ثنايا معاطفهم، وما بحوزتهم من نقود وثياب.

قلت غاضبا:

– تبا لهاته الأوراق ولهوية قريتنا.

أردفت سائلا:

– أ لم تفكر في طريقة لتخليصهم؟

قال:

– إنهم يعملون في مقلع عميق؛ في كهوف خشنة صخورها؛ يستخرجون نوعا من الحجارة القابلة للصقل والتلميع؛ تُبنى بها مداخل وأبهاء قصور أغنياء هذه الجزيرة؛ تحيط به جوانب ذوات انحدارات شديدة؛ تُحمل القطع الصخرية من الأسفل إلى أعلى بدِلاء من حبال مفتولة غليظة؛ وللصعود من القاع يتسلق العمال سلاليما من حبال تَذبح ودرجاتها من خشب هش...

قلت يائسا:

– ليس إذا من وسيلة.

قال مُتنهّدا:

– نعم.

قلت:

– أما زلت تستودع من الأخبار؟

قال بيأس:

– ساءت أحوال الفتية.

قلت بغضب:

– أنا مهاجر إلى أرض تُغنيني عن قريتنا الآثمة... وهم؟

قاطعني قائلا:

– فما أقصر عقول فتية القرية؛ في حسبانهم أنك استغفلتهم، وأنك تريد أن تنفرد بوجودك في جزيرة الماس والذهب.

قلت:

– كثيرا ما يُشيع الناس الخرافات والحكايات الكاذبة ويُصدقونها. يُعلن أحيانا الشِّقاق بين الأفراد والجماعات لنبأ كاذب.

قال:

– وتبقى الحقيقة مجهولة وبعيدة عن التصديق.

قلت:

– ليس باستطاعتنا أن نفعل شيئا سوى استعطاف مالك المقلع واسترحامه؛ ليُخلي سبيل الفتية.

بعد لحظة تفكير سألته:

– أين تقيم الآن؟

أجاب:

– أعمل في ورشة لبناء المراكب والسفن، وأبيت ليالي في بطن إحدى السفن الموضوعة رهن الترميم.

قلت:

– نحن غرباء عن الجزيرة، واجتماعنا ونحن وُقُوف في وسط السوق غير سليم؛ فقد تُظنّ بنا الظّنُون. تابع سيرك وليكن لقاؤنا في المساء على الرصيف.

واختفى مُطيعا بين جُموع الناس.

اشتريت ما احتاج إليه ورجعت بسرعة إلى مركبي. بعد أن تغذيت جلست إلى منضدتي وتناولت ورقة وقلما، وأردت أن أكتب فكرة تُخرجني من دوامة التفكير فيما تراكم من أحداث؛ السجين في جزيرة القروش، والفتية المملوكون، ومنتدب القرية، وصاحب مقالع الحجارة، ومالك معمل البن... قلت: "فلأقر أن سجين الجزيرة هو من أولويات اهتمامي...لكن الظرف لا يسمح بذلك".

فسطرت برنامجا؛ هو إخلاء سبيل الفتية أولا وترحيلهم؛ كيف؟ لم يظهر لي من تاجر البن إلا أنه رجل طيب وكريم؛ سأُسر إليه بحكاية الفتية، فيسعى إلى مالك المقلع ليقنعه بأن يدع الفتية يرحلون ولا طائل من بقائهم فقد يصابون بالعِلل أو يموتون بؤسا، أو لعله يفكر في وسيلة أخرى أو حيلة، وكذلك المنتدب؛ لا بد أن يغادر الجزيرة؛ فوجوده قد يُفشل خطة تحرير السجين من حبسه في جزيرة القروش؛ التي أحاول أن أُحيطها بسرية؛ إذا ما كُشف عنها؛ فقد تودي بنا جميعا إلى السجن أو إلى المشنقة.

في المساء التقيت بالمنتدب في المكان الذي عينته له. قلت له بصرامة:

– نحن غرباء عن هذه الجزيرة كما سبق وأن نبهتك، وإقامتنا بها قد يعاد فيها النظر من طرف القائمين على أمورها؛ فلا تسلك طريقي أو تقتفي أثري. سألتقي بك بعد يومين أو ثلاثة أو أكثر لا أعلم... لا لقاء معك إلا بعد...

قال وهو ما يزال يهذر:

– والفتية؟

قلت:

– أ لا تفهم؟ من أجل هذا أتكلم معك الآن... عد إلى مكان مبيتك ولا تتحدث إلى أحد بقصتنا.

حرك رأسه موافقا، وسار بمحاذاة صخور الشاطئ، ثم اختفى عن أنظاري.

لم أتركه يُبادر بإدارة الوقائع؛ لأن لا علم له بالأمر الآخر وهو الحبيس صاحب الرسالة البحرية، ولم أُطلعه على ما عزمت عليه وهو اللجوء إلى تاجر البن؛ الذي عقدت عليه الأمل؛ ذلك أن نجاحي في هذا إحساس باطني شعرت به منذ أن علمت بقصة الفتية المغامرين.

لم أرجع إلى المركب؛ فظللت أمشي مُستكشفا شواطئ الجزيرة، وامتد بصري إلى الأماكن التي لم أصلها؛ فعرفت طبيعة سواحلها؛ فهي رملية في بعض الأماكن تُضعف الأمواج، وفي البعض الآخر أجراف عالية يجلدها البحر في مده الكبير، وإذا ما وقعت سفينة في مصيدة تلك المياه الهائجة فإنها تُصبح أخشابا متناثرة؛ فالبَحَّار لا بد أن يتعرف على الشواطئ الصالحة طبيعتها للرسو الآمن ولوطء الأقدام على اليابسة بسلام، وأن يُعيّن لها علامات كدليل حتى لا يضل

عنها، ولا يكون ضحية الأجراف القاتلة، وقد قُمت بهذا، وأخذت طريق العودة مُفكّرا في الوقت المناسب الذي سأتحدث فيه إلى صاحب مصنع البن؛ ثم قررت أن يكون ذلك في الغد بعد الانتهاء من الشُّغل.

اليوم الواحد والأربعون

إطْلاع صاحب معمل البن على حكاية الفتية الثلاثة

في بعض الأوقات يقصد تاجر البن الرصيف ليعاين عملية الشحن؛ فتُنصب له مظلة واسعة تحميه من لفحات الشمس، ويجلس على كرسي إلى مائدة عليها كأس قهوة ساخن يرتشف منه ويأكل مما يحضر له من طعام خفيف. كانت تصلني تشجيعاته وأنا في ذهاب وإياب أدفع العربة التي تئن تحث الأثقال، وجسدي يتصبب عرقا وقال لي في بعض الأحيان:

– لا تُجهد نفسك... استرح قليلا وخُذ نفسا.

في هذا اليوم وهو جالس كعادته حمّلت من الأكياس ما يزيد عن ضعفي عدد الأيام الفائتة؛ فبلغ مني الجهد وتعبت كثيرا، وعندما انتهيت من العمل تمدّدت في قاربي ووضعت قُبّعتي على وجهي لأنعم بظلها وغفوت؛ فلم أعر أي اهتمام لما يجري حولي. ما التقطته أُذُناي هو نداء صاحب المصنع؛ فأسرعت إلى تلبيته؛ قال وهو يناولني نقودا مبتسما وعلامات الرضى بالعمل بادية على وجهه:

– لقد ضاعفت أجرك؛ إنك تستحق أكثر من هذا.

قلت:

– أشكرك.

واستطردت بتلعثم:

– أ تمد إلي يد المساعدة أيها السيد؟

قال:

– هل في شُغلك ما يُقلق؟

قلت:

– لا أنا سعيد بعملي.

قال:

– تكلم ولا حرج ولا خوف عليك.

قلت:

– هي حكاية طويلة وغريبة بعض الشيء؛ لثلاثة فتية من القرية التي هاجرت منها؛ رمت بهم الأقدار إلى هنا، وهم مملوكون لرب مقلع الحجارة.

قال وقد أخذ كلامي باهتمامه:

– آه... ذلك الرجل العاتي الذي يحصل بالقهر والتحايل على امتيازات استغلال مقالع الرمال والحجارة... إني أعرفه. فما دامت الحكاية طويلة كما قلت؛ فإني مستعد لسماعها؛ لكن ليس هنا... في بيتي... ستحُل علينا يا عبد الله ضيفا؛ فأهلا وسهلا بك.

ونادى على سائق العربة؛ فلم يتهاون هذا ورفع سوطه عاليا وأرسل أحزمة اللجام في الهواء؛ فتحرك الحصان يتمايل بحوافره جارا العربة حتى قاربت صاحب المعمل؛ فتسلقها وجلس على كنبة وثيرة ومغلفة بجلد مُعالج، ثم أمرني بأن آخذ

مكاني بجانبه؛ مشجعا إياي حتى لا يُطِّئ بي الحرج فأتردد، وقصدت بنا العربة إلى بيت فخم تُحيط به حديقة واسعة الأرجاء. كان في استقباله الأبناء وأطفال ينادونه بالجد. قال:

– هؤلاء أبنائي وأحفادي.

انصرفوا جميعهم، وجلس هو على كنبة مريحة وأشار إلى كرسي قائلا:

– اجلس واروي على مسامعي الحكاية.

بعد أن قصصت عليه ما وقع، وقلت:

– إن الحاجة والحرمان هما الدافع.

قال ونظر أبعد من مكان اجتماعنا:

– نعم؛ ولحسن حظ هؤلاء الفتية أنهم نجوا من الغرق؛ أما ماعدا هذا فالأمر في غاية السهولة.

نادى على أحد العمال وقال له:

– حضِّر كيسا من أجود البن المطحون وأضف إليه من مسحوق المواد الطبيعية المنسِّم.

وما هي إلا دقائق نصف ساعة حتى وُضع أمامه كيس مغلف بعناية، وعليه ملصق بمحتوى البن واسم المصنع؛ جعله في وعاء مصنوع من الخشب الملّمع المحلّي، ثم قال:

– سأراك غدا بعد العمل.

قلت بارتياح:

– ستُجزى خيرا؛ لقد كنت أعرف أنك ستُسدي إلي معروفا في يوم من الأيام لا يُنسى.

وغادر بيته بخطوات ثابتة في اتجاه العربة؛ التي ستأخذ به طريقها إلى صاحب المقلع بلا شك. لم أعلم بعد ذلك كيف كان لقاؤهما، وفي أي مكان وكيف أقنعه بأنه لا فائدة من بقاء الفتية المغتربين واسترقاقهم.

اليوم الثاني والأربعون

إخلاء سبيل الفتيان الثلاثة

تركت المكان وأنا أُردد آخر ما نطق به تاجر البن: "سأراك غدا بعد العمل". لم يكن في بالي أنه سيقوم بفعل ما من أجل الفتية بهذه السرعة؛ لقد تركني يستعد للقاء. لم يرُق لي التمشي على الشاطئ؛ فرجعت إلى المركب وأنا أفكر طول الوقت في الغد؛ في صباح اليوم الثاني والأربعين، وبِتّ ليلتي أتقلب على الفراش؛ لا يغمض لي جفن؛ فأصابني الأرق؛ اللهم تلك الغفوة التي غفوتها قبيل وقت استيقاظي المعتاد. أسرعت بدون فطور إلى مجذافي؛ أضرب بهما في الماء؛ لا أرى في ظُلمة الفجر غير قبضتي يدي؛ تؤوبان وتذهبان بقوة؛ لم أكف عن حركات التجذيف إلا بعد أن ارتطمت مقدمة القارب بعوارض خشبية؛ تحول دون الاصطدام بحجارة الرصيف، ثم أخذت طريقي إلى المصنع لنقل الأكياس.

لم يظهر صاحب مصنع البن في صباح هذا اليوم، وظللت أنظر من حين لآخر إلى الطريق الآتي من المعمل؛ لعلي أراه قادما، وأقول: "لعل شأنا من شؤونه يُؤخره؛ لقد قال لي: سأراك غدا بعد العمل. أ يُخلف وعده وهو سيد

صاحب جاه ومال وبنين وأحفاد؟ لا يمكن أن يكون فاقدا للمروءة وهو يُتاجر ويُساوم ويُزوّد البلدان والجزر البعيدة بالبن، وكان دائما يُذكّرني بأن للبضاعة زبائن ينتظرونها". جلست على الرصيف وذهني يجتر هذه الأفكار؛ أوجه كلامي إلى الفراغ وإلى الأفق. تناهى إلى مسمعي وطء أقدام؛ نظرت حوالي فرأيت فردتي حذاء مُغبرّتين بالرماد؛ رفعت عيني؛ فكان الذي يلبسهما أحد عمال مصنع التحميص. قال:

– بحثت عنك في كل مكان... هيا قُم؛ فإن السيد ينتظرك في بيته.

قلت غير مصدق:

– في بيته؟

قال وهو يريد الانصراف:

– نعم في بيته ولم أقل شيئا آخرا.

ولا ينبغي أن أسأل عن سبب استدعائي؛ فقد حاول صاحب المعمل أن يُبقي العملية سرا، وقد فهمت منه ذلك عندما فضل أن تُقصّ عليه الواقعة في بيته، وإبلاغ نتيجة شفاعته أيضا لن تكون إلا في منزله؛ لهذا سلكت طريقا آخر غير الذي تسلكه العربات، وكنت أسأل نفسي كيف سأدخل عبر الباب، وهل سأجد بوابا يطلب الإذن أولا من مولاه؟ كنت أسير مهتديا بالسور الطويل والمرتفع الذي يحيط بالحديقة؛ فظهر شخص في غرفة وخلف زجاج إحدى النوافذ يُشير إلي بالدخول؛ لم يكن غير التاجر؛ فاتجهت بسرعة إلى الباب

ودخلت وانتظرت في البهو. سمعت وطء أقدامه؛ ثم رأيته يهبط درجات السلم الرخامية، وابتسامة عريضة تعلو مُحيّاه. حييته فردّ التحية. أمرني بالجلوس قائلا:

– ما بذلت من مجهود في لقاء صاحب المقالع وإقناعه لم يذهب سُدى؛ فالفتية أحرار؛ ما يلزمنا الآن هو الإسراع بترحيلهم إلى ديارهم حتى لا تُشاع قصتُهُم. إنهم الآن في مكان سري سأطلعك عليه؛ مُهيّأ بما يحتاجون إليه من أكل وشرب وألبسة، وبمستلزمات النظافة؛ ليستعيدوا قوتهم وشعورهم بأنهم بشر؛ لأنهم كانوا يُعاملون كالدواب؛ ولنسيان ظروف هجرتهم القاسية. ما يتوجب الآن هو أن تستدعي ذلك المكلف من أهل قريتهم إلى هنا لنعلمه كيف يُتابع ما أنجزناه، بأن ينضم إلى جماعة الفتية كأنه واحد منهم ويُغادر هو أيضا، وأنا سأتوجّه إلى قبطان إحدى السفن التي تُبحر في مياه المحيطات لأطلب منه السفر بهم.

لم يكن يشغلني طيلة الوقت غير ما نقله إلي تاجر البن من خبر الفتية السار؛ لأني أكون قد تخلصت مما كان يُثبّطني عن المهمّة التالية؛ وهي تحرير السجين؛ فأسرعت إلى البحث عن المنتدب في ورشة بناء السفن الوحيدة بالجزيرة. وجدته بين الهياكل الخشبية يعمل في حمل قطع الخشب؛ ناديت عليه، فقصدني مُلبّيا، وجعله ما بدا من جِدّ على وجهي يُصغي باهتمام. قلت له:

– لقد أخْلى صاحب المقلع سبيل الفتية. وَدّع ما أنت فيه الآن؛ فليس لك في هذه الجزيرة ما يهمك ولا يُبقيك؛ فإنه يتم الآن التحضير لترحيلك أنت والفتية

من طرف رجل هو في انتظارك الآن، وهو من أقنع مالك المقلع بالتسريح، واخْبِر والدي بلقائك بي، ولا تزد عن هذا كلاما آخرا؛ فإني لن أعود.

أطلعني صاحب معمل البن على المكان الذي يأوي الفتية في سرية؛ بأن مد يده إلي بلجام حصان عربته؛ مشيرا إلى طريق يتجه إلى داخل الجزيرة؛ قائلا:

– أنت من سيقود بنا العربة. سيتفرع بنا طريق آخر؛ في نهايته بيت تقيم فيه والدتي؛ ورثته عن جدي؛ أبت أن تتركه، ولا تفعل شيئا غير تنظيف الخم وإطعام الأرانب والديكة والاعتناء بأُصص الورود، وتخصيب تربة بستان صغير المساحة، ولا يشاركها المسكن غير قطة ناعمة الملمس؛ فوالدتي هي التي تقوم بخدمة الفتية بحيوية وحنان الأم الرؤوم.

ما إن وقعت أبصار الفتية عليّ حتى هرعوا يُحيّونني. قلت لهم:

– كما ترون لا وجود لماس ولا لذهب؛ فهناك ما هو أثمن من هذين المعدنين؛ هو معدن هؤلاء الوجوه التي لا تخلوا منهم الأرض؛ تجدهم إلى جانبك في أحلك الأوقات.

ظللنا في ذلك البيت البعيد باقي ساعات النهار حتى جنّ الليل؛ فقمنا بنقل الفتية والمنتدب إلى كبينة السفينة، ثم ودعناهم؛ فعاد تاجر البن إلى بيته ورجعت أنا إلى مسكني بالمركب.

اليوم الثامن والأربعون

على أبواب جزيرة القروش

قبل أن تبزغ شمس اليوم التالي؛ رأيت السفينة التي يركبها العائدون إلى الديار تتحرك على الماء ببطء؛ ناشرة أشرعتها كأجنحة سرب من الطيور؛ يحلق في رحلة طيران بعيدة المدى، ثم تزيد من سرعتها لتختفي في ظلام الغسق. بعد مدة زمنية ظهر ضوء الشروق؛ فقلت: "هذا أول نهار اليوم الذي سيكون بداية للتفكير في وسيلة لتحرير سجين جزيرة الموت".

مضت أربعة أيام على رحيل الفتية والمنتدب، وطيلة هذه المدة الزمنية كنت أفكر في خطة ناجحة لتخليص السجين؛ أ تكون طريقة من طرق التسلل إلى داخل السجن والمغامرة بمراوغات حراس السجن في وقت متأخر من الليل؟ للتنفيذ لا بد من التفكير في وسيلة تُمكّنني من أن ألج إلى جزيرة القروش؛ لأتعرف أولا على بيئتها، وهل بها حي؛ يقطن الناس بيوتَه، أم بها السجن فقط، وقد أقوم قبل ذلك برحلة بحرية بمركبي في تلك الأميال من المياه المحيطة بها والتي قد تكون خاضعة للمراقبة، أو أكون من بين المسافرين الذين يركبون السفن إلى ما يجاورها من الجزر الأخرى؛ فتتاح لي في كلتي الحالتين فرصة الاقتراب من شواطئ جزيرة القروش لمعرفة طبيعتها؟ بعد وقت من التدبر تخليت عن فكرة الإبحار بالمركب أو السفر على ظهر السفينة، ومضيت في البحث عن طرق أخرى، وتحت إلحاح اهتمامي بالمحاولة؛ وفي إحدى اللحظات استحضرت ما كنت قد سمعته من قبل؛ فقد كان يطلب تاجر البن في بعض الأوقات من قائد

السفينة سجلات تضبط عدد أكياس البن التي يُزوّد بها سجن جزيرة القروش؛ فلمع في ذهني ما يمكن أن أفعله...

كان آخر كيس قد حملته لأضعه إلى جانب الأكياس لأتوجه به إلى السفينة؛ فلم أُرجِئ ما أريد أن أطلبه من صاحب المصنع. تقدمت وحييته. قال:

– كأنك تريد أن تقول شيئا يا عبد الله؟

فنطقت بذلك الذي نويته في أول الأمر:

– هل تأذن لي أيها السيد بالعمل على ظهر السفينة... في شحن بضاعة البن إلى تلك الجزر؟

قال:

– ذلك ما كنت سآمرك به منذ أيام؛ لما أثبته من أمانة ومثابرة في شغلك؛ قد تُعِين المكلف على عد الأكياس، وضمان وصولها إلى الزبائن، وحمايتها من الضياع.

ابتسم واستطرد:

– وفيه استرواح في تلك الجزر العامرة بأنواع المتوجات وبما تشتهي النفس.

فكنت من بين ركاب السفينة؛ عندما نادى قبطانها في بحارته وأصدر أمره بنشر الأشرعة إيذانا بالإبحار في اتجاه الشمال، وأنظر من وقت لآخر هناك بعيدا عند الأفق؛ لأرى شواطئ جزيرة القروش؛ التي ستكون ثاني جزيرة ستظهر في مسار الإبحار، كما سمعت ذلك من القبطان نفسه؛ حين أمر بفرز أكياس البن الموجهة خاصة إلى السجن.

لم تكن الرياح ساكنة؛ بل كانت تهب في ذلك الاتجاه الذي يجعلها تدفع السفينة؛ فصعد القبطان إلى السطح وراح يحث البحارة على توجيه الأشرعة أمام اندفاع الريح؛ بصيحات كأنها مهامز تضرب في خواصرهم؛ حتى نبحر مسافة أميال مستغلين الوقت الذي يتحرك فيه الهواء؛ فقد يسكن وتتباطأ السفينة. بعد ثلاثة أميال أُنزلت القُلوع وطُويت، وأدار القبطان الدفة فاتجهت السفينة ضد التيار المائي ليخفف هذا الأخير من سرعتها؛ فتوقفت وأُلقيت المرساة، وأُنزل زورق إلى الماء؛ فنقلنا إليه ما يزيد عن عشرة أكياس من البن وجذفنا في اتجاه شاطئ مُضرّس، وما كدنا أن نصل إليه حتى مُدّ رصيف خشبي متحرك يطفو على الماء ببراميل فارغة، وسيق في ممر مرصوف بكثل من الحجارة آت من باب قلعة —هي سجن الجزيرة– وفي صف واحد نفرٌ من السجناء.

دسست يدي في جيبي؛ فأخرجت الرسالة المدونة على ورق التغليف؛ قائلا:

– من يكون من بين هؤلاء المحبوسين مُدوّن الرسالة؟

وصرت أتصفح وجوههم واحدا واحدا؛ إلا أن ارتباكاتي حالت بيني وبين التركيز؛ كنت مسرورا بنجاح المحاولة الأولى، وقلت محدثا نفسي مرة أخرى: "تريث يا هذا فإن الأحداث تأتيك سراعا"، ثم طويت الرسالة وأعدتها إلى جيبي، وعيناي لا تبرحان الوجوه، ثم سُحب رصيف الرسو بعيدا؛ حتى لا تطأ قدما إنسان أرض جزيرة القروش، ولا يراود أحدَ السجناء حلمُ الإبحار منه في يوم من الأيام.

كان القبطان يتابع عملية تسليم البضاعة بمنظاره المكبر؛ فالسفينة كانت ترسو بعيدا حتى لا يقع غاطسها فريسة لقيعان الشاطئ، وكان البحارة ينظرون إلى ما يظهر خلف ستار من ضباب البحر من أشباح تتحرك لتعود من حيث خرجت من باب السجن، ويتألمون لحال هؤلاء السجناء. عدنا نحن الذين وضعنا الأكياس حيثما اتفق على الرصيف المتحرك؛ مجذفين في اتجاه السفينة التي أقلعت مرة أخرى متجهة إلى الشرق؛ لتفرغ حُمولتها في جزيرة أخرى، ولتلقي بالمرساة؛ فتظل صواريها شامخة والقوارب تنقل إليها ما ستشحنه عائدة إلى جزيرة تصدير البن.

في مساء ذلك اليوم؛ وبعد أن شاهدت جزيرة القروش، ووقفت على مناعة طبيعتها؛ حيث أن جميع شواطئها أجراف عالية ومنحوتة عند القاعدة؛ فالذي يتشبث بها -في محاولة للتسلق- يبقى عالقا؛ فيصير طُعمة مُستمرأة لأسماك القرش، ومدى الحراسة المشددة على شواطئها، وذلك الرصيف المتحرك الذي ليس غيره لمن يحاول أن يغادرها؛ فأدركت أن طريقة تحرير السجين التي فكرت فيها من قبل لن تكون يسيرة، و هب أني نجحت؛ فلن أقطع عدة وحدات من الأميال البحرية من رحلة العودة بالسجين إلى قريته؛ حتى تُدركنا مراكب المتعقبين والباحثين عن السجين الهارب.

وأنا في مركبي؛ يُمطر وجودي بهذه الجزيرة صورا ورؤى وأتخيل مسالك ومسارات؛ رفعت رأسي لأستجلي؛ فتذكرت تاجر البن فتساءلت :"هل أُطلعه على قضية الفتى السجين كما أخبرته من قبل بمحنة الفتية الثلاثة؟ فقد أعطيه

الرسالة دون أن أنطق بكلمة واحدة؛ فيقرأها ليقف بنفسه على حقيقة السجين. لكن هل يقبل أن يزج بنفسه في شأن محلي خطير من شؤون الجزيرة؟".

تعبت من طول التفكير؛ فأسلمت رأسي للوسادة وأغمضت عيني، ثم نمت نوما عميقا.

اليوم التاسع والأربعون

في جزيرة القروش

في صباح هذا اليوم لم نحمل في القوارب التي ننقل بها البضائع إلى رصيف جزيرة القروش أكياس البن فقط؛ فالسجن في حاجة أيضا إلى باقي المواد الغِذائية والأدوات والآلات. أُستُدعي في هذا اليوم قبطان السفينة التجارية إلى الرصيف المتحرك من طرف مدير السجن، وتبادلا كلاما ونحن وقوف ننتظر الأمر بنقل الشِّحنة المتنوعة. ملت برأسي إلى فرد من جماعتنا وسألته:

– تُرى فيما يُكلّم مدير السجن القبطان؟

قال:

– أَ شاهدت بعض الحراس وأعوان السجن يُغادرون الجزيرة على متن السفينة، وآخرون يعود إلى العمل؟

قلت:

– نعم.

قال:

– فالمدير يدفع للقبطان مقابل ذلك من المال؟

قلت:

– ثم ماذا؟

قال:

– حسب ما بدا لي فنحن من سينقل الشِّحنة إلى داخل السجن.

قلت وأنا أخفي دهشتي:

– والمساجين؟

قال:

– هل ترى ذلك السور الذي توضع لبناته الواحدة بعد الأُخرى؟

قلت:

– إنه في طور البناء.

قال:

– إنهم ينقلون الحجارة من المقلع إلى عمال البناء.

بعد أن انتهى القبطان من كلامه مع المدير؛ أمرنا بنقل البضائع إلى داخل السجن؛ فحمل كل واحد منا ما استطاع من أكياس وصناديق؛ يتقدمنا حارس من حراس السجن. كان الباب الذي دلفنا منه عاليا؛ يُتوّج قوسٌ إطارَه الخشبي؛ لا يحمل على الواجهة إسما. رفعت رأسي إلى سقف الممر الذي يصل بين الباب وساحة واسعة؛ فشاهدت أعمدة متوازية؛ كانت دعامات صُفّت عليها ألواح من خشب؛ تتدلى من بينها فروع لنباتات؛ فأينما نظرت أجد الأركان والسقوف مُعشوشبة، وبالحيطان شُقوقا، وما إن دخلنا حتى سمعنا ضجة إغلاق الباب؛ فلا

أحسب إلا وأننا مساجين جُدد يُساقون إلى هذا المكان المخيف، ثم تابعنا طريقنا في ساحة يتوسطها بئر، ودَوْحة تظلل أوراقُها وأغصانها الكثيفة بناية من طابقين؛ الظاهر أنها إدارة السجن. على الممرات المعلقة على أسوار حصن السجن يخطو الحراس جيئة وذهابا حاملين البنادق؛ يراقبون داخل السجن وخارجه، وفي أسفل هذه الممرات تمتد عند قاعدة السور بيوت صغيرة الحجم؛ هي حجرات السجناء، والساحة عامرة بهم؛ فرُحت أتفرس في وجوه عدد منهم؛ فلم أُميّز من بينهم أحدا –ولكثرتهم– بملامح سكان الساحل الذي أبحرت منه. تساءلت: "أ لا تكون الرسالة شيئا يشُدّ نظر صاحبها؟ كيف؟"؛ أرجأت التفكير في الكيفية إلى حين رجوعي إلى مركبي في المساء، واختلائي وفي سكون الليل بهواجسي وهمومي ومتمنياتي.

تحركنا في صف واحد لنعود إلى الرصيف المتحرك، ونستمر في نقل الأكياس والصناديق؛ لم نحِدْ عن الطريق الذي رسمه لنا ذلك الحارس الذي تقدمنا أول الأمر. كنا نُكدّس ما نحمله في مكان يجاور مطبخ السجن حتى في الأيام اللاحقة.

اليوم الخمسون

هل في الرسالة ما يُثبت براءة السجين؟

بعد غروب شمس اليوم التاسع والأربعين من رحلة هجرتي هذه، ورجوعي إلى المركب؛ ظللت أقلب رسالة السجين بين يدي؛ أقرأها ثم أعيد قراءتها مرات عدة وأقطع أرجاء المركب، وأنظر هنا في مكاني الذي لم يوح إلي بشيء، وهنالك عبر

الكوة إلى السماء وإلى مياه البحر القريبة؛ مُفكّرا دون أن أهتدي إلى كيفية التعرف على كاتب الرسالة؛ وقد سكن الليل؛ فنظرت إلى الأفق الذي تقبع وراءه جزيرة القروش؛ بقاعدتها الصخرية وبغابتها الكثيفة وبحصن سجنها المنيع؛ كأنها طافية على الماء؛ تروي إلى من يشاهدها من بعيد؛ الجانب الآخر الأكثر مأساة من حياة وتاريخ الإنسان.

أغمضت عيني في يأس وفي إدراك أنه ليس لي حول ولا قوة؛ إلا ما ستأتي به الأيام؛ فتخيلت مدير السجن بملامحه البيروقراطية، وهو هنالك قائم على باب السجن، والقبطان بقامته الطويلة على سطح السفينة، وذلك السجين يُقرفص في ركن من سجنه، وقد نفض يديه من أمل العودة إلى والديه حرا، وغُصّة أنه اِغْترّ تقبض حلقه، ويلوم نفسه لبلادته، ويدي تمسك بالرسالة... وكأني خطوت نحو القبطان؛ بادر قائلا وقد خطف عينيه ما بِيَدي:

– ما ذلك الشيء بيدك؟

قلت:

– رسالة من سجين حملها التيار.

سألني:

– في أية حال هو؟

قلت:

– أسوأ مما تتصور.

قال والبَحَّار عالِم بمجال عمله:

– أ حُشيت قارورة بها؟

قلت وأنا أبسط أمامه ورق التغليف:

– نعم.

قرأها، واستطردت أنا قائلا:

– بريءٌ في غياهب السجون.

ركب القبطان القارب وترجّل؛ سمعت وطء حذائه على ألواح الرصيف، ومشى، ثم دلف إلى مكتب مدير السجن؛ قال له:

– هذه رسالة سجين لقصة مآله في هذه الجزيرة.

قرأها المدير ثم رفع رأسه وقد صار وجهه ممتقع اللون. قال غاضبا:

– أ في السجن الذي أديره بريء؟

قال القبطان:

– وغريب عن أرخبيل هذه الجزر.

فتحت عيني؛ ما تهيأ لي أني سمعته هو مجرد حلم يقظة. قبضت بيدي وبقوة على الرسالة وقلت بثقة: "هو استمرار لما تراكم من الأحداث، ونتيجة لما أوحت به تلك الوجوه الصافية التي صادفتها في رحلتي الأخيرة إلى تلك الجزر"؛ فتأهبت إلى القيام بما أنا فاعل غدا.

في الغد والسفينة تسير؛ تتمايل جهة اليمين وجهة اليسار، والركاب الذين ألفوا حركاتها وهي مُبحرة يُقيّلون تحت أشعة الشمس؛ كأنهم في مضاجع أراجيح. قصدت مكتب القبطان، وطرقت الباب فسمعت أمرا بالدخول؛ فتحت الباب

ودخلت؛ فإذا بي بغرفة واسعة الأرجاء؛ يتوسطها مكتب يجلس خلفه القبطان بزيه الأبيض، وبيمينه قبعتُه؛ غُرّتها عبارة عن مرساة وحبل يلفها، وبيساره آلة السُّدُس[1]؛ لقياس ارتفاع الشمس والنجوم عن الأفق، ومنظاره المكبر؛ يمسك بأداة من أدوات قياس المسافات، وأمامه خريطة، وفي أحد الأركان كرة أرضية تعلو حاملا كأنها تدور، ورُفُوف من خشب مصقول وملمع اللون يحتفظ بحلقاته؛ كأنها لمسات رسام متمرس؛ صُفت عليها كتب ولا شيء آخر غير الكتب؛ من سقف كبينة القبطان إلى الأسفل، وخرائط ملونة بكثافة؛ معلقة إلى الحائط، وتضوعت رائحة طيب بالمكان؛ لا أشك في أنه طبيعي؛ مجلوب من إحدى الجزر البعيدة. حييته بإشارة من رأسي وبابتسامة رضا؛ قال بسعة خاطر:

– أهلا بك.

قلت مُقدما نفسي:

– أنا عبد الله الذي ينقل أكياس البن من معمل التحميص، وكلفي تاجر البن بالعمل في سفينتكم.

قال:

– نعم؛ أعرفك.

قلت:

---

[1] آلة السدس (Sextant): هي آلة تستعمل من طرف ربابنة وبحارة السفن؛ لتحديد موقعهم في وسط البحر؛ بالنسبة لخطوط العرض، وذلك بقياس زاوية ارتفاع الشمس نهارا، أو النجم ليلا عن الأفق، وسُميت بذلك لأن مؤشر القياس يتحرك بمحور على سُدس الدائرة. طورت تقنيتها في القرن الثامن عشر، وتندرج الحاجة إليها فيما يسمى بالملاحة الفلكية.

– عثرت على رسالة دونها أحد سجناء جزيرة القروش؛ ينتمي إلى الساحل الذي أبحرت منه منذ خمسين يوما، وقد عرجت في رحلتي في مياه المحيط على هذا الأرخبيل لأثبت براءته؛ والداه عجوزان؛ ليس لهما ولد غيره؛ يتعيشان من صيد الأسماك بسواعد واهنة وبشِباك كأنها خرق وبخيوط بائدة.

كان ينظر في عيني وأذناه تسمعان باهتمام. قال:

– قلت يا عبد الله هو الآن سجين كاتب هذه الرسالة؟

أجبت:

– نعم.

قال سائلا مرة أخرى:

– وما هي حكاية عثورك عليها؟

امتدت يدي إلى جيبي، وأخرجت الرسالة؛ قائلا:

– الرسالة كانت في قارورة جِعة، وهذه كانت تطفو مع التيارات البحرية، وأنا مبحر بمركبي.

قال وقد أخذ ما قصصت عليه باهتمامه:

– أ ما تزال تحتفظ بالقارورة؟

– امتدت يدي مرة أخرى إلى حقيبة جلدية مربوطة بنطاقي؛ فتحتها وأخرجت القنينة وناولتها إياه.

أخذ القنينة وتصفحها من كل جوانبها، وقرأ الورق اللاصق بها، ثم وضعها جانبا، وقام وسار إلى أحد الأدراج؛ جلب من هناك عدسة مكبرة لها مقبض

من خشب؛ فبسط الرسالة وبدأ يقرأ والعدسة المكبرة تحلق بيده؛ فأدركت أنه يفحص الخط بدقة ويريد أن يستدل به؛ إلى أن ختمها بنقطة النهاية، ثم رفع منكبيه العريضين وعيناه ما تزالان تتصفحان الورق والقارورة، ثم قال:

– أن تُطلع شخصا على ما احتفظت به سرا مدة طويلة فهذا في غاية الخطورة؛ لا تدري ما سينوي فعله؛ هل الإفشاء من أجل التقرب... أم أي شيء آخر حَسَن أو سيء. وهذه الرسالة بمثابة صيد ثمين؛ لا يقبل من حظي به أن يقاسمه فيه شخص آخر، ويظهر أنك ترددت كثيرا قبل أن تبوح بسرها. أعدك أن صيدك هذا ستجني منه ما هدفت إليه.

ثم نظر مرة أخرى إلى الرسالة، وقال:

– ما أتعس هذا الإنسان... الرسالة تثبت براءة كاتبها... سأحتفظ بهذا جميعه وسأراك فيما بعد.

قلت:

– أشكرك أيها القبطان؛ فقد توسمت فيك صنيعا.

تراجعت خطوات تقديرا للقبطان ثم خرجت.

اليوم الثالث والخمسون

مدير السجن على متن السفينة

مضى يومان؛ أرى القبطان في الصباح قادما من بيته بخطى سريعة. يهبط أدراج رصيف الميناء الحجري، ويركب زورقا يمضي به إلى السفينة، وما يزال داخل غرفته؛ فلا يظهر إلا بعد أن يُملأ جوف السفينة بالبضائع؛ فيُصدر أمره

برفع المرساة إعلانا بالإبحار، ثم يدخل بعد ذلك، ولا يطلع علينا ثانية إلا بعد أن تدنو السفينة من شاطئ إحدى الجزر؛ ليشرف على إفراغ السفينة من البضائع وتسليمها إلى أصحابها من التجار.

لم تظهر على وجهه أية علامة تدل على شيء يُخطِّط له يخُص السجين؛ فما يُعرض عليه ربما الآن وهو في سن الكهولة قد خبره في عقود حياته، وأنا من جهتي لم أُلح في طلبي؛ حتى لا يظهر للغير أنني أنتظر من القبطان عملا.

في اليوم الثالث لم نشحن إلى جزيرة القروش أية حُمولة، ولكن السفينة رست في مياهها؛ فشاهدت القبطان يصعد إلى السطح ويصوب منظاره المكبر إلى المكان الوحيد بالجزيرة الذي يُمدّد منه الرصيف المتحرك؛ كان قد اتجه إليه أحد زوارق السفينة؛ فشوهد مدير السجن قادما من داخل السجن ويتجه إلى الرصيف ثم ينقله القارب في اتجاه السفينة.

فيما بعد روى لي القبطان ما دار بينه وبين المدير من حديث. قال:

– قلت للمدير بلهجة حادة؛ أَ نُستغفل يا مدير السجن كأننا أغبياء؟

فوجئ المدير ورد قائلا بذهول:

– ماذا تعني أيها القبطان؟

قلت:

– في سجنك بريء، ومن يعلم ربما أبرياء كُثر.

قال سائلا:

– إنك تعني شخصا بعينه؟

قلت:

– أحد مغرر به ممن كانوا يعملون على السفينة التي ضبطتها قوات خفر السواحل تهرب المخدرات.

قال:

– المسألة تستوجب التحقيق؟

قلت:

– لدي ما يُثبت البراءة؟

وضعت ورق التغليف على المكتب وقلت له:

– اقرأ.

استبد به العجب فنشر الورق وقرأ ما خُط عليها باليد وهو يتبين مدى الصحة فيها، فسُقط في يده، وما كاد يرفع رأسه حتى باغتته ووضعت القارورة أيضا على المكتب؛ فاختطفت عيناه. استشاط غضبا وقال:

– أ أُدير سجنا يختلط فيه البريء بالمجرمين والقتلة؟

سألته:

– هل تتوصل بتقارير الأحكام الصادرة في حق السجناء؟

قال:

– لا أكون دائما على علم بما يتوصل به أعوان إدارة السجن، وليس من اختصاصي إعادة النظر في الأحكام.

قلت:

– بإمكانك تقديم اقتراحات في إعادة النظر في بعض القضايا.

قال:

– يبدو أن قضية صاحب الرسالة طُمرت لكثرة السجناء، ثم أن الجرم يتعلق ببيع أخطر المحظورات.

ثم استطرد قائلا:

– أعدك بأنني سأراجع ما احتُفظ من وثائق الحبس، ولن تغرب شمس هذا اليوم حتى يكون من حكى عن مَظلمته حرا طليقا.

قلت بإصرار:

– سأكون في أثرك.

كان الجميع وقوف؛ سواء عمال السفينة أو حراس السجن؛ ينتظرون أن يعود المدير، وقد شوهد هذا الأخير يُغادر السفينة وينقله الزورق، ثم يدخل إلى إدارته ليستعد جميع من يعمل بالسجن لاستقبال قبطان البحرية التجارية؛ فبعد قليل غادر هذا سفينته وتوجه إلى داخل السجن يرافقه أحد الحراس، ثم بعد ذلك قدم من الحراس من نادى في البحارة قائلا:

– من منكم اسمه عبد الله؟

تقدمت الجمع وقلت:

– أنا أيها الحارس.

قال:

– القبطان يريدك حالا.

كان مدير السجن يذرع غرفة مكتبه جيئة وذهابا، وأمارة الغضب بادية على وجهه، أما القبطان فكان جسده الكبير يملأ كَنبة وثيرة.

فُتح الباب ودخل أحد الحراس وقال:

– بسطنا الورقة أمام أنظار بحارة سفينة الممنوعات المصادرة؛ فشدت نظر أحدهم.

قال المدير بنبرة روتينية:

– إيت به إلى هنا.

نادى الحارس؛ فسيق بالسجين الذي ارتبك ونظر حواليه بنظرات زائغة؛ لم يكن يعرف لحظتها إلا بأنه كاتب الرسالة، وبأن بفعله ذاك يكون قد أجرم وينتظر قرار إدارة السجن، واستعطف قائلا:

– هي رسالة كتبتها وأنا يائس، وتخيلت أنها ستصل وسيعلم والداي بقصة اختفائي.

أشار إلي القبطان؛ فتقدمت وشددت بعضد الابن المحرر. قلت له:

– هل ما زلت تذكر مدرسة القرية التي كنت تتابع فيها دروسك؟

قال بدون تردد:

– نعم.

قلت:

– على ما أعلم فهي الوحيدة على ذلك الساحل؟

رد وقد انتقلت ذاكرته إلى هناك:

– نعم.

قلت:

– كنت أنا أيضا أحد تلامذتها؛ دون شك كنت تتقدمني في مستويات الدراسة. لقد سبق أن التقيت بوالديك. ستعود إلى القرية؛ فأنت طليق، الرسالة التي بعثت بها وصلت وهي التي أثبتت براءتك.

كنت أهدئ من روعه وما تزال عيناه تتأملاني. قام القبطان بزيه الأبيض الأنيق؛ أما المحرر فقد صار يحملق في قوامه الطويل. وضع القبطان يده على عاتقه وقال:

– هيا يا ابني؛ فإن والديك في انتظارك.

طلب مني القبطان بملازمته وربط حاضره وهو حر؛ بماضيه وهو في القرية بين والديه؛ ليخرج من كابوس السجن الذي انطوى فيه على نفسه مدة طويلة وقد زُج به على حين غرة منه، وما زلت أخاطبه على سطح السفينة:

– أُنظر... أ لا ترى ذلك النورس؟

رفع رأسه إلى الفضاء وقال:

– كنت لا أستيقظ إلا على نعيقه.

قلت:

– والسماء؟

قال بسعادة:

– يصفو وجهها مرة ويربدّ مرة أخرى. كنت أستدل بها على حالة الجو وأنا أجذف بقاربي.

قلت:

– وذلك الزورق؟

قال:

– سأبني قاربا من أجود الأخشاب وأزينه بألوان زاهية.

بدأ يستعيد محيطه بالتدريج، وكان سُكناي بالمركب هو أول مبيت له خارج السجن؛ لقد وجد كتبا على رفوف خزانتي الصغيرة؛ تصفح البعض منها، وتمشى في الغد على شاطئ الجزيرة ناظرا إلى الأسماك التي تسبح في مياهها الشفافة؛ بمختلف الأشكال والألوان التي تُبهر العين، ويأكل مما تُثمره أشجار الجزيرة من فواكه طازجة؛ إلى أن جاء اليوم الذي سأُودّعه فيه، والسفينة التي سيعود فيها راسية هناك؛ بحضور القبطان ومدير السجن وتاجر البن الذي كنت قد أخبرته بالحكاية فسُرّ.

قال لي ابن الصيادين وهو يضع إحدى قدميه على الجسر الذي سيُفضي به إلى داخل السفينة العابرة:

– سأقول لوالدي أَ وَ تذكر ذلك اليوم الذي حاولت فيه أن تخلص شبكتك من قاع المياه؛ إلا أن جسدك هوى، ولولا ذلك الفتى لكنت قد غرقت، وسأقول لوالدتي ورأيت فيه أنت ابنك الذي اختفى. سأؤكد لهما أنه وفى بوعده فبفضله وآخرون أنا الآن بينكما أنعم بحريتي.

وصعد إلى السفينة، وما يزال يُلوّح بيديه إلى كل من كان يقف على رصيف الميناء؛ حتى أخفاه عن أنظار الجميع ذلك الامتداد الواسع للمحيط، ثم الأفق.

نظرت إلى حجارة الرصيف وإلى الموجات التي تتحرك وتلامسه؛ مُستحضرا قصة السجين، ثم إلى السماء وإلى الأفق، وقلت: "لم يعد سبب لبقائي بهذه الجزيرة". واستطردت قائلا: "في كل أرض قلوب تفيض بالفضيلة ومستعدة لفعل الجميل".

في صباح الغد قَطرت مركبي إلى ورشة إصلاح السفن؛ فساعدني عاملان في نقله إلى البر. قمت بتقوية بعض أجزائه وإضافة طبقة من الطلاء على خشبه حتى يصمد في رحلتي الآتية، واشتريت أشرعة احتياطية للطوارئ.

في وقت مبكر من صباح اليوم التالي ودعت تاجر البن وأبناءه وحفدته؛ طالبا منه إبلاغ سلامي إلى والدته التي أحسنت إلى الفتية الثلاثة، وإلى القبطان، وكان الموقف مؤثرا. قال:

– كنت سأُثنيك عن الرحيل لتبقى بجانبي؛ آنس بما جُبلت به من الأمانة، وأُزوجك إحدى حفيداتي؛ لكن يبدو أن البحار نادت عليك؛ تستحثك إلى أرض أخرى وأنت ملبي النداء بطيب خاطر.

ركبت مركبي وأطلقت له العنان، ويداي على الحبال والدفة. قد أُلوح للرجل الذي ظل متسمرا في مكانه؛ يرى ربما رحيلي الأبدي عن جزيرته.

الفصل الرابع

عَيْن الأب لا تنام

من هو ذلك الشبح الذي كان يسير في خطى عبد الله؛ ليلة جره للمقطورة الحاملة للمركب؛ من المغارة إلى مياه البحر؟ ولماذا يعنيه رحيله مبحرا في المحيط لمدة قد تطول؟

كان عبد الرحمان والد عبد الله قد حَدَج ابنه ببصره في صباح ذلك اليوم الذي لم يتوجه فيه إلى الثانوية التي يتابع فيها تعليمه؛ كانت تلك نظرة واحدة منه فاحصة؛ عرف من خلالها أن ابنه عزف عن قطع تلك المسافة الطويلة مشيا على الأقدام، وهو يدرك أن له رغبة في تحصيل العلم، ولم يفاتحه في هذا والتزم الصمت، ولم يتحدث به إلى أمه، ومنذ ذلك الحين والأب يذهب إلى المدينة ليبيع ما اصطاده من السمك، ثم يعود سريعا، ويصوب عينيه في أرجاء الشاطئ؛ فيرى ابنَه يجد في إصلاح المركب وطليه، أو يسبح في المياه ما استطاع من المسافات، أو يجلس بباب المنزل، أو يتمدد على فراشه وعيناه تُحدّقان في الفراغ، وذهنه يُحلّق في خيالات وتصورات؛ يُمنّي نفسه بأشياء كثيرة.

فعندما كان ابنه مشغولا بدرسه ولا يزيغ عنه؛ لم يفكر قط فيما يمكن أن يعمل في المستقبل؛ فمراحل الدراسة طويلة، ولم يحن بعد لهذا الهم، أما الآن وقد ترك عبد الله الفصل الدراسي؛ ففيما يُفكّر فيه الآن؟ وفيما يفكر فيه أبوه؟ فهما معا يشتركان في التفكير في اقتراح حرفة يتعلمها ويتقنها؛ ويمتهنها في المستقبل لتُدر عليه مالا؛ هل هو الصيد في البحر؛ حرفة والده التي لا يُتوقع بتاتا بربحها؟

ولماذا لا تكون عملا آخر ذو دخل كاف وقار، يتعلمه وهو ما يزال في حدث السن؟ فلم تغب عينا الأب عن الابن. يرجع عبد الرحمان ويَطرُق فيُفتح الباب، وأول ما يسأل عنه هو أين عبد الله وماذا يفعل؛ هل هو في الداخل؛ هل هو في الخارج؛ أين ذهب ولأية حاجة، ومع من؟ راقب باهتمام تحركاته؛ فأدرك أن ابنه يخطط لفعل ما. لاحظ غيابه في أوقات معينة؛ كخروجه من المنزل في وقت مبكر، ورجوعه مُجهدا في وقت متأخر من المساء؛ فينام ليستيقظ في الصباح. لا يهمه ما يحيط به؛ إلا ارتداء ملابسه وتناول فطوره، ثم تُسمع صفقة باب الدار وضجة في الزقاق، وبالرغم من هذا لم يتحدث عبد الرحمان إلى أم عبد الله عن ما يمكن أن يكون وراء غيابه الطويل؛ فيما يقضي وقته في الخارج، وما يمكن أن يترتب عن ذلك؛ فلم ينطق عبد الرحمان بأية كلمة حتى يعرف الحقيقة، وإذا ما كانت ذات أهمية.

قبل آذان فجر أحد الأيام سمع عبد الرحمان خُطوات ابنه في البهو؛ يمشي من غرفة نومه إلى بيت الخلاء ومن هذه إلى المطبخ؛ لعله أكل شيئا من الطعام فطورا له، ثم إلى الباب الخارجي؛ فتحه وخرج؛ فظل المكان غارقا في سكون ذلك الفجر. نهض عبد الرحمان وسار يتتبع الخطوات حتى دخل ابنه المغارة. لم يتقدم ليرى ما يجري في الداخل، ومكث حيث وصل يسمع دقات مطرقة وكماشة تُلقم مسامير عصية مدقوقة في الخشب، وصوت منشار؛ فعرف أن ابنه يبني قاربا؛ فعاد أدراجه بهدوء؛ فابنه إذا يريد أن يحترف الصيد؛ فلم يعترض. كان هذا كل ما دار في خَلَد الأب؛ فنام في ليلة ذلك اليوم مطمئنا؛ إلى أن كان

ذلك اليوم الذي سينقل فيه عبد الله مركبه وقارب النجاة من الكهف إلى مياه البحر.

قال عبد الرحمان في نفسه: "هل أساعده مباركا له نجاحه في صنع المركب؟". استقر بعد طول تفكير على أن يتركه يعمل بالكيفية التي تروقه؛ حتى لا يتعارضان في الرأي وفي الطريقة، وفي ذلك درس له وتجربة، واكتفى بحراسته من بعيد؛ استعدادا للذود عنه وحمايته إذا ما غار عليه مُغير أو اعترض سبيله قاطع طريق.

كثيرا ما كان عبد الله وهو صغير ما يزال في سنوات مرحلة التعليم الابتدائي؛ يُبدي تبرمه لوالده من الحياة الاجتماعية الفاسدة التي تسود القرية. كان يفتح دفتي كتابه المدرسي وينشر إحدى الصفحات المرسومة، ثم يضع إبهامه الصغير على صورة مركب؛ فيقول: أنظر أبي سأهاجر قريتنا في هذا المركب في الوقت الذي أكبر فيه وأصبح قويا مثلك؛ فسكانها لا ينصفون المظلوم؛ البارحة ضرب جماعة من أولئك الفتية المتسكعين ابن الجيران حتى أُغمي عليه.

فما أقلق عبد الرحمان آنذاك هو ما شاهده ابنه وهو في سن صغيرة من فعل منكر، وهو ضرب طفل في مثل عمره حتى الإغماء؛ فلا بد أن تكون لهذا ردّة فعل، وتساءل يومها: "هل سيهاجر عبد الله فعلا القرية إلى بلاد أخرى نائية عندما يشب عن الطوق".

تذكر عبد الرحمان هذا، وهو يرى الآن ما يشبه هذا الحلم الطفولي الذي راود ابنه في ذلك اليوم...

في ذلك الوقت الذي يسبق ضوء الشمس قصد عبد الله المغارة، وسلك أبوه طريقا آخرا، وما يزال يسير وابنه على بعد عشرات الأمتار؛ هو أيضا يسرع في المشي، وقاد عبد الله البغل الذي يجر العربة الحاملة للمركب، واتجه بموكبه إلى الشاطئ، وما يزال الأب يغافل الابن ويخاتله ويتوارى عن ناظريه؛ حتى أطلق عبد الله العنان للعربة بأن تركها تهبط الحَدَر من الشاطئ الرملي بالمركب؛ ليطفو هذا الأخير بعد ذلك ويتهادى؛ حينها كان قد قال عبد الله عندما رأى ذلك الشبح: "ليكن من يكون؛ فقد انتهى عملي ومركبي سيطفو بعد حين على ماء البحر ومهما تحرى فلن يقف على أبيته في نفسي".

فلم يكن إذا ذلك الشبح الذي تعقب عبد الله في فجر ذلك اليوم؛ الذي سيكون هو بداية هجرته البحرية إلى أرض؛ يجد فيها ما ترغب فيه نفسه وتميل إليه؛ غير أبيه عبد الرحمان.

الإعجاب بالابن وهو يخوض الصعاب والتحديات أعمى بصيرة الأب، ولم يقاوم عُجبه؛ فيفكر في أن يدنو ليكشف عن نفسه من أن يبقى شبحا، ويحول بينه وبين ارتياده لمخاطر الإبحار في آفاق المياه الضاربة في البعد، ولم يفق عبد الرحمان حتى طوى ابنه أفق المحيط؛ فكان أثرا بعد عين؛ فتهاوى عبد الرحمان على صخرة وجلس جامدا ينظر كالأبله، ظل على حاله هذا شاردا حتى أشرقت الشمس وأضاء نورها الأرجاء، ودبت الحياة في محيطه الذي كان خاليا، وكم من صياد مر في ذلك الصباح وألقى بالتحية ولم يشعر عبد الرحمان بأحد منهم.

مكث طويلا حيث هو حتى سرت البرودة في جسمه؛ فرفع الياقة على عنقه وتكوم في ألبسته؛ يستمد منها سخونة تُدفئ جسمه. لم يترك مكانه فما يزال جسمه يفقد من دفئه وهو ينكمش حتى صار في غير مظهره المعتاد. صفعت برودة الجو وجهه فصار شاحبا لا تسري فيه الدماء، ولم يُمِل وجهه عن تلك النقطة التي ابتلع فيها البحر والأفق مركب ابنه؛ ظل شاخصا إليها؛ هل كان ينتظر رجوعه؟ وطال الزمن وتوغل المركب بصاحبه في ظلمات المحيط. مر أحد الجيران من الصيادين؛ فقد لاحظ جلوس عبد الرحمان بتلك الهيئة؛ سأله:

– أ عبد الرحمان أرى؟ ما مكوثك في هذه الساعة المبكرة على صخر مبلل بالندى البارد وبرذاذ البحر؟

لم يُجبه عبد الرحمان وظلت عيناه تنظران هنالك بعيدا؛ فالتفت الجار إلى حيث ينظر عبد الرحمان وقال:

– هل تنتظر رجوع ولدك من البحر؟ هل أبحر هذا الصباح ليسترجع الشبكة؟

لم يجب عبد الرحمان أيضا، وعيناه لا تطرفان ولا تتحولان عن الأفق... ثم بعد لحظات صمت قال:

– أبحر عبد الله لا ليعود؛ فلمركبه صَارٍ شامخ، وشراع عريض، وحبال مفتولة، ودفة توجيه قوية. دفعت رياح الشمال بالمركب؛ تحلق مقدمته الناتئة فوق الأمواج؛ مسافة هي ما بعد ذلك الحد؛ الذي لا نرى ما وراءه؛ هي أضعاف ما بيننا وبينه؛ فستطول مدة هجرته؛ كم؟ لا أعلم.

قال الجار:

– وإن أراد الرجوع فكم يحتاج من الزمن ليرسو مركبه، والبحر دائما في نوبات ثورانه.

شاهد جار آخر اجتماعهما المتحفز فقصدهما وقال:

– ما موقفكما؟ هل أحد الصيادين لم يعد. هل في البحر غريق؟

قال الجار الأول:

ــ عبد الله بن عبد الرحمان أبحر في رحلة بحرية قد لا يعود منها.

قال الجار الثاني:

– لأي سبب؟ أ للمغامرة فقط؟ كان عليك يا عبد الرحمان أن تُثْني ابنك عن الخوض في البحر.

لم ينطق عبد الرحمان بأية كلمة.

والجار الثالث كان عائدا من المسجد. رأى من بعيد جمعهم؛ فعرج في طريقه وطرح نفس السؤال:

– أ لخطب ما أنتم مجتمعون؟

أجابه أحد الجارين:

– ابن عبد الرحمان ركب قاربا لا يبدو أنه سيرجع.

سأل الجار الثالث مرة أخرى:

– قد تكون يا عبد الرحمان أسأت إلى ابنك وما عرفت عنك هذا إطلاقا؟

أجاب الجار الآخر:

– لا يظهر أنه أساء إلى ابنه، فقد كان دائما فخورا به.

وما يزالون يحيطون بعبد الرحمان عسى أن يُطلعهم على سبب إبحار ابنه، وجاء بعض المارة وظلوا ينقلون أبصارهم بين عبد الرحمان والمحيط، كما يفعل جيرانه، ويتساءلون، وترك بعض الصيادين قواربهم وأحابيلهم وانضموا إلى المتحلقين حول عبد الرحمان، كما حرك الفضول بعض الفتيان في مثل عُمُر عبد الله؛ وقد سمعوا ما نطق به أحد الصيادين مازحا؛ يريد أن يُخفف بعض الكرب عن الأب:

– أ لا يكون ابنك عبد الله قد عثر على عرق صخري من الماس والذهب في إحدى الجزر البعيدة؛ فصار يورده إلى صائغ يهودي مقابل مال كثير؟

أفرغ أحد أولئك الفتية ما التقطته أذناه في أذن صديقه:

– لقد عثر عبد الله على عرق من الماس والذهب؛ في إحدى تلك الجزر التي توجد ما بعد ذلك البحر.

وتناقل الناس انفراد عبد الله بهذا الاكتشاف؛ فعقد ثلاثة من الفتية اجتماعا طارئا. قال أحدهم:

– أ يستغفلنا عبد الله فيكسب مالا كثيرا؛ كأننا لسنا ندا له؟ لنصنع طوفا من جذوع الأشجار ونثبت في وسطه سارية ننشر عليها شراعا؛ فتدفعنا الرياح في ذلك الاتجاه الذي أبحر فيه عبد الله.

صاحوا جميعا بذات العبارة: أ لسنا أقوياء مثل عبد الله؟

وقصدوا الغابة، وشرعوا في ضم جذوع الأشجار؛ بعضها إلى بعض بحبال متينة؛ صانعين طوفا بحريا.

ازداد عدد أفراد ذلك الرهط الذي أحاط بعبد الرحمان؛ يريدون أن يبوح لهم بالسر الكامن وراء هجرة عبد الله للقرية؛ فصاح فيهم صيحة ارتجت لها ضلوعهم؛ قائلا:

– أ تريدون أن تعرفوا السبب؟ أ ليس فيما يأتي الكثير منكم من أفعال مُنكرة؛ يرجح على أن يكون وراء رحيل ابني؟ أو نسيتم أن لأبنائنا عيون ينظرون بها وآذان يسمعون بها، ونفوس صغيرة لا ترضى الذل والهوان، وتتأثر لفعل شاذ صادم للشعور الانساني؟ يتخذ أثرياؤكم من أبناء الأسر الضعيفة إماء وجواري وغلمانا في بيوتهم، وهذه كهوف نحتوها في الأجراف الصخرية؛ تجري الخمرة على أرضيتها أنهارا، أ ليس بينكم من يحترف الورق المغشوش؛ يستدرج بعض الصيادين التعساء منكم إلى القمار، و من أهل قريتكم صاحب الخمارة؛ يُقطّر السوائل المخمرة، وأولئك من الشباب الفاشلين لم يجدوا ما يشتغلون به غير بيع المخدّر؛ مما يُشمّ ويسفّ ويُحقن؟ لقد سمعتم بعد قليل ما راج من أسباب كاذبة أن عبد الله وقع على عرق من الماس والذهب؛ أ لا يدل هذا على ما تربى عليه أبناؤكم من سوء الظن والاندفاع باستماتة وبغفلة وببلادة إلى حلم مادي كاذب. إنكم يا أهل قريتي لقوم مسرفون.

برز من بين الجمع رجل وقال بصوت مرتفع:

– انتبهوا... لا تأخذكم ريبة فيما سأقوله لكم. لقد صار عبد الله بطلا في عيون صغار القرية، وإن لم تراقبوا الشواطئ وتشددوا في حراستها؛ سيخوض العدد الغير القليل منهم البحر في قوارب هشة؛ لا تحميهم من العواصف.

وردد آخر ما سمعه قائلا:

– راقبوا الشواطئ وشددوا عليها الحراسة؛ فإن عبد الله اخترق ذلك الأفق الذي يبدو لنا نحن بعيدا بعد السماء عن الأرض، وأصبح في مخيلة الشباب المتعطش للانطلاق أنه هنالك، وما هي إلا أياما وسيصارعون فيها الأمواج؛ فيدقون بمجاذيفهم البلاد التي وطئت عليها قدما عبد الله.

تصنت الأجداد والآباء باهتمام بالغ لما قيل؛ فوقفوا مذهولين وتساءل كل واحد منهم: هل يقدم ابني أو حفيدي على هذه المغامرة التي لا تفضي إلا إلى الموت؟ وارتفعت أصوات الاستنكار. صاح أحدهم قائلا:

– ليسكت الجميع.

اتجه إلى عبد الرحمان بنظرات حادة وسأله:

– لا تكتم عنا يا عبد الرحمان؛ فإن الأخْيِلة شطحت بأبنائنا وغلماننا وجوارينا... بأي مركب هاجر ابنك؟

أجاب عبد الرحمان:

– بناه بيده.

نظر الرجل حوله متسائلا بغضب إلى بعض بنائي مراكب الصيد في ورشة النجارة. قال أحدهم:

– لم يبن مركبه في الورشة.

عاد ونظر في وجه عبد الرحمان:

– أ لا تدلنا يا هذا على المكان الذي صنع فيه ابنك مركبه؟

أجاب عبد الرحمان بدون تردد:

– في المغارة المحاذية للغابة.

فاستنفر الرجل الجميع آمرا:

– إلى المغارة... فاغلقوها بكثل من الحجارة؛ حتى لا تصير ورشة لبناء زوارق للهجرة الأبدية.

اتجه الجميع إلى المغارة. تراكضوا إلى داخلها؛ فوجدوا قطعا خشبية منشورة، ونُشارة، وآثار أقدام عبد الله، وبقايا الطعام.

قال أحدهم:

– هذه آثار أقدام عبد الله المقدام الذي لا يخاف الخطر، وهذا مضجعه، وهذه مسامير ما تزال تئن بتأثير ضربات يديه القويتين، وهذا منشار مكسور؛ لم يقاوم صلابة خشب مركب عبد الله.

ثم قال آخر:

– إن هذا المكان ليغدو مزارا لكل من يرى عن كثب الفتوة الطموحة والمندفعة، وخُلق الشجاعة.

وتوافدت النسوة، وأسرع الأطفال، والجميع يتساءل:

– هل هذه هي مغارة عبد الله؟

ويُجيب بحماس من ولجها من قبل:

– نعم؛ أ لا ترون بقايا النُّشارة والخشب والمسامير ومضجعه وبقايا الطعام.

فحملت تلك المغارة اسم (مغارة عبد الله)، وسُدّت ببناء دون الناس، وجُعل لها باب سميك، وعُيّن لدخولها ثمن معلوم.

وأطال بعض كادحي القرية على الشاطئ سلسلة من رأس رصيف صخري إلى نهاية الرصيف المبنية بالحجارة، والممتدة إلى داخل البحر؛ بموازاة صف طويل من الزوارق؛ فسُدّت المرسى في وجه من يفد على القرية من البحر، ومن يريد أن يغادرها.

أما عبد الرحمان فقد شدّت زوجته عضُدَه وقادته إلى البيت؛ كانت أشد منه تجلدا وصبرا؛ ربما خَبَّرها إحساس أموي بأنه هنالك وسيعود؛ فلم تُبد حزنها العميق على ابنها عبد الله. امتلأ بيتهما ببعض النسوة جئن ليخففن عنهما الكرب واللوعة.

استيقظ عبد الرحمان قبل فجر اليوم التالي، وألقى نظرة على الشاطئ المظلم والمغلف بسكون الليل، ومشى مدة طويلة على الرمل الخشن وعلى الصخور؛ مغموما منكس الرأس؛ يرسم في مخيلته أبشع ما يمكن أن تُفضي إليه الهجرة البحرية بابنه، ثم رجع وجلس في نفس المكان الذي ظل فيه بالأمس؛ يطيل النظر في تلك النقطة من الأفق التي اختفى عندها ابنه. اجتمع بعض رجال القرية غير بعيد عنه يعيدون على أسماعهم حكاية إبحار عبد الله، وما أُشيع أنه عثر على عرق صخري فيه كميات كبيرة من الماس والذهب. جاء من أقصى القرية صبي في سن الثالثة عشرة؛ وهو ابن أحد هؤلاء؛ يجري صائحا:

– يا أبي؛ لقد أبحر الفتية الثلاثة؛ أبحروا في الليل على طوف خشبي.

وقف الرجال ينظرون إلى البحر بيأس؛ فالطوف تكون قد دفعت به التيارات والرياح بعيدا إلى ما وراء الأفق. نادى أحدهم على من كان بالشاطئ من الصيادين قائلا لهم:

– أو تقعدون وتسمعون؛ لم يبق لذلك المحيط المائي هيبته؛ فقد انتُزع الخوف منه من قلوب شبابنا؟

وآزره آخر في رأيه:

– أو تقعدون وتسمعون؛ فكل من شب من الفتيان وقويت عضلاته وسرت في عروقه دماء الحيوية والفتوة؛ لن يتأخر في حزم جذوع الأشجار؛ ليصنع طوفا يهاجر به القرية. فلتعقدوا جمعا وتنتدبوا من بينكم رجلا يركب أول سفينة تظهر في مياهنا؛ ليتعقب أولئك الفتية، ويعود بذلك المقدام الذي لا يخاف الخطر؛ عبد الله.

اختاروا من بينهم من هو أدهاهم وأحذقهم وأشجعهم وأصبرهم على المصاعب، وأشدهم قوة، ودسوا في جيوبه مبلغا مغريا من المال، ونقلوا إلى داره مؤونة تكفي أهله مدة عام؛ إذا ما غيبته تلك الشطآن والبراري المجهولة، وقال هو:

– أكون من الخائنين بوعدهم إذا ما رجعت إليكم خاوي الوفاض، وبدون شرط أخير لا أخطو أبعد من مكانكم هذا.

قالوا له:

– اشترط ما تشاء.

قال:

– أن تزوجوني فتاة من أجمل فتياتكم.

كاد أن يتفوه أحدهم بكلمات الرفض؛ فأخذ آخر بيده ونهره؛ دون أن ينتبه إليهما هذا المنتدب؛ قائلا:

– قبلنا هذا الشرط؛ فعلى الرُّحب والسَّعة؛ شرط أن تأتينا بهم جميعا؛ الفتية وعبد الله الذي شَغَب في القرية.

كان يقول هذا وهو يدرك في قرارة نفسه أن عبد الله ليس طيعا إلى هذا الحد ليعود به كبضاعة مغلفة؛ فهو أقوى منه.

هل كان لهذا المنتدب دليل اهتدى به إلى جزيرة البن؛ التي لم يستبعد أن يكون قد رسا عبد الله بمركبه في مينائها، وتكون أيضا قد جنحت التيارات البحرية والرياح بطوف الفتية الثلاثة في اتجاه شواطئها؟

تمر السفن الشراعية العابرة للبحار والمحيطات قُبالة ساحل القرية؛ لتُبحر جنوبا، ونادرا ما شوهدت أخرى تُبحر شمالا؛ ففي إياب هذه الأخيرة تتجه إلى الغرب؛ في الجهة الأخرى من المحيط؛ ولهذا المنتدب حاسة أوهِب بها؛ لأنّه وُلد وأول ما وصل إلى أُذنيه سيمفونية الشواطئ؛ نعيق النوارس وهدير الأمواج ونواح امرأة غرق أحدُ أقارِبها من الذكور، وأمطرت تلك الأمواج رذاذا على وجنتيه المتوردتين، وحبا عاريا كما ولدته أُمُّه؛ في مياه موجة زاحفة على الرمال، وتجرّع مُلوحَتها، ومضغ بلثّته الأعشاب البحرية والطحالب.

فليس في طريق من يُبحر إلى الجنوب من السفن غير جزيرة البن؛ فليضرب بكعب حذائه في أرضها، ولن يغمض له جفن حتى يسوق أولئك الصعاليك الأربعة؛ الذين هم الآن في عداد الخارجين عن أعراف القبيلة.

بعد عصر اليوم الستين من مدة مهمة الانتداب؛ شاهد رجال ونساء وأطفال القرية سفينة شراعية؛ لها أربع سوار عالية، وأقمشة أشرعتها مربعة الشكل بيضاء وعريضة؛ تدنو ببطء سابرة أعماق البحر حتى لا تقع فريسة للمياه الضحلة، ثم اختطف أبصارهم زورق نجاة تُنزله رافعة على الماء، وأُرسل سلم من حبال؛ نزل عليه أشخاص وركبوا الزورق وجذف بهم بحارة؛ فرأوا ذلك الزورق يتجه إلى مرساهم، وسأل بعضهم البعض: من أية بلاد جاءت هذه السفينة، ومن هؤلاء البحارة ذوي مجاذيف تضرب في الماء بإيقاع منتظم؟ هل عرجوا لشراء السمك، وليس للقرويين ما يتاجرون به غيره؛ فميزوا بين الركاب بأبصارهم الحادة المنتدب والفتية الثلاثة، وتساءلوا جميعهم: وعبد الله المفتن للقرية؟

وقال الذي قبل شرط تزويج المنتدب بغادة القرية؛ بعد أن وطئت أقدام الأربعة المرسى:

– ما هذا تعاهدنا عليه أيها المنتدب؟

لم ير سكان القرية في وجوه الأربعة العائدين غير أشخاص آخرين؛ بملامح لم يعهدوها. تقدم المنتدب أصحابه بخطى ثابتة، وعلى شفتيه ابتسامة تهكم وإنذار؛ كأنه يريد أن يتوعد الجميع:

– ليس بيني وبينكم بعد اليوم عهد، وما كنت أوُاثق أفراد قوم يريدون أن يُخضعوا لإرادتهم ولمشيئتهم حتى الصخر والشجر والقمر، لو كان الأوكسجين الذي تعُبّه الرئة بأيديكم لصرفتموه إلينا بمقدار، والله الذي لا إله غيره؛ إن امتدت أيديكم إلى هؤلاء الفتية بسوء؛ لأدق عنق أقواكم حتى الموت؛ إنكم لطغاة فاسدون. لولا عبد الله لكنا غلمانا وعبيدا في قصور أثرياء جزيرة البن، وإني لغدوت أرى في عبد الله منقذ هذه القرية من بغيكم يوم يرجع.

لم يمكث المنتدب والفتية الثلاثة بالقرية إلا أياما قليلة؛ فقد هاجروا إلى شاطئ خليج بعيد، واتخذوا من أكواخ بنوها من جذوع الأشجار مساكن لهم؛ حتى يأتي ذلك اليوم الذي يعود فيه عبد الله.

الفصل الخامس

الرسو في رصيف

ترك عبد الله قريته التي بغى أهلها، وسجن الكهف البحري؛ مقبرة لأحياء ممن لا يروقون للحاكم الطاغي، وأطلال سجن واحة الصحراء؛ التي تروي في الليالي المقمرة حكايات سجناء كانوا قد سيقوا أسرى حرب قامت من أجل منافع نخبة، وجزيرة البن، وشخصيتيها المتناقضتين، تاجر البن الطيب، ومالك مقالع الحجارة والرمال المستبد، وكلما توغل في مياه المحيط تطهر مما علق بنفسه من الآثار السيئة. لم يهاجر إلا لأن هنالك أرضا ستأويه وسيجد فيها حتما ما يبتغيه.

وتُشرق الشمس بعد ليلة ظلماء يخوض فيها في بحر تشتد لُجته؛ بدون وهن أو يأس؛ من تلك النقطة من الأفق التي يسير نحوها ولا يزيغ عنها، ثم نظر بعيدا، وأول ما شاهد جبلا بركانيا؛ تُتوج قمتَه كُتل من ثلج؛ تحيط به ومن كل جانب منه غابة خضراء كثيفة الأغصان والأوراق، وعندما اقترب لاحت له مقدمة رصيف خشبي ثابت، ونهايته في شاطئ الجزيرة؛ غارق في رداء شفاف من ضباب البحر؛ يتلاشى بتقدمه؛ فتظهر أخشابه بلونها الطبيعي؛ يرسو عليه مركبه؛ يقيده إلى أحد الأعمدة الحاملة للرصيف، ثم يمشي؛ يُسمع لوطئه على الخشب وقع، ويرى رجالا ونساء؛ كل في وجهة يقصدها؛ تشغل أيديهم آلة أو أداة. مر فتية في مثل سنه في ألبسة بيضاء، وقبعات تكسو رؤوسهم، في يدي

كل واحد منهم إناء ماء ومنديل. انتبه أحدهم لقدوم عبد الله؛ فبادره بالتحية، وقال:

– عليك آثار سفر طويل؟

قال عبد الله:

– نعم. على متن ذلك المركب الراسي هناك.

قال الفتى بتأثر:

– لا بد أن نعجل بإكرامك، ونخدمك بكل ما تستلزمه نظافتك، وما يستر جسدك وما يسد جوعك.

قال الآخر:

– أ لا ترى لقد صارت ملابسك رثة؟

أعطى الأول عبد الله إناء من طين له عُروة من ألياف نباتية مجدولة، ومنديلا ينصع نقاوة.

قال عبد الله:

– فأينما حللت فعندي مسجدي وطَهوري.

حملق الفتى في وجه عبد الله قائلا:

– إذا فأنت على إيمان؟

رد عبد الله قائلا:

– وقد هاجرت أهل قريتي البغاة.

قال الفتى:

– يظهر من ملامحك المتوهجة أنك متعطش لمعرفة ربانية وعلم دنيوي مُبهر.

قال عبد الله بحماس:

– لم تخطئ فراستك بواطني وبواعثي.

قال الفتى:

– ستجد كل ذلك بحضرة الأستاذ العلامة.

قال عبد الله بهدوء:

– لي رغبة في التلمذة.

قال الفتى:

– ستجد ما تبغي نفسك، وإنك صائر منذ الساعة فردا من مجتمعنا، وأن حديثا سيُلقيه الأستاذ بعد قليل بعنوان: "ميلاد جزيرة"؛ وهو إسم كتاب ألفه في نفس الموضوع.

شدت عبدَ الله إلى هؤلاء وضاءةُ وجوههم، وابتسامات طافحة على جميع كياناتهم. أحاطوا به فشعر بإحساس لم يعهده من قبل؛ كان يلتقي بالشخص فيكلمه بتردد وبخوف، ويتساءل هل هو من لطفاء البشر أم من أشرارهم؛ أما هؤلاء فكأنه صاحبهم مدة طويلة. أوتوا خُلُق مجالس العلم والمحافل المعرفية؛ متنافسون في الطلب.

سار وراءهم إلى مَيْضأة فاغتسل؛ كان يصب الماء مُعمّما به جسده، ويرى أدرانا كانت عالقة على الجسد وفي الباطن؛ تجري إلى صرافة مجرى الماء فتختفي، وجيء إليه بألبسة خفيفة برائحة صوف جففته أشعة الشمس، ودُعي إلى

مائدة. لم يكن في المكان غيرُه والفتية؛ شرب حليبا وأكل خبزا مدهونا بقشدة ما تزال تقطر ماء، ثم مشى يتقدمه أصحابه في ممر مسقوف؛ أرضيته من خشب، ثم صعدوا إلى غرفة عامرة بالناس؛ رجالا ونساء؛ يجلس الجميع في صفوف متوازية، يتبادلون الكلام بأصوات خافتة. قام من بينهم رجل يخطو بتُؤدة، ثم جلس مقابلهم على كرسي عال. كان هؤلاء الحاضرون طلبة، وكان هذا أستاذهم. ابتسم في وجوههم، ثم قال:

– أرى بينكم وافدا جديدا؟

قام عبد الله من جلوسه وسلم على الأستاذ من بعيد وقال:

– جئت من بلاد بعيدة مُبحرا بمركب من صنعة يدي. هاجرت قريتي لأن أهلها بغوا فلم يكن لي بد من فعل ذلك. صادفت في رحلاتي العديد من الناس ليسوا سواء.

جال عبد الله بناظريه في وجه الأستاذ الذي ليس عليه آثار همّ؛ الطمأنينة هي ما تلوح عليه. تسافر نظراته في أرجاء القاعة؛ يجذب إليه أنظار الحاضرين. يُنادي على طفل ويضع راحته على كتفه ويداعبه، ثم يدعه ليعود إلى مكانه مُغتبطا؛ فأدرك عبد الله منذ البداية أن العلاقة التي تجمع بين هؤلاء جميعا؛ هي علاقة الطالب بالطالب؛ يتنافسون في تلقي العلم، وعلاقة الطالب بالأستاذ التي عمادها التبجيل، والإصغاء بشغف وبلهفة إلى ما يُلقى مما صاغه الأستاذ العلامة من معارف، وبمنهج رصين محكم؛ يكشف عن قوانين الكون. قال الأستاذ:

– ملازمة شيوخ العلم والعلماء ملاذ، وآلة انتشال الإنسان مما قد تأمره نفسه من فعل السوء. خُضت يا عبد الله البحار والمحيط؛ لأن ما هو منظور من الطبيعة دافع لك للنظر إليها عن قُرب؛ كانت رحلتك تلك خُلوةً بمركبك؛ تأملت فيها ضوء الشمس ونجوم السماء وفضاء الكون اللانهائي؛ فعندما يرقى الإنسان في إحدى اللحظات؛ إلى أبعد من تلك المساحة التي لا ينظر أبعد منها معظم الوقت؛ فيأتي من الأعمال شرورها؛ فهو في مراجعة للنفس واستحضار خَلقه الأول. طوبى لك فقد حللت بأرض ستزودك بالكثير، وبما افتقدته في تلك القرية التي لم ير فيها العُتاة في الإنسان غير آلة يُتحكم فيها؛ تُنتج ما تُثمره الأطيان من أموال؛ لا يُكدّسونها إلا لزينة حياة زائلة، وإنك أيضا لذو حظ؛ فحديثنا اليوم سيدور حول ظهور هذه الجزيرة التي لا يتعدى عمرها الجيولوجي إلا قرنين من الزمن.

فذُهل الحاضرون وتعالت همهماتهم يتساءلون:

– أ على سطح الكرة الأرضية جزيرة لا يتعدى عمرها الجيولوجي قرنين من الزمن؟

خفتت الأصوات بالتدريج، ثم تابع الأستاذ حديثه قائلا:

– استغربتم وجود جزيرة؛ لم تكن ظاهرة على مورفولوجيا الأرض قبل قرنين من الزمن، وهاكم قصة حادثَتِها، وهي جزء من التاريخ الطبيعي للأرض، ونموذج حي لذلك التكوين الضارب في الحقب الجيولوجية؛ نعاينه نحن الذين نعيش في هذا العصر، ولا نعرف كيفيته إلا من خلال تركات الصخر؛ منها الراسبة في

أعماق البحيرات، ودراسة مكوناتها من الذرات، وإخضاعها لآخر ما اخترع من تلسكوبات إليكترونية. لم أكن أعلم بوجودها، والفضل يرجع إلى عالم طبيعيات فذ كان يرأس فريقا من العلماء؛ كنت قد انضممت إليه أستاذا باحثا، ومنتدبا في آن واحد مختصا في علم الفيزياء من طرف الجامعة التي كنت أُدرّس بها. وكانت المهمة العلمية التي كُلّفنا بإنجازها هي إعداد بحث حول مختلف الأنظمة البيئية السائدة على ظهر البسيطة، وفي الغلاف الجوي المحيط بالكرة الأرضية. كانت هذه الجزيرة في مسار إبحارنا على ظهر سفينة للدراسات العلمية؛ مجهزة بأحدث وسائل البحث العلمي، وقد استغرقت رحلتنا البحرية ثلاثة أشهر عندما رسونا في هذه الجزيرة التي كانت مهجورة آنذاك. ولأعرف المزيد عنها قصدت بالطبع خزانة الكتب وبحثت عن كتاب وردت فيه إشارة لهذه الجزيرة تضمنت تاريخ وكيفية تكوينها. لم تكن تحت حكم أية دولة من تلك التي تصول وتجول في البحار والمحيطات؛ سأُطلعكم في البداية على السبب...

في الوقت الذي كان فيه الناس مشغولين بشن الحروب؛ يتقاتلون فيما بينهم من أجل الاستحواذ، ومنصرفين إلى توفير ما يُذهب جوعَهم ليعيشوا؛ اهتزت أعماق هذا البحر الذي كانت مياهه ساكنة، ونفذت من باطن الأرض الذي يموج بالصخور الذائبة؛ صُهارة مقذوفة في الجو؛ لتنزل في مساحة كبيرة، وما زال البركان يُرسل بحممه حتى ظهرت على وجه سطح البحر كتلة صخرية هائلة، وممتدة في الأعماق بحواف وأرصفة بحرية؛ مُكوّنة هذه الجزيرة. غلى ماء البحر بنار اللافا العالية السخونة، وارتفع بخاره عاليا وتكاثف في الأجواء العليا الباردة؛

مُشكّلا سُحبا مُتشبّعة بذرات الماء؛ أمطرت بعدئذ أمطارا نحتت مياهها في الصخور البركانية؛ فجرى الماء أنهارا؛ تاركا أودية وفجاجا وجبالا وهضابا، وفي السهل من الأرض ترسب ما نقلته تلك الأنهار من حمولة غَرين[1]، وأتربة بركانية سوداء اللون صالحة للزراعة، وتفاعلت عناصر أخرى في تكوين هذه الجزيرة، كحرارة الشمس والرياح والثلوج، وحطت في صباح صفا فيه وجه السماء وعم الضياء، وبثت أشعة الشمس سخونتها في الجو؛ أسراب مهاجرة من الطيور والنحل؛ فدبت الحياة فيها، وظلت خالية عذراء؛ لم يفد إليها أي إنسان، ولم يمسسها بآثامه؛ فانكببت منذ ذلك الحين على دراستها، وألفت هذا الكتاب الذي هو بين أيديكم عنوانه: "ميلاد جزيرة".

سأروي على مسامعكم حكاية ليست من نسج الخيال؛ وإن كانت أقرب إلى ذلك بمقياس الواقعية التي طغت على فهم الناس في العصر الحاضر. هل يُعقل أن يترك رجل في سن الخمسين؛ سنِّ العطاء وجني ثمار حياة مديدة؛ غزيرة بتجارب الحياة؛ درجة أستاذ محاضر في علم الفيزياء؛ بأعرق الجامعات، ويرحل إلى وجهة مجهولة؟ فما هي الدواعي؟

أ تعلمون أنه ينبغي أن يشتغل كل أستاذ يشغل كرسيا علميا في الأوساط الأكاديمية؛ على مشروع فكري وعلمي يُساير مُتغيرات الواقع، ويعي بإسقاطات المستقبل؟ بدون ذلك المشروع يُعد أستاذا يجتر ما تركه الأقدمون؛ لا يضيف

---

[1] "الغرين: الطين يحمله السيل، وقد يبقى على الأرض رطبا أو يابسا". (www.almaany.com).

جديدا إلى تاريخ العلم، ولا يأتي بنظرية تضع لبنة جديدة في ذلك البنيان العلمي المتين؛ فلم يكن بد لذلك الأستاذ من أن يُصيغ أفكارا ونظريات جديدة؛ كانت تشكل قاعدة لمشروع علمي شمولي متماسك؛ فهو لم يصمم الآلة المفجرة للطبيعة لجني المنافع المادية فحسب؛ بل نظّر لمجتمع متوازن لا ضرر ولا ضرار بين أفراده؛ يعيد النظر في أنظمة الحكم وفي المؤسسات الاجتماعية والاقتصادية والمالية؛ آخذا بعين الاعتبار الاستغلال العقلاني لثروات الأرض وتسخير الطاقات المتجددة من رياح وأمواج والأشعة الصادرة عن الشمس؛ بمنهج علمي عتيد. قد تُخمّنوا ماذا سيحدث. لقد قوبل المشروع بالرفض التام من طرف مجلس الأكاديمية الأعلى؛ بدعوى أنه غير قابل للتطبيق، وبعيد كل البُعد عن الواقعية، وشبهوه بجمهورية أفلاطون المثالية، أو من قبيل المثالية المفرطة في الخيال.

أقول لكم الأسباب الحقيقية الكامنة وراء رفض هذا المشروع؛ هو ظاهرة تحاسد العلماء التي تسود في الأوساط الأكاديمية، وما يمكن أن يهدد مصالح فئة بعينها؛ تجني الأموال الطائلة مُستغلّة ما هو قائم من نظام اجتماعي وسياسي واقتصادي فاسد.

سرقوا مسودة مشروعه التي صاغها مدة تزيد عن عشرين عاما، وسهر من أجلها الليالي، وزهد في الحياة؛ لم يذق طعم مباهج هذه الأخيرة ولو القليل منها؛ محتذيا بذلك بحياة الفيلسوف الزاهد أبي العلاء المعري، والأخطر من هذا حرفوا أجزاء منه وأذاعوا ما لم يحرره، وأشاعوا تراجعه عن أفكاره وتصحيحه

لبعضها؛ وكل ذلك بهدف إعادة تكوين عقله من جديد؛ فلم يتراجع. ترصدوا له وكمنوا له في غير موقع لقتله؛ فهاجر إلى هذه الجزيرة بدون متاع ولا زاد غير عقله المستنير وما تفتق عن أفكار وآراء سديدة، وفي حسبانهم أن يقظة البركان ستدفنه مصهورا في الحمم في يوم من الأيام، ثم لحق به طلبته الذين اقتنعوا بمشروعه وسلكوا مسلكه وذهبوا مذهبه، وهو الآن بينكم؛ ماثل أمامكم يروي عليكم قصته هذه.

فليزداد شغفكم بالعلم؛ فهو يضيء طُرقكم ومسالككم ويمهدها؛ فلا يرى الوافد من ذلك العالم المليء بالآثام؛ يئن تحت أثقال الحياة العسيرة؛ مربد الوجه غير ثقة بالنفس تعكسه ابتساماتكم الوضاءة وقلوبكم الكبيرة؛ في غير فظاظة أو تبرم. انتظموا في حلق العلم، كل حلقة هي مرحلة تعليمية؛ يتدرج فيها الطالب، ويتطوع بينكم من أوتي قليلا أو كثيرا من العلم لتعليم المبتدئين، وأوصيكم بالإنصات والقراءة الواعية للكتب ولا تُلحوا في الأسئلة فهي مضيعة للوقت؛ فتحصيل العلم أولا قبل المحاجة والمجادلة، ثم بعد ذلك انتقلوا إلى المخابر لتطبقوا ما بلورتموه من قواعد علمية، وتخضعوها لمحك التجريب والتطبيق، وبعد هذا أكملوا ما أنجزتموه من مراحل بناء المركبة الطائرة والغواصة البحرية والمركب المتحرك بالطاقة الشمسية؛ فإنها وسائل نقل تقودكم إلى اكتشاف عوالم ما تزال مجهولة، وتمكن لكم الريادة من بين باقي الجماعات البشرية.

ختم الأستاذ كلامه، ثم قام وانضم إلى الطلبة؛ كان مُنصتا لتساؤلاتهم واستفساراتهم أكثر منه متكلما وابتسامة لا تفارق محياه.

طلب الفتى المرافق من الطلبة بأن يفسحوا الطريق لعبد الله؛ الذي خطا بتأن في اتجاه الأستاذ، ومد يده بتثاقل، كانت يد الأستاذ اليمنى سريعة وقوية وحارة، وشدت الأخرى بكتفه بحفاوة وبحنان. أحس عبد الله أن الأستاذ غمره بكل عاطفة جياشة. نظر إلى عينيه؛ كانتا عميقتين وهادئتين، وكانت ابتسامته عريضة كشفت عن أسنان بيضاء ونضيدة كأسنان المشط. وجهه أبيض صقلته القراءة الطويلة لصفحات الكتب والرَّقم بالأقلام على بياض الورق؛ في إصرار لا نظير له؛ في صياغة المعاملات الرياضية والفيزيائية وفي بلورة مضامين النظريات.

قال الأستاذ وهو ما يزال يشد على عضد عبد الله:

– كان عثورك على هذه الجزيرة مرتقبا، فمن يهجر أمكنة الفجور واللهو والجهل؛ يسلك طريقا توصله إلى خير الأماكن. كانت هذه جائزتك ونتيجة صبرك؛ فاحرص تنال أكثر مما كنت تتوقعه.

التفت الأستاذ إلى الطلبة فتأهبوا لسماع ما سيقول:

– أوصيكم خيرا بهذا الفتى؛ أنزلوه منزلة تليق بالطالب القادم الساعي من بعيد لطلب العلم والانتفاع به، كانت هذه سنة أجدادنا من العلماء الأولين.

أعظم عبد الله الرجل في نفسه وسعد كثيرا بلقائه، ومهد لشخصه الطريق للالتقاء به في أي وقت يشاء.

الفصل السادس

مدنية العلم

أنت في وضح النهار؛ وتَخبِط خَبْط عشواء[1]؛ لأنك لم تلتمس قبسا من نور غير نور الشمس يُضيء طريقك. شيء ما بغيض إلى نفسك؛ وتُحدثك بتركه فتقوم وتسير بأمل، وقد نفضت يدُك مما كرِهت؛ فيُسرّ قلبك مُنجذبا بشيء آخر هنالك؛ باهتة معالمه، ولكنك سائر إليه؛ فيتضح إليك؛ فتعثر على ما تميل إليه نفسك، ولم تكن تعرفه من قبل.

هذا ما كان من شأن عبدالله؛ لقد عثر على ضالّته[2]؛ على ما كانت تصبو إليه نفسه، وكفاه ما كان يسود في ذلك العالم الذي خلفه وراءه، فبمجرد ما انتهى الأستاذ من حديثه أدرك أنه حل ببلاد لا يأس فيها ولا حزن ولا ضغينة ولا تحاسد ولا اقتتال؛ فلا وجود لكل هذا مع العلم، والذي لا يسود غيره في الجزيرة.

تساءل عبد الله: "تُرى ما مضمون مشروع الأستاذ العلامة الذي قوبل بالرفض؟"، وإن ظهرت له بعض آياته؛ فسلوك الأستاذ وتعامله الخاص مع الطلبة والمقيمين بالجزيرة، وحثه على تلقي العلم نظريا وتطبيقيا هو ما قد يعكس محتوى مشروعه؛ قال محدثا نفسه: "سأكتشف حتما أكثر من هذا في الأيام المقبلة دون أن أتمادى في طرح الأسئلة".

---

[1] "... ويقال: هو يَخْبط خبط عشواء: يُخطئ ويصيب (...) والعشواء الظلمة..." (نفس المعجم السابق. ص. 624).

[2] الضالة: الشيء المفقود.

أبدى الطلبة استعدادهم لتنفيذ وصية الأستاذ؛ وهي الاعتناء بعبد الله. ثم تفرقوا إلى مجموعات؛ كل واحدة منها تضم عشرة أفراد أو أكثر تتجه إلى باب من الأبواب التي تُفضي إلى الخارج؛ سالكة أرصفة تخترق مساحات معشوشبة؛ في وسطها أكثر من نافورة واحدة تُرسل الماء في الجو؛ فينثره النسيم رذاذا؛ يمسح وجوه الطلبة الذين يمضون إلى قاعات الدرس يُطلق عليها اسم: الحلق الدراسية؛ فأفراد كل مجموعة يتحلقون حول أستاذ يعطيهم دروسا، وجميع الحلق تتحلق حول بناية مركزية؛ والتي عرض الأستاذ في إحدى غرفها كتابه "ميلاد جزيرة"، يستمد الجميع مما يُلقى فيها من أحاديث ومحاضرات ودروس، وما يعرض فيها من نظريات علمية؛ شِحنات وحوافز طلب العلم، والتزود بالثقة والإرادة والاتصاف بالهمة.

فلابد أن يتدرج عبد الله في الطلب؛ عُدّته الأقلام والقراطيس وأُذنان تجيدان الإصغاء إلى ما يلقى من دروس وما يُلقّن، لا يفوته قليل أو كثير، وذهن يُروّضه الحضور الدائم لمجالس المعرفة؛ ليتفتق فيما بعد عن أفكار تخوله الانسجام التام في مدنية الجزيرة؛ فينخرط في نظام تربية، وتعليم شتى العلوم النظرية والتطبيقية؛ تربية تصقل شخصيته وتُشذّبها مما علق به من زوائد ونُتوءات لسلوك لا يُجدي نفعا، ولا بد من تلبية دعوة إلى وليمة تجمعه مع الأساتذة والطلبة؛ فأشار له الفتى المرافق بالدخول إلى إحدى القاعات تُناسب مُستواه الدراسي؛ فكم كانت فرحة عبد الله كبيرة وهو يخطو؛ يدلف إلى الداخل؛ فيجد الطلبة قد أخذوا أماكنهم مُستبشرين؛ سُعداء.

أشار بعضهم إلى عبدالله بالتقدم؛ مشجعين إياه على الجلوس بينهم. دخل الأستاذ مُلقيا بالتحية. يحمل أدوات الهندسة كمثلث قائم الزاوية والمسطرة ونصف الدائرة وآلة قياس الأحجام والأبعاد؛ فهدأ الجميع وانصبت عيونهم على الأستاذ، وآذانهم مستعدة لتلتهم ما يقول:

– كما تعلمون أن تفاعل المواد مع المحيط البيئي هي المادة التي أدرسها لكم هذه السنة، وفيما يفيد هذا العلم في تطوير تكنولوجية الطب، وابتكار مسابير، وآلات قارئة للإنسان، ومركبات تتحرك بطاقة مُستمّدة من الطبيعة؛ أي من العناصر التي تكون نسق الأرض البيئي، وتساهم في ديمومته وتوازنه؛ كالحرارة والماء والهواء والرياح؛ لتُصبح تلك الروبوتات التي تتزود بطاقة تشغيلها من البيئة المحيطة بها؛ عنصرا متفاعلا مع هذه الأخيرة، ولها عقل إلكتروني مُبرمج لأداء وظيفة معينة، فلابد أن نتحكم في هذه الكائنات ذات النظام المستقل، ونخضعها لإرادتنا وإلا سترتد علينا.

كان من عادة الأستاذ أن ينطق بمثل كلامه الأخير؛ حتى يرفع سأم الدرس عن الطلبة، واستطرد سائلا:

– فما هي تأثيرات الحرارة التي تنتج عن أشعة الشمس مثلا؟

استأذن أحد الطلبة النابهين وقال:

– تُغير ألوان الأشياء.

قال الأستاذ:

– نعم صحيح، ثم ماذا؟

قال آخر:

- تقلص الأحجام أو تُمددها.

- وقال طالب آخر:

- تُذيب المواد وتُعطينا صُهارة مهما كانت درجة صلابتها.

قال الأستاذ:

- فالحرارة هي سخونة تذيب الثلج ليصبح سائلا، وبرودة تحول السوائل إلى كتل من ثلج تحتل حيزا معينا، إذا باستطاعتنا اختراع أغشية تتغير بتغير الحرارة، ومجسمات تدب ذاتيا؛ متأثرة كما قلنا بما يحيط بها؛ فبمنهج التفكير هذا سنُنظّر لنتائج التفاعلات في معطيات الطبيعة؛ فما مصدر حرارة الجو؟

جاء الجواب من بين الطلبة:

- الشمس.

تابع الأستاذ الدرس شارحا:

- نعم صحيح. ترتفع درجات الحرارة فيكون لها تأثير في الغلاف الجوي للأرض وعلى تضاريس السطح. هي المحرك لكل ما يجري في المنظومة البيئية، فليُركّب من استطاع منكم في المكان الذي يحتله ميزان حرارة بخزان من سائل الزئبق، أو آلي ذو شاشة رقمية، وإذا أحسن استعمالَه سيعرف التغيرات التي تحدُث في محاور الأرض وفي الجو وفي البحار والمحيطات، ودرجات حرارتها، وطبقا لذلك يحرر جداولا، والمجلس العلمي للجزيرة بصدد تأسيس مرصد لتغيرات الحرارة وعلاقتها بما يحدث في ظواهر الجزيرة الطبيعية.

لم ينتبه الطلبة إلى الشمس وهي سائرة في علوها، وإلى ظلال الأشياء تتغير أطوالها وامتداداتها، وتدور على محاورها؛ لأنهم كانوا مأخوذين بالإثارة؛ بسحر المعلومة، ثم كان آخر ما تفوه به الأستاذ:

– هذا درس نظري مما يُلقى في الصباح. سيكون موعدنا في مَخبر التجارب بعد الظهر. إذا راجعتم ما سمعتموه سيكون فيه استيعاب كبير وتستطيعون مستمتعين إجراء التجارب كما أُريدَ لها أن تنجح.

كان يريد الأستاذ بآخر ما نطق به أن يزيد من تلك الرغبة التي ظهرت بوضوح على وجوه الطلبة، وهي الاطلاع على كل ما هو جديد في العلم، ولا يخفى عليه تأثير كلمتي (مخبر التجارب) في نفوسهم؛ فهم متلهفون إلى القيام بالتجارب المخبرية ليروا بعيونهم تأثير عوامل المحيط البيئي في الأشياء؛ التي يمكن أن تتحول إلى مواد خام؛ لصُنع ما يحار العقل في تفسيره، وبذلك يَكْسِبُهم الرّيّادة في هذا المجال.

كان عبد الله اكثر منهم سعادة؛ لأنه بدأ ينهل من مَعين العلم ويُجالس العلماء. قام وغادر القاعة؛ فتلقّفه صديقه الفتى مُبتسما. احتضنه عبدالله قائلا:

– أو ليس لك اسم يا هذا؛ حتى أظل آنس بشخص لا أُنادي عليه من بعيد؟

أجاب الفتى:

– اسمي محمد. هيا فإن الطلبة يدعونك إلى وجبة غذاء على مائدة يجلس إليها الأستاذ والطالب.

قال عبدالله:

– إن التآخي بين هؤلاء هو مصدر دعواتك لي منذ أن التقيت بك.

قال محمد:

– فرد من جماعة صالحة لا يُرى منه فعل ناشز إطلاقا.

خرجا من المطعم العام بعد أن تناولا غِذاءهما؛ فوجدا الطلبة وقد انتظموا في مجموعات تتفرق بهم الممرات الخشبية، كل مجموعة في طريقها إلى قاعة للدرس النظري أو إلى مختبر للدرس التطبيقي.

قال محمد:

– الحق يا عبدالله بمجموعتك، أما لقاؤنا فسيكون على ذلك الرصيف بعد خروجك قبل غروب الشمس.

وافق عبدالله على الموعد المضروب وافترقا.

سار الطلبة إلى المخبر وعبدالله معهم؛ وقد غمرتهم تلك الفرحة التي تجتاح كل إنسان وهو ينضم إلى جُلساء؛ فيهم عالم تتدفق معارفه، وملازمون له يأخذون عنه، وقد شملهم سكون وهدوء؛ لا يختلط بصوت ذلك العالم إلا تغاريد عصفور يتخذ من الشجيرات القريبة سكنا له، أو رياحا هاجت هناك بعيدا؛ فسُمع لها صفير في إطارات النوافذ والأبواب المواربة[1].

[1] وارب الباب: فتحه قليلا.

دخل عبدالله إلى المختبر؛ فشاهد ما يملأ المكان من قوارير وأنابيب من زجاج؛ لتبخير السوائل وتقطير مخزونات الموارد الطبيعية وفرز الخوالص[1] والمستخلصات، وآلات تفرز المخلوط؛ فكان لدى الأستاذ ما يثير انتباه الطلبة، ويستدرجهم إلى الانغماس بكل حيوية ولهفة في التجارب التي سيُشرف عليها.

نادى الأستاذ على أحد الطلبة قائلا:

– هيا اقترب. أ لا ترى تلك البقعة من ضوء الشمس المبسوطة على الطاولة؟

قال الطالب:

– نعم.

قال الأستاذ:

– وما تلك على يمينك تربض في الظل؟

أجاب:

– إنها مركبة.

قال الأستاذ:

– ضعها في البقعة المضاءة.

واستطرد مخاطبا الطلبة:

– وانتظروا بعض الوقت.

وُضعت المركبة في البُقعة المضاءة، وما هي إلا ثوان حتى حلّقت وصارت تجوب أرجاء القاعة دون أن تصطدم بعائق؛ فأثار هذا إعجاب وتساؤلات الطلبة.

---

[1] الخوالص: مفرده خالص، وهو محض وصاف وصرف. (www.almaany.com).

قال الأستاذ مُفسّرا:

– لنبدأ من حيث بدأ استخلاص المادة. إن اللّدائن تتمدّد بقوة خارجية، ثم تُخلي هذه الأخيرة سبيله فيعود إلى شكله الأول؛ ففي تمدّدها وتقلّصها دورة قد ينخرط بها في حركة لا تتوقف؛ فمن أين لنا هذه الطاقة؟ إنها الحرارة المنبعثة من أشعّة الشّمس؛ فاللدائن تتقلص بالسخونة وتتمدد بالبرودة، والمركبة استمدت كمية من حرارة الأشعة قلصت اللدائن؛ فاستهلك نصف الكمية فتمدد، وهكذا؛ فبالتمدد والتقلص تظهر حركة دفع المركبة عموديا إلى الأعلى، وحركة دفع أفقية إلى الأمام، وتم تزويد المركبة بنظام يعتمد على الأشياء المعترضة لطريقها؛ كعاكس للصدى الذي تصدره؛ فتغير اتجاهها في الوقت المناسب. هذا نموذج تفاعل الأجهزة المبتكرة مع عناصر المحيط الجوي؛ لنستخلص أولا لدائن خاص يستجيب للحرارة. تعالوا لنبدأ التجربة.

لا يأس في مثل هذا المكان، قد تفشل التجربة فتعتبر خطوة إلى الأمام، تعقُبها خطوات هي بين النجاح والفشل، ويُكتب للأخيرة النجاح المحقق. كان هذا منهج التجارب التي يُرصد له ما أوتي الأستاذ والطلبة من حصاد للتجارب السابقة؛ فكل مرحلة من التجربة تُقيّد؛ أسباب فشلها وأسباب نجاحها، والجميع في غمرة الفرح؛ لا تهن سواعدهم ولا يتراجعون؛ فما يزال الطالب يُراقب مراحل التقطير؛ قطرة قطرة؛ مدة طويلة حتى يرى بأم عينيه النتيجة النهائية، وكذلك الطالب الذي غدت عدستا الميكروسكوب عيناه؛ فما يزال يتأمل عالما لا نهائيا من الأشكال الهندسية ومن الأحجام؛ حتى يدرك ماهية ذلك الشيء؛ سواء

طال به الزمن أو قصر. يخالط عبدالله الطلبة في كل هذا، يقرأ كل ورقة توثيق، ويحفظ عن ظهر قلب ما يدون من القواعد، ويتمرن ويطرح الأسئلة ويستزيد من المعرفة، ويرتوي ويتزود ويتسلح لغد آت.

ختم الأستاذ الدرس بما يربط الطلبة بما هو مُبرمج لليوم التالي قائلا:

– ستحضرون مع أستاذ آخر دروسا في الآلات القارئة للإنسان.

يغادر عبد الله بناية ليدخل إلى أخرى؛ كل واحدة مخصصة لتعليم مُعين؛ دائرية الشكل؛ مسقوفة بالخشب ومبنية بلبنات منحوتة من الصخور البركانية السوداء. تبُثّ مياهٌ تجري في أنابيب برودةً في الصيف ودفئاً في الشتاء. تُضاء أرجاؤها وأبهاؤها وممراتها في النهار بضوء الشمس، وفي الليل تُنار بمصابيح لم يدر عبدالله بعد مصدر كهربيتها. كان قد مشى مُتنقّلا بين هذه البنايات على أرصفة خشبية؛ تربط بينها، وهي تتباعد فيما بينها بمسافات طويلة تتراوح بين مئات الأمتار إلى الآلاف. فبأية وسيلة يُتنقّل بينها؟

بعد أن مالت الشمس إلى المغيب؛ حان وقت الذهاب إلى مأوى الطلبة الذي يقع على شاطئ الجزيرة. سار محمد وعبدالله يتبعه. هل سيقطعان تلك المسافات الطوال مشيا على الأقدام؟ ولم ير عبدالله غير أرصفة ذاهبة في اتجاهات مختلفة، ثم توقف محمد فجأة، وصمت بعض الوقت يتسمع صوتا، قدر عبدالله مدته بثلاث دقائق. التفت إليه محمد قائلا:

– ستنقلنا إلى مبيتنا مركبة كهربائية. هل تراها؛ إنها قادمة؟

استغرب عبدالله ما رآه؛ إنها مركبة تتوقف بأربعة مقاعد؛ اثنان مقابل اثنان. ليست لها عجلات؛ تسير مرفوعة بعشرين سنتيمترا عن الرصيف. صعد إليها محمد وأخذ مكانه، ثم شجع عبد الله على أن يصعد ويأخذ مكانه على كرسي وثير؛ ثم زادت من سرعتها. سأل محمد عبدالله:

– هل تعلم ما الذي استدعى المركبة لنقلنا؟

قال عبدالله وهو يقلب ناظريه في العربة:

– لم أفد إلى هذه الجزيرة إلا أياما قليلة؛ فكيف لي أن أعرف؟

قال محمد:

– إنها قراءة إلكترونية عن بُعد لما يدور في أدمغتنا.

قال عبدالله:

– أُبهم علي الأمر.

قال محمد:

– ركب أستاذُنا العلامة في هذه الجزيرة نظام اتصال إلكتروني لا يُصاب بالخلل. عندما وقفنا بجانب الرصيف؛ حدد مسبار موقعنا في ذلك المكان، وقرأ في أدمغتنا الوجهة التي نريد الذهاب إليها، ثم نقل إشارة إلى إحدى المركبات القريبة من مكان انطلاقنا مبرمجة؛ لتحملنا إلى وجهتنا. ستَطَّلع في المستقبل على الكثير من هذه الابتكارات.

سأل عبدالله محمد:

– وكيف يتم تزويد الجزيرة بالكهرباء ومن أي مصدر؟

رد محمد بحماس:

– أ لا ترى؟ إنها تلك الألواح الممتدة هناك، تدور بدوران الشمس، تستقبل الأشعة فتحولها إلى طاقة، وأن تلك الصحون المقعرة الهائلة المنصوبة فوق تلك القمم؛ تستقبل حُزْمات من الأشعة، ثم تعكسها في بوتقة تكثيف تُصدر حرارة قد تصل إلى أربعة آلاف درجة مئوية؛ تصهر الحديد وتطهو الصخر وتُغلي الماء في المراجل.

فاستعظم عبدالله ما أمده به محمد من معلومات.

وتوقفت العربة الكهربائية أمام الإقامة الجماعية للطلبة؛ تماما كما شرح له محمد.

في الغد قال محمد لعبد الله:

– تقدم إلى الرصيف واشحن دماغك بالوجهة التي تريد؛ ستأتي إليك العربة بطيب خاطر. احذر أن ينزلق دماغك إلى وجهة أخرى يميل إليها قلبك؛ فتنقلك إليها العربة، وهذا فيه تيهان ومضيعة للوقت.

وقف عبدالله بجانب الرصيف مرُكّزا في دماغه مغمض العينين على الجهة التي يريد أن يذهب إليها، فقدمت العربة؛ على قبتها الزجاجية ندى الصباح. فُتح الباب أوتوماتيكيا فدخل إليها؛ احتضنته بدفء يسري في أرجائها؛ بنظام برودة وسخونة يتغير تلقائيا حسب الجو، وتوقفت العربة في المكان المحدد، وقد فطن عبدالله فيما بعد إلى القاعدة الأساسية التي تقوم عليها الحركة الذاتية لمركبات النقل؛ وهي أنها تتفاعل مع التغير اليومي للحرارة، وتسير دون أن تصطدم بباقي

العربات الذاهبة والآيبة على طول أرصفة متشابكة؛ تلتقط صورة المجسم الذي يوجد في طريقها؛ مُندمغة في عقل إلكتروني فتُغير اتجاهها.

فكل ما يصاغ من نظريات ويستنتج من التجارب المخبرية؛ يتم توظيفه فيما ينفع الناس في هذه الجزيرة في حياتهم اليومية، وفي محاولة منه لاختبار هذه المركبات اتجه إلى رصيف آخر فجاءته إحدى العربات ونقلته مسافة مائة متر، وقد قرأت المكان الذي يريد أن يصل إليه؛ فأدرك حينئذ النظام المحكم التي تخضع له، ثم اتجه إلى قاعة الدرس مشيا على الأقدام يستمتع بشروق الشمس، وبمشاهدة فُرُق من الطيور المهاجرة تملأ السماء؛ كل فريق منها يتخذ له اتجاها. بدأ الطلبة يفدون؛ تُبدّد برودة الصباح آثار نعاس الليلة الماضية. قَدِم الأستاذ؛ تشغل يده اليمنى محفظة جلدية كبيرة، وطالت قامته ولحيته؛ يرتدي لباسه بحزم. بعد التحية نادى على طالبين؛ أمرهما بأن يقفا وجها لوجه؛ ففعلا. قال لأحدهما:

– هل تستطيع أن تقرأ نواياه الباطنية؛ انطلاقاً مما يبدو على وجهه من ملامح وعلامات؟ أُرصد أولا التغيرات الطارئة.

أجاب الطالب القارئ للبواطن:

– احمرار في الوجه ونظرات غير ثابتة وتصلب في الوجنتين.

قال الأستاذ:

– كذلك يمكن أن تلتقط عين جهاز جميع هذه العلامات، ويحللها الجهاز إلى ما يمكن أن يُبيّت الإنسان في أعماقه وما يُصرّ على فعله. تفيدنا هذه التقنية في

وضع نظام وقاية المبادرة، ونحن في حاجة ماسة إليها في مجتمعنا؛ لحمايته من كبائر الذنوب والآثام؛ فاحذروا فإن أجهزة تقرأ ما نُسِرُّه في أعماقنا؛ فتُرسل إشارة إنذار إلى من ضُبط وهو ينساق وراء رغبة جامحة؛ فنقيه مما كان قد يقع فيه من مُنكر الأفعال، ويتم اطلاعه بحصيلة نواياه الحسنة والسيئة، وهو سعيد بذلك، وقبل تركيب أجزاء الأجهزة القارئة للنفس البشرية؛ قمنا بدراسة لمختلف التحولات التي تطرأ على ملامح الوجه، وتحديد عددها، وتصنيفها اعتمادا على طبائع الناس، وتحويلها إلى رموز رقمية، وما يطابقها من الأفعال التي يفكر الانسان في القيام بها، وقد عكستها خطوط وقسمات وجهه، وتمت تعبئة الأجهزة بقاعدة من هذه المعطيات؛ ترصُد تطور شخصية الانسان في مختلف أطوار حياته، هل ينزع هذا التطور إلى الأفضل وهذا حسن ظننا دائما، وإذا راجعنا ما تراكم من قراءات تُبيّن على أن الشخص يميل إلى التطبع بالشر؛ فنعيد حينئذ تقويمه والبحث عن الحلول الناجعة لإعادته إلى الصواب، وتهذيبه، وهذا جعلنا نؤسس علما جديدا كل الجدة، وهو البحث عن وسائل تعيد تكوين طبع الانسان؛ فلا ينبغي حسب القاعدة الأساسية؛ التي ينشأ عليها مجتمع الجزيرة ترك الشخص يتصرف على هواه؛ فيعيث فسادا، وهذا هو خلل المجتمعات الأخرى التي تعيش في فوضى أخلاقية، امتهنت فقط ما هو زجري وعقابي. أما هنا فيتم نهج ما يسمى بالوقاية الخلقية قبل أن يأتي أحد بما لا يُرضي ويقلق أفراد المجتمع. هل يندم الانسان على فعل السوء؟

أجاب جميع الطلبة بنعم.

قال الأستاذ:

– لنحول بينه وبين فعل قبيح يؤدي به إلى التَّهلُكة، قبل أن تجمح به نفسه إلى إزهاق روح، أو إلى هتك عرض، أو إلى سرقة مال الآخرين؛...إلى ...إلى ...؛ فعندما نخرجه من دائرة صفيقة من الحقد والضغينة والبغض والكراهية والحسد والانتقام، ومن سوء تأمره به نفسه، ومن سجن شهواته ونزعاته؛ فيتنسم عندئذ هواء الحرية ويرنو إلى الضياء.

لم يحرك الطلبة ساكنا؛ ظلوا ينصتون إلى الأستاذ باهتمام كبير. ليس العلم بالأشياء هو ما تركهم صامتين؛ لا يطرحون الأسئلة عما ظل غامضا من الدرس. لقد كان الكلام واضحا ولا يحتاج إلى تفسير؛ هو إدراكهم لحرص شديد على حماية الفرد من أن يقع في المحظور؛ فيجني على نفسه بحيث يعيش تعيسا؛ لا يرى من الدنيا غير وجهها المظلم ونوائبها.

فطن الطلبة لشيء آخر اقشعرت له أبدانهم، وعبد الله أيضا لم يتمالك نفسه؛ إذ التفت إلى جاره الطالب محمر الوجه؛ عيناه تشعان بريقا. قال:

– أ ليس يا أخي هذا هو مربط الفرس في مشروع الأستاذ العلامة؟

أجاب الطالب:

– أ لا ترى الطلبة وقد نكسوا رؤوسهم؛ يوارون دموعا امتلأت بها عيونهم؛ فلا يحسب الجميع إلا هذا الذي قلته؟

قال عبدالله:

– ما أكبر قلب هذا العلامة؟

قال الطالب:

– أ في تلك المجتمعات التي تركناها وهاجرناها من يسدي إليك نصيحة؛ تحميك مما أنت واقع فيه؟

قال عبدالله:

– إنهم ينصبون لك هناك المصائد.

يتابع الأستاذ حديثه قائلا:

– وترون إلى أي مدى يمكن أن تُسخّر التكنولوجية في حماية الأفراد من الآفات الاجتماعية، وإبراز علاقات بريئة ومتكافئة تربط فيما بينهم، ودور آخر تلعبه هو الكشف عن النية الحقيقية، ونعني بأن الانسان متقلب الأهواء؛ فهو أشبه بالحرباء؛ سريعا ما يتلون وعن قصد تبعا للمحيط الذي يصله به؛ فهو يغدو بنية حسنة إلى أحد الأمكنة، ويُمسي بأخرى، لأن في علاقاته مع الآخرين ما يتأثر به؛ فالأجهزة تُصحح نيتك التي انسقت إليها، ولا تتركك تائها لا تدري أي سبيل تأخذه. إن صفاء السريرة هو ما ينبغي أن يكون بين الأفراد، فما يُبدي الشخص للآخرين غالبا ما يكون غير ما يُبطن؛ بهدف منافع شخصية.

والأستاذ يعرض هذه الأدوار التي يمكن أن تقوم بها الآلات القارئة للإنسان؛ كان الطلبة ينتظرون بقلق عما سيُكشف عنه من سرائرهم. غادر الأستاذ الركن الذي كان يلقي منه درسه، وقصد جهاز حاسوب موضوع على طاولة. أمر الطلبة بالاقتراب؛ فانصاعوا وتحلقوا حوله. شغل الأستاذ الحاسوب ومرر

صفحات تتقلب عليها نوايا من يقطنون بالجزيرة، وتحمل كل صفحة رقما هو بمثابة هوية الشخص الرقمية؛ فالجهاز يُعيّن أوتوماتيكيا أرقام هوية للكل ويصنفها؛ فعرف الطلبة أن ما قيل ليس مُبالغة، وما عليهم إلى أن يأخذوا الحيطة، ولا ينساقوا وراء نية سيئة؛ فيُصحِّحونها في آخر لحظة فيسلم الناس من الشر.

ليس في الجزيرة ما يُملّ منه أو ما يؤدي إلى السآمة أو الكآبة؛ ففرحة تلقي العلم تعُمّ الجميع وما تصاحبه من طُمأنينة، وفي كل يوم يَطّلع عبدالله على آخر ما أنجزته عبقرية الانسان، إلا أن ما تبادر إلى ذهنه في أحد الأيام، وجعله مهموما، وكان قد فكر في أن يُسِرّ به إلى أحد أساتذته؛ هو: ماذا سيحدث إذا ما وقعت حصيلة استنتاجات الأستاذ العلامة العلمية، وما ابتكر من أجهزة وما طُبّق منها؛ في أيدي أولئك الذين يُسخّرون ما تفتّقت عليه عقول العلماء؛ في غير ما تم التفكير فيه أول الأمر وهو جلب الخير والتطور للبشرية؛ ويُوظّفونه في صنع آلات للتدمير؟

وفي كل يوم يعرف عبدالله المزيد مما اختزُع، ويتقدم في مراحل التعليم، وتتعدد علاقاته مع الأساتذة والطلبة، ويشاركهم أفكارهم ورؤاهم وتصوراتهم، ويزحف إلى مختلف أماكن الجزيرة ومرافقها؛ فذلك هو المعهد العلمي الذي تلقى فيه الدروس النظرية، وتلك هي مخابر التجريب وإخضاع النظريات المصاغة إلى محك الاختبار، وقد وعى بمنهج تدريس وتلقي العلوم النظرية واحتمال تطبيقها؛ فالثوب الذي تُخاط منه ألبسة يرتديها، والإناء الذي يملأ به الماء، والقدر الذي

يتناول به طعامه؛ منتوج تصنعه آلات ذكية، وقد خصص أستاذُهم يوم عطلة لزيارة مصنع للإنتاج الإلكتروني؛ ليس فيه ذلك العدد الكبير للأيدي العاملة؛ فما يتطلب معمل لتصنيع الحاجات اليومية؛ من أدوات وآلات وأردية وأغشية؛ فقط أذرع أوتوماتيكية؛ لا يتعدى عددها ثلاثة؛ تستمد عملية التشكيل الالكتروني من برامج الحاسوب ذات الأبعاد الثلاثية؛ تقوم بعملية خرط لكتل الحديد والبلاستيك والألمنيوم، وتنسج الخِرق بحركات فائقة السرعة وتشكل المئات من الأدوات، وقطع الغيار لوسائل التنقل ونقل البضائع.

تكون لحظة سعادة تلك التي يقف فيها عبدالله على سر ما يشاهد؛ فما يرتكز عليه التصنيع بالتشكيل الإلكتروني هما قاعدتان: أجهزة صغيرة الحجم؛ تتمدد أذرعها الموصولة لاسلكيا بجهاز حاسوب؛ مُعبّأ ببرنامج ذو نظام تتفاعل عناصره تلقائيا.

المادة الخام لكل ذلك هي المعادن المستخرجة من صخور الجزيرة، والمخلوط الكيماوي هو ما يعطي مادة التصنيع، وما يتغذى عليه سكان الجزيرة من خضروات وفواكه ولحوم وبقول؛ هو ما تجود به بساتين وحظائر لها مناخات مجهرية؛ ذات تغيرات دقيقة لحرارة مُتحكم فيها، ومياه تتدفق بمقدار طبقا لجداول حسابية صارمة لا زيادة فيها ولا نقصان.

وعلى الشاطئ منامات للطلبة والأساتذة وباقي السكان، وتزداد أُلفة عبدالله بمكان إقامته يوما بعد يوم؛ فيها ما يُسعده من أصص لنباتات ظليلة وأزهار متفتحة، وخزانة كتب، ومنضدة يحرر عليها دروسه ويدون خواطره وذكرياته. لم

يدر كيف بُني ذلك المأوى؛ فهو دائما يدخل بيتا كباقي البيوت. قال له صديقه محمد:

– أو تدري كيف بُنيت؟

أجاب عبدالله:

– لا أدري غير أن الجُدر لبنات يشدها لحام من أتربة إسمنتية أو جصية.

قال محمد:

– هي بيوت منحوتة.

قال عبدالله مستغربا:

– من كتلة الصخر البركانية؟

قال محمد:

– وبالأذرع الإلكترونية. ما هي إلا عشرات دقائق فيخرط الصخر طبقا لتصميم مبرمج؛ فيتحول الصخر إلى بيت تسكنه؛ إنها من نتائج التكنولوجية الدقيقة المذهلة.

لم ير عبدالله في الجزيرة إلا أنها بساط من العشب، وغابات من أشجار قزمية، وأيكات ودوحات، وبرك من مياه صافية تسبح فيها كائنات بحرية متعددة الأشكال والألوان، وممرات نازلة وأخرى صاعدة، وقناطر ظليلة بالنباتات المتسلقة، والبنايات جزر في هذا البحر الذي يموج بخضرة تمتص جزءا كبيرا من أشعة الشمس فتُعدل من الطقس. يجعل هذا من أبعاد الجزيرة مكانا للاستجمام. أنت ذاهب في طريقك إلى الدرس أو عائد إلى مبيتك؛ وروائح من

زهر الشجر والورود تعبق بها جميع الأمكنة تحُف بك وتُنعشك، ورذاذ من ماء منفوث من أنابيب يغسلك؛ كأنك في غابة مطيرة، وفي كل هذا إعادة لتشكيل السلوك الاجتماعي للجزيرة.

في بعض الليالي؛ وفي وقت يشمل الجزيرة سكون؛ كان عبدالله يمسك بكتاب "ميلاد جزيرة"؛ الذي ألفه الأستاذ العلامة؛ ليقرأه مستحضرا ما شاهدته عيناه في النهار؛ فيربط بين كثير مما هو كائن وقائم من بنايات وحدائق وبساتين ومسالك، وما هو مسطر على الصفحات، ومن بين فصول الكتاب ما شده وأثار إعجابه هو ذلك الذي عُنوِن ب "تموجات نورانية"؛ فما قرأ في هذا الجزء الذي يروي فيه صاحب الكتاب هو كيف اهتدى إلى تصميم الجزيرة بهذا الشكل الذي تبدو عليه الآن:

"أذكر وأنا في سن مبكر ذلك المسرب الذي يؤدي إلى تلك البحيرة الهادئة مياهها. تحيط بها أجمات من العشب والأشجار، وتلك الصباحات التي أتنسم فيها حريتي؛ ويوما لا مدرسة فيه ولا دروس ولا شغب تلاميذ يُضايق. أختلي بما يحيط بي في هذا المكان من خضرة طافحة، وأصوات تُصدرها كائنات حية متنوعة، وحفيف أجنحة لسرب من الطيور يحط بالبحيرة؛ يرتوي من مائها ويتغذى على أسماكها؛ وتغاريد لصغار عصافير لم تبرح بعد أعشاشها المنصوبة بين فروع أيكة، ونقيق الضفادع. أنظر إلى صفحة الماء وأنا بعيد عن شطآن البحار؛ فأتصور أنني على إحداها. أصنع من رؤوس الأغصان مركبا، وأنسج بقطع من ورق الشجر إبري الشكل شراعا، ثم آخذ عودا يابسا، وأُثبت طرفه

الأسفل في المركب وأركب عليه قِلعا؛ صانعا من كل هذا مركبا بسارية وشراع، ثم أضعه على الماء؛ فتهب عليه ريح تدفعه إلى وسط البحيرة؛ مخلفا وراءه موجات في شكل مثلث تتسع قاعدته؛ حتى تتلاشى أحرُفه في مياه البحيرة، وأصنع الثاني والثالث؛ فتنتشر المراكب في البحيرة، ويأخذ كل واحد منها اتجاها مُختلفا، ويرسو بعيدا في إحدى الضفاف، أو على تل غَرِين البحيرة يعلو على مستوى الماء؛ تكسوه حَرجة من نبات السَّمّار كأنه جزيرة نائية. أحلم أنني أُبحر في إحدى هذه المراكب إلى تلك الجزر والسواحل البعيدة؛ أتركها راسية هناك فيُطمرها التراب المبلل، أو تهب على البحيرة رياح تعصف بها فتُغرقها؛ فآسى لنهايتها الأليمة؛ فتظل في ذاكرتي وفي خيالي أنها هناك؛ في ذلك العالم البعيد واللانهائي الذي يذهب إليه الجميع دون عودة. لا أبرح خُلوتي فالبحيرة توفر لي الكثير؛ من القصب أصنع مزمارا، ومن أغصان الأشجار أنحت عصا، وأتفنن في خَرْطِها؛ تشغل يدي طيلة الوقت، ويتحلب فمي بما في أوراق الحُمّاض[1]؛ فأقطفها وأغسلها بماء البحيرة ثم آكلها وأنا أستسيغ حموضتها اللزجة، ثم تتوسط الشمس كبد السماء؛ فتشتد أشعّتُها؛ ترتفع على إثر هذه الحرارة، والمكان هادئ وساكن إلا من تلك الأصوات الذي ذكرتها آنفا؛ أصوات الكائنات الحية للبحيرة، والنباتات تميل بهبات الريح؛ فأجلس على الحافة المتآكلة من القاعدة؛ مُتّكئا على جذع شجرة، ورجلاي تتدليان في الماء؛ تتلقى ساقاي حزمة من أشعة الشمس؛ فيسري فيهما الدفء. ألتقط حصاة ثم أتركها تنزلق من بين أصابعي؛

[1] الحُمّاض: نبات بري ينبت في فصل الربيع؛ تُستساغ حُموضة أوراقه (المؤلف).

فتنزل وتصطدم بالماء محدثة موجة تزحف وتتسع؛ فيكبر محيطها ويكبر حتى تتلاشى في الضفاف. آخذ حصاة أخرى وأرميها؛ فيتموج الماء في دوائر زاحفة؛ دائرة في إثر دائرة مستمتعا بهذا كله ومتأمّلا دوائر تُرسم على صفحة الماء برِقْم[1] بسيط لا اعوجاج فيها؛ إنها الطبيعة الفذة ونظام كوني مثالي. لا ألمس في الدوائر نقصا، وظلت صورتها ماثلة أمامي؛ وأنا أتدرّج في مراحل التعليم، ثم ألتحق بالجامعة فأتساءل: "هل توحي الدوائر المتموجة بفكرة ما قابلة للتنفيذ؟"، وظل السؤال يُطرح بإلحاح، وفي غمرة الأفكار التي تقاطرت علي كشآبيب عندما كنت أحرر مشروعي العلمي؛ وظفت الحصاة كآلة والدوائر الناتجة عن اصطدامها بالماء في وضع تصميم لبنية مدنية الجزيرة؛ لتكون المسالك التي تربط بين معالم البناء في شكل دوائر، وفي مركز المجمع العلمي؛ ليبعث بما ينير به العقول في تموجات؛ فما يُلقن ينتقل في دوائر نورانية إلى جميع جهات الجزيرة ليستنير به الجميع، والكل في إطار نظام كوني دائري".

توقف عبدالله عن القراءة، أو أتى إلى نهاية الفصل. أغلق الكتاب وفرك عينيه، ثم قال: "المجمع العلمي يحتل مركز الدائرة الصغرى؛ تتتالى بعده دوائر تكبر كلما ابتعدت؛ فهي ممرات دائرة يتفرع عنه أكثر من شعاع واحد يذهب في جميع الاتجاهات؛ فهي مسالك طولية تصل بين البنايات والمساكن، ويسلكها الناس وتسافر عبرها المركبات الكهربائية".

---

[1] "(رقم) الكتاب، وعليه، وفيه يرقُم رقما: كتبه (...) ورقم الشيء: نقشه...". (نفس المعجم السابق؛ ص. 380).

تخيل عبدالله الصورة الكاملة للتصميم العام؛ فوعى بأهدافه النبيلة التي خُطّط من أجلها.

الفصل السابع

الجاسوس

لقد عرف الأساتذة ما طُبع عليه عبدالله من أخلاق حسنة، وكرهِه الشديد لكل فعل خبيث ودنيء وضار، ولذلك كثيرا ما يتم تكليفه بالقيام بمهمات تناسب شَخْصه، ففي أحد الأيام أُستُدعي عبدالله من طرف الأستاذ ياسين الذي يشرف على الحاسوب القارئ للبواطن، والباحث في تقنيات مراقبة نيات أفراد مجتمع الجزيرة، وإلى أي اتجاه تنزع، وقد أعلمه بذلك صديقة محمد؛ في وقت كان يتمشى فيه على الشاطئ لهدف ما؛ فقد شاهد أجساما غريبة تظهر مدة من الزمن على سطح البحر وتغوص؛ فاستل قلم الرصاص من غمده الجلدي، ورسم بسرعة وبدقة شكل ما ظهر له؛ على إحدى صفحات المذكرة التي يصحبها معه دائما وأينما حل، وسيحمله إلى أستاذ المركبات المتفاعلة مع محيطها ليحلله ويحدد ماهيته، ولأي غرض تظهر وتختفي، هل هي لنوع أو جنس من الأحياء أم لشيء آخر؟

لم يتحدث به إلى محمد، وأخذ طريقه بدونه إلى المعهد التقني. وجد عبدالله الأستاذ ياسين منهمكا في تسويد بعض الملاحظات على حاسوبه. حيى بعضهما بعضا، ودون أن يرفع الأستاذ رأسه عن الشاشة والأزرار قال:

– إني يا عبدالله في حاجة إلى من يساعدني.

قال عبدالله بحماس:

– أنا مستعد لأقوم بما تأمر به.

قال الأستاذ:

– أريد حصيلة إحصائية بكل النيات الباطنية التي سُجلت طيلة الأعوام الفائتة.

أبدى عبدالله موافقته، وهرع إلى الحاسوب، وبعد أن أمده ياسين بشفرة الولوج إلى قاعدة المعطيات؛ وهو يُبوّب ويُصنّف النيات، ويضبط عددها ومتوسطات ترددها؛ إذ عثر على أخطر ما فيها وهو التجسس. شخص من بين المقيمين بالجزيرة موفد من طرف جماعة، وحُددت مهمة تجسسه وهي نقل ما توصلت إليه معاهد البحث من نتائج علمية قابلة للتطبيق؛ فأول ما قاله عبدالله: "لن يُخلي أحد سبيل العلامة؛ فهو منذ أن أعلن عن مشروعه، وهذا يهدده بالقتل، وذاك يتربص ليُؤذيه، وذلك يحاول سرقة إنجازاته العلمية وابتكاراته التكنولوجية المذهلة التي لا تُقدر بثمن".

نادى عبدالله على الأستاذ، وأطلعه على ما أفضى إليه محرك البحث؛ فذعر الأستاذ وامتقع لونه ولم يصدق، فشغل بنفسه ومن جديد برنامج البحث، فظهر نفس الشيء. نظر الأستاذ إلى تلميذه دون أن يقول شيئا. قال عبدالله:

– هل أُطلق برنامج الكشف عن وجه الجاسوس؟

قال له الأستاذ بحيرة:

– إننا نخجل أمام من لم نكن نحسبه أنه جاسوس. هيا ابدأ العملية.

ولج عبدالله برنامجا رسم عن بعد الخطوط الأولية للوجه؛ فانسابت الأشكال الأولى للأعضاء، ثم اكتملت الصورة بألوان واضحة؛ ليظهر في الأخير وجه

الجاسوس، وحُدد مكان وجوده في تلك اللحظة؛ إنه طالب متخصص بمعهد التكنولوجيا؛ يدرس بشعبة تِقانة الطب.

رفع عبدالله وجهه في أستاذه مُستعدا لتنفيذ ما يُأمر به. قال الأستاذ:

– نخبر الأستاذ العلامة بما اكتشفناه، وبعد ذلك نشرع في التحقيق مع هذا الطالب، وما إذا كان قد سرب فعلا معلومات إلى من أوفده إلى هنا، ولأجل هذا الغرض.

أرسل ياسين إشارة تطلب العلامة للتواصل؛ الذي ظهر على الشاشة في خَلوته يقرأ في كتاب؛ بابتسامته المعهودة. قال:

– أسعد حين أجد الطالب يلازم أستاذه؛ يأخذ عنه ويستزيد، وها أنا ذا لا أراكما إلا في هذا الموقف.

قال له ياسين:

– في الأمر خَطْب.

قال العلامة:

– قد يكون في الخطب ما يُفيد.

قال:

– بين ظُهْرانِنا طالب جاسوس.

قال الأستاذ العلامة:

– ليس هذا بغريب عنا؛ فالجواسيس ينبثون في كل مكان، ونهاية الجاسوس تكون مأساوية في الغالب؛ لأنه هو ومن وكلوه تواطأوا على ما لا يقبله الضمير

الآدمي؛ لأن السطو على ممتلكات الآخرين من مبتكرات وإبداعات سرقة وخيانة وسفالة. أُرصدوا تحركات الطالب وتنقلاته، ولأي هدف يتجسس وكيف ولصالح من؛ لأن في هذا درس يفيد في المستقبل، وفي إصلاح من انجرف إلى القيام بمثل هذا الفعل، أو غُرر به.

واختفى وجه الأستاذ من على الشاشة. قال ياسين لعبدالله:

– أنت من سيرصد تحركات الطالب الجاسوس؛ عن طريق تعقبه في المسافة الجغرافية، أو عن طريق البرنامج الراصد عن بُعد.

حرك عبدالله رأسه بإشارة الامتثال وقام، ثم غادر مكتب الأستاذ في طريقه إلى آخر مكان شوهد فيه الطالب. كان جالسا في صف الطلبة؛ يُنصت باهتمام إلى إحدى المحاضرات. سار عبدالله بحرص شديد بموازاة الحائط؛ كي لا يثير انتباه الطلبة، ولا يُشوّش على المحاضر الدرس. أخذ مكانه في زاوية يُدير من خلالها وجهه؛ ليرى الطالب الجاسوس. كان يبدو عليه آثار هم، وفي عينيه فزع. يتسمع ببرود، ولا يأخذ ما يجري حوله بجدية. هل يتظاهر بالبلادة وبالجهل؟

انتهى الأستاذ من درسه؛ فبرح الطلبة القاعة بالقليل من الهرج. ظل عبدالله يسير وراء الجاسوس. عيناه عليه في كل خُطوة يخطوها، ثم رآه يدلف إلى خزانة الكتب الرقمية، ويجلس إلى حاسوب، ثم أدخل يده في جيبه وأخرج حاملا إلكترونيا صغيرا، وعبأه بمحتوى وغادر. أخذ عبدالله مكانه بسرعة وتفحص تسجيلا لكتاب رقمي نُقل في آخر اللحظات؛ أصدره أحد الأساتذة المتخصصين في تكنولوجية الطب. نقلت العربة الالكترونية الطالب الجاسوس إلى

إحدى حجرات إقامة الطلبة. لم يُخطئ عبدالله طريق الجاسوس؛ كانت عربته تسير وراء تلك التي يركبها الجاسوس؛ التي ما إن توقفت حتى خرج منها ودخل حجرته. ترجل عبدالله من العربة ودار إلى الخلف وثبت بسرعة كاميرا صغيرة على إحدى إطارات نافذة التهوية، وشغل الحاسوب ليرى الجاسوس جالسا يعيد فحص الكتاب، ثم عَبّأ الحامل مرة أخرى وخرج يمشي على قدميه في اتجاه الشاطئ، وقد مالت الشمس إلى الغروب؛ فتعقبه عبدالله غير غافل عنه وعجب له؛ لماذا لم يأخذ من بين قواعد تجسسه احتمال أن يكون مراقبا في تنقلاته؛ فلم ينهج عنصر المراوغة وتغيير اتجاه سيره للتضليل والاستخفاء.

كانت الجزيرة قد غرقت في الظلام، وكاد الجاسوس أن يختفي عن أنظار عبدالله في طريق ملتو وهابط بين صخور الشاطئ، وبين أجمة من الأشجار والأعشاب ونخيل الجوز. لم يطرُق عبدالله قط هذا المكان؛ فهو بعيد جدا عن المركز. كان تمتد الرمال في مساحة صغيرة؛ تحف بها أجراف صخرية. فجأة اختفى الجاسوس كأن مغارة منحوتة في الجُدر الصخرية ابتلعته. إذا كان ما فعله هو مراوغة قام بها في آخر لحظة؛ فهو بارع في مهمته. كاد عبدالله أن يُجن؛ فبعد مسيرة تعقب طويلة يختفي الجاسوس؛ فتبقى الكيفية التي يعمل بها غامضة، وهو في حيرة أ يتقدم ليبحث عنه؛ أو يعود أدراجه خاوي الوفاض؛ إذ سمع صوت مراوح تجلد الريح ولا يسمع لها هدير؛ فراح يتلفت حواليه؛ فرأى طائرة لها هيكل خفيف وشفاف؛ لها ركيزتان هبطت بهما على ماء البحر. رسم عبدالله شكلها في مذكرته، وما زالت تنزلق على الماء حتى ضربت بمقدمتي الدعامتين في رمال

الشاطئ. شاهد عبدالله شبحا يسير نحوها؛ لم يكن ذلك غير الطالب الجاسوس؛ أعطى شيئا لقائد الطائرة الذي لم ينتظر ولا تَحرّى؛ فأقلعت طائرته بسكون كالفراشة لا يُسمع لها صوت، أو كأنها من ضباب البحر أو من ظلام الليل؛ كأنها كائن أو هي في الخيال غير كائن.

اختفى مرة أخرى الجاسوس؛ فلم يدر عبدالله مسلك عودته، وتوجه إلى البقعة من الشاطئ التي هبطت عليها الطائرة؛ لم يجد على الرمال غير آثار أقدام الجاسوس؛ تتبعها فأوغلته في دغل من الحشائش والأغصان المتشابكة؛ لم تمسك من الوطء آثارا؛ فرجع عبدالله إلى حجرته وشغل الحاسوب وبعث بتقرير إلى أستاذه؛ ذكر فيه تفاصيل تهريب الجاسوس لكتاب قيم من كتب تكنولوجية الطب. ختمه بهذه الفقرة: "هل هو كتاب واحد استطاع الجاسوس أن يكتشف قيمته العلمية، وأن يسرقه ويعطيه لأحد نقله إلى خارج الجزيرة، أم هناك كتب أخرى؟ إذا كنا في حاجة إلى معرفة أكثر من كتاب تم تهريبه، والمزيد عن هذا الجاسوس فلا بد من تفتيش حجرته". كان هذا ما استنتجه عبدالله في رحلة تعقب الطالب الجاسوس.

في الغد وجد عبدالله الجاسوس طالبا مجدا؛ لا يُفوّت عليه وقت حضور المحاضرات، والإسراع إلى المكتبة الرقمية ليُحمّل ما استجد من بحوث وتقارير علمية؛ يحتفظ بها دون ريب إلى حين نقلها إلى قائد الطائرة الشبح. قال عبدالله في نفسه: "فما أسرع وسائل تحميل الكتب، ونقلها إلى الخارج!". سار عبدالله

بخطى سريعة في طريقه إلى مكتب أستاذه ياسين الذي كان حيث يجده دائما يحرر التقارير العلمية ويحلل المسائل الرياضية. حياه عبدالله، ثم قال:

– هل اطلعت على التقرير الذي بعثت به إليك؟

قال الأستاذ:

– نعم، وقد توصلت منذ قليل بموافقة علاّمتنا على اقتراحك باقتحام حجرة الجاسوس. أين هو الآن؟

أجاب عبدالله:

– إنه بين طلبة الفصل الدراسي، ويَختلف من حين لآخر إلى المكتبة الرقمية؛ لعله يجد كتابا آخر ذي قيمة علمية يشحنه في إحدى مغامراته.

قال الأستاذ:

– أسْرِع إلى حجرته، واحمل ما تراه يُثبت الحجة، وحمّل تسجيلات حاسوبه.

في الحجرة عثر عبدالله على أوراق كُتبت بخط اليد، لقصة تُسرد بضمير المخاطب. تأبطها عبدالله، ثم شغل الحاسوب الذي لم يكن الدخول إلى محتوياته مشروطا بأي رمز؛ فاستغرب؛ إن دل هذا على شيء؛ فإنما يدل على أنه ليس بالذاكرة المركزية ما يُخاف عليه، وأن الجاسوس لا يُعير اهتماما لما هو محفوظ إلكترونيا. حمَّل عبدالله بقرص تحميل خارجي كل ما عثر عليه من برامج، وما هو موثق ومسجل من كتب وتقارير أو ملفات، ثم غادر المكان بسرعة مُتجها إلى أستاذه. أطلعه على الأوراق قائلا:

– لم أجد شيئا ذا بال غير هذه الأوراق. إنها بخط يده. نص سردي بضمير المخاطب.

تصفح ياسين الأوراق قائلا:

– سنعرف مضمونه بعد قراءته طبعا، وماذا عن محتويات الحاسوب؟

أوصل عبدالله قرص التحميل الخارجي بالحاسوب، وانهمك هو وأُستاذه في تحديد نوع البرامج القارئة والمعالجة للملفات. وجدا نوعين جد متقدمين؛ واحد للقراءة السريعة والآخر لتحويل خط الكتاب الأصلي إلى خط آخر مبهم. قال ياسين:

– يبقى الكتاب محملا بهذا الشكل من الخطوط؛ حتى يتم تحويله إلى خط مقروء في أحد المراكز خارج الجزيرة.

بحثا طويلا فوجدا أخيرا الكتاب بحروفه الأصلية، وبدءا يقرءانه. ما ظهر لهما على الشاشة كان مضطربا؛ جمل تُؤخر وأخرى تُقدم بدون علامات الترقيم[1]؛ تحتاج إلى تحقيق أبدي، وعبثت يد أحد بالمعاملات الحسابية والرياضية؛ فما كان جمعا طُرِح، وما كان مقسوما ضُرب، وما كان مبسوطا أصبح مقاما، وما كان مكسورا جُذر، فلم يفهما من مضمون الكتاب شيئا، وكذلك فُعل بباقي الكتب المحملة؛ كان هذا فعلا عملية طمس غريبة لما صيغ من نظريات.

نظر التلميذ إلى أستاذه نظرة استغراب، ثم سأل:

---

[1] "الترقيم في اللغة العربية هو وضع رموز اصطلاحية بين الكلمات أو الجمل أثناء الكتابة" (www.diwanalarab.com)، ومنها الفاصلة (،) والفاصلة المنقوطة (؛) والنقطة (.) والنقطتان (.)... وغيرها من الرموز.

– هل يعني هذا شيئا؟

أجاب الأستاذ:

– إنه فعل متعمد ولكن لأي هدف؟ وجميع الكتب مسجلة بشكل نهائي ومهيأة للتحميل، ولا أحد يستطيع تحقيقها وإن أوتي الكثير من علم التحقيق وتجاربه، وإعادتها إلى هيئتها كما صاغها مؤلفها. إنه فعلا جاسوس غريب الأطوار. أ لا يكون مختل العقل؟

أجاب عبد الله:

– لقد راقبته طويلا لا يبدو أنه فاقده.

قال الأستاذ:

– لن يزودنا تصفح هذه المحتويات المضطربة بشيء ذي فائدة؛ إنها متاهة لا مخرجا لنا منها. هلم بنا إلى ما كتب على الورق. اقرأ وبتريث؛ فوراء الكلمات والجمل والفقرات حالات نفسية؛ إذا تعرفنا عليها فقد تقودنا إلى ما كان يهدف إليه الجاسوس.

أمسك عبدالله بالأوراق وبدأ يقرأ، ولم يجد صعوبة في ذلك لأنها كانت بخط واضح وبترقيم صحيح:

"كان ميلادك يا هذا في ذلك اليوم، ومن ذلك الشهر، ومن تلك السنة؛ فبلغت من العمر الآن عشرين عاما. قبل ذلك الزمن بست سنوات مات أبوك، وليس من مدخراتكما؛ أنت وأمك غير كيس حبوب وشظايا سكر، وعلبة من صفائح الحديد بها حبوب من الشاي؛ تزين برسوماتها الصينية ركن بيتكم

القصديري الذي تداعى، ولحاف وفراش من صوف خشِن وثَلِم. تأكلان مما تكسبه أمك من العمل كخادمة في بيوت الأثرياء. كانت توصلك إلى باب المدرسة وقد أحكمت نطاق سروالك، وثبتت على ظهرك محفظتك؛ مشجعة إياك على الانتباه إلى ما يُلقيه معلمُك على مسامعك من تفاصيل الدرس؛ فكنت تلميذا مُجدا ونجيبا. لم تصادف صعوبة في استيعابك للدروس؛ فاجتزت مراحل التعليم بثقة وبتفوق على الأقران، وفي فصول الجامعة رحبت بك الأمكنة، وامتدت أمامك آفاق التحصيل العلمي؛ فما زلت تنهل لا يشفي غليلك قليل أو كثير، وصرت نهبا لعيون المعجبين والحاسدين، وتناقل أخبارك الأساتذة والطلبة؛ فذاع صيتك وتعددت لك النبوءات بمستقبل زاهر ومجيد؛ فأتى طبعا ذلك اليوم الذي نودي فيه عليك من بعيد: يا من يختلي بالكتاب؛ أنت أيها المنزوي؛ أستاذك يريدك في أمر هام. كنت غارقا في قراءتك الواعية لأحد المجلدات؛ فسألت: أنا من تريد أيها الأخ الكريم؟ أجاب ذلك المنادي: نعم؛ سر إلى قاعة وحدة البحث في تكنولوجية الطب؛ فالأستاذ في انتظارك. قمتَ ومشيت، ثم دلفت إلى داخل القاعة؛ فبادرك الأستاذ قائلا: إننا ألحقناك مستشارا في البحث العلمي بأحد مكاتب الدراسات التكنولوجية، فلم تمتنع بل أبديت استعدادا لأنك ستتقاضى أول أجر وستستمتع بأجورك القادمة، ونقلت خبر عملك إلى والدتك التي لم تشتك يوما من عملها المنهك، ومعاناتها كانت في قلة الأجر وضيق ذات اليد، ومتطلبات العيش وتكاليف تعليمك. لم يكن الأستاذ يعرف غير أنك أهل لذلك العمل. كان قد بعث المجلس الإداري لذلك

المكتب بطلبه إلى أستاذك الذي قام بما تملي عليه مسؤوليته كأستاذ ومؤطر، ولم يعرف زملاؤك وأصدقاؤك المهمة التي ستُناط بك في ذلك المكتب. مَثُلت يوما أمام ثلاثة رجال ليسوا كباقي الرجال. لا يأتمرون بأمر ولا يخضعون لسلطان؛ بل لا قوة فوق قوتهم؛ فهم سادة أنفسهم؛ بعقولهم ودهائهم ومكرهم، وبأموالهم الطائلة، إنهم مدراء لشركاتهم العابرة للقارات، وهم من يُمسكون بخيوط دمى المخططين للسياسة العامة. كانت أوامرهم صريحة. أنت طالب باحث، وذو عبقرية، ولكنك فقير، وبعلمك الفذ تستطيع أن تجني المال الكثير، وهم أرباب شركات تروج منتوجات صناعية في تكنولوجية طب البشر، وتسعى بلهاث وراء آخر ما صيغ من أفكار ونظريات قابلة للتطبيق، وما ابتكر في عالم الصناعات الدقيقة. خاطبك أحدهم قائلا: "هنالك بعيدا ما وراء البحار الجنوبية بلاد؛ أرسى فيها العلامة صاحب المشروع العلمي الشامل دعائم لمدنية العلم والعلماء. ستحملك في جنح الظلام طائرة كأنها من زرقة السماء والسحب؛ إلى أحد شطآن الجزيرة، وتندس بين طلبة المعاهد؛ لتحمل إلينا ما استجد فيها من علم، وما تراه نافعا لنا في جني الأموال من طرف مؤسساتنا الصناعية"، وتلا آخر بنود الاتفاق، ودُفع إليك بالعقد وبمبلغ كبير من المال؛ فوقعت في الحين، واستعددت للمغامرة التي لم تتكهن بنهايتها، ولم تحسب لها حساب، وقد دخلت إلى نفق لا يُفضي بك إلا إلى المجهول، ويوم وطئت فيه قدماك أرض الجزيرة، واختلطت بأفراد مجتمعها؛ وجدت شيئا آخر لم تكن تتصوره؛ فتصرفت بغير ما عاهدت به أولئك العُتاة؛ لأنك استحييت أن تَخْذِل؛ فهؤلاء من تربوا في كنف الأستاذ

العلامة، ولازموه طويلا، وتتلمذوا في مدرسته؛ بذرهم بذورا وأينعوا حتى صاروا ذرات منه، آووك وآثروك عن أنفسهم، وتعلمت أنت المتيم علومهم؛ فأقسمت أن لا تخون مجتمعهم؛ فتسلحت بذكائك وعلمك، ولم تكن ما تُحمّله من كتب وتقارير إلى أولئك الانتهازيين غير الغموض، وتتذرع بأن تقول لهم بأن برامج حواسيبهم قديمة؛ فلم تتمكن من قراءة المحمل. كيف؟ فما وُهبت يا هذا من ذكاء، وما اكتسبت من مهارات وخبرة في تحليل الصيغ الرياضية والفيزيائية، وأوتيت ذاكرة قوية، وما تلقيته من قواعد علمية كثيرة؛ أهلك لتبتكر برامجا وفيروسات مدمرة؛ فلم تتردد فأرفقتها بذلك المُحمّل تحول دون قراءته؛ فما أعظم ما أقدمت عليه من فعل، وما أخطر ما قمت به في نفس الوقت؛ فإن فيه تلاعبا واستخفافا ومخاتلة؛ لم تنقل أي شيء إلى أولئك مما رغبوا فيه من مبتكرات جديدة؛ مقابل ما أنقدوك من مال. يوم يكتشفون انقلابك عليهم سيتجرعون مرارة الخسران والغدر. ما يحزنك الآن وما يجعلك تتصرف ببلاهة هو أنهم أسن من الجميع؛ فلا تنتظر منهم غير فعل سوء؛ فلن يترددوا في قتلك. ستحاول أن تُقنعهم بأن لا تُطلع أحدا على ما استدرجوك إليه؛ مقابل أن يتركونك وشأنك فتعود إلى أمك بدون أذى. إن ما تقوله الآن لا يفهم منه إلا أنك تورطت فيما لا تُحمد عقباه، وغرقت في فعل دنيء من قمة رأسك إلى أخمص قدميك، وأن الرجوع إلى الوراء مستحيل كما يستحيل أن يتحرك الميت؛ فعم الخوف كيانك. إنك لا تفكر الآن في غير نهايتك، وما يزال أمل يخفف عنك بعض ما ألم بك من تعاسة؛ عندما تسأل نفسك: هل ألتمس مساعدة

من الأستاذ العلامة؟ فقد خدمتُ أهل الجزيرة ولم أسرب مما أنجزوه. أعاقك الاستحياء والحرج؛ عن أن تُطلعهم على ما وافقت عليه في البداية وما فعلت. هل هي خدمة تستحق التنويه، أم هم في غنى عنها؟".

انتهى عبدالله من القراءة وقال:

– لقد توقف الكاتب عند هذا السؤال.

قال الأستاذ ياسين:

– لم يستقر بعد على ما سيفعله؛ فيكون جوابا على سؤاله الأخير.

قال عبدالله:

– إنه متردد.

قال الأستاذ:

– نعم، وما يتوجب علينا الآن هو حماية الطالب من أي بأس قد يتعرض له من طرف أولئك الجبابرة. تُرى هل للأستاذ العلامة رأي سديد في هذا الموقف العويص؟ صور هذا الأوراق وابعث بها إليه، ثم ذيلها بطلب الحل الذي يراه.

قام عبد الله بما أُمر.

مكث كل واحد بمكانه، ينظران معا إلى شاشة الحاسوب؛ مُنتظِرِيْن رد الأستاذ العلامة.

بعد ربع ساعة رُقنت على الشاشة فقرة واحدة مختصرة؛ جاء فيها: "أما وقد فعل الطالب عكس ما انتُدب من أجله، وبثّنا ندمه على ما عاهد أولئك واستجارنا؛ فإن من أوجب ما نقوم به من أجله هو حمايته من أي مكروه، وإن

تطلب البقاء على حياته الكثير فلن نتردد في افتدائه؛ فلا تتأخرا في التفكير في الكيفية التي نستطيع بها تخليصه من هيمنة أولئك الرجال الجشعين".

ظل ياسين ينظر إلى عبدالله حينا من الوقت؛ يُردّد ذهنُه ما بعث به إليهما العلامة من رد سريع؛ فمن خلاله استقى الوسيلة التي يمكن أن يحمي بها الطالب، فقال:

– إن العالِم مستعد للحفاظ على حياة الطالب؛ بأي وسيلة متاحة لديه؛ فقد يحمي النفس بما هو أثمن.

قال عبدالله:

– أثمن ما يملك العلامة؛ مثلا؟

لم يجب الأستاذ ياسين، وطفق يذرع الحجرة مفكرا جيئة وذهابا. قال أخيرا:

– لا يملك من متاع الدنيا شيئا غير علمه ومخترعاته.

جحظت عينا عبدالله وقال:

– أ تريد أن تقول قد يُعاوض أولئك بإحدى المبتكرات؟

قال ياسين بدون تردد:

– كأن العلامة سيحيي نفسا. أ ليس في كلام الطالب إحساس باليأس وأن نهايته وشيكة، أو هو قد مات فعلا؟ ابعث برسالة الآن إلى الأستاذ حول ما إذا كان يرى في منح حق تسويق إحدى مخترعاته كمقابل.

نفذ عبدالله ما أُمر به، وانتظرا، وجاء الجواب الآتي: "لا نمنح أولئك غير ابتكار فيه منفعة وخير للبشرية؛ فلا أرى في الكتاب الذي يبين كيفية تركيب روبوتات

مسح المناطق المزروعة بالألغام، وتحديد أماكن هذه الأخيرة وإبطالها؛ غير المقابل المناسب والمتاح لنا، وفي هذا تحسيس بما يمكنه أن يلعبه العلم من سلام بين الشعوب والأمم".

لم تبد الحسرة في كلام الأستاذ العلامة؛ على منح حق التصرف في أحد إبداعاته العلمية؛ فالذي حزن على ذلك كان ياسين وعبدالله، لقد أعطى مما جد فيه وكد وفاء لمبادئه.

قال عبدالله:

– ما كان ينبغي للأستاذ العلامة أن يعطي أكثر وإلى من لا يستحق.

قال الأستاذ ياسين:

– إنه قدوة؛ فهو يريد أن يسن ما فيه خير للبشرية، وهذا الابتكار غير قابل للتحويل لأهداف أخرى، وفيه ما يُزعزع كيانات أولئك الرجال؛ فيعودون إلى صوابهم، وستعلم الأجيال بذلك.

قال عبدالله:

– ما دام هدفنا الأول والآن هو حياة الطالب؛ فلابد أن نُسرع في وضع خطة؛ فقد تجري الرياح بما لم يكن في الحسبان.

قال الأستاذ ياسين:

– هل نبلغ الطالب بما نخطط له، أم نعين حراسا يحمونه في طريق ذهابه وإيابه؟ اذهب وتفقَّدْه. الأرجح أن يعلم عاجلا بما يفعله الأستاذ العلامة من أجله.

جرى عبدالله ومد عنقه باحثا بين جمع الطلبة الغفير عن الطالب، وقلبه معلق بالنتيجة التي لا بد أن تكون إلا تلك التي يرمون إليها جميعا.

لم يجد الطالب؛ ليس من عادته أن يتأخر أو يغيب. امتقع لون وجهه، ودق قلبه بشدة. هل يكون قد فات الأوان؟

قصد منامة الطلبة راكبا العربة المستجيبة دائما، وقام بعملية مسح بصري على الأزقة والممرات؛ كانت خاوية وأشبه بحي أشباح. اتجه إلى الحجرة التي يقيم فيها الطالب. وجد الباب مواربا فدفعه ودخل؛ كان المكان خاليا. أسرع إلى الحاسوب وشغله؛ كان قَفْرا؛ مُحيت معطياته وبرامجه بالكامل، ثم انتقل إلى المكتب. كانت تحتل وسطه ورقة مكرشة؛ ما كُتب عليها: "سيُساق بي إلى جزيرة تبعد بأربعة أميال، وفي بيت خشبي في مصيف شاطئ، سيطلبون مني كل ما تعسر عليهم قراءته من الكتب التي هربتها إليهم. سأُماطل وأتذرَّع حتى يأتي من يُنجدني؛ فإذا لم يكن فأبلغوا خبر نهايتي إلى والدتي".

اغتاظ عبدالله وانفعل كثيرا؛ فهو ملوم الآن أكثر من أي وقت آخر؛ لأنه وصل مُتأخرا. لقد تطورت الأحداث في غير ما فكر فيه هو وياسين. فماذا عساه أن يفعل؟ دس الورقة في جيبه وطار ذهنه هنالك إلى أستاذه. لم ينتبه إلى المسافة وإلى الطريق؛ إلا وهو واقف وأسيف يُظهر رسالة النجدة إلى الأستاذ ياسين؛ الذي قال بعد أن انتهى من قراءتها:

– سنُغيثه مهما كلفنا ذلك من مجهود. أول ما نحتاج إليه خريطة تُبين لنا موقع جزيرة تبعد بعدد الأميال التي ذكرها الطالب. ذلك هو الممر سر فيه وانعطف

يسارا، ستجد قاعة الخرائط؛ فتش عن واحدة بمقياس 1/500.000 تُعطينا لمحة عامة عن طبيعة تضاريسها، وهل هي منيعة الشواطئ؟

جيء بالخريطة وبُسطت. قاس الأستاذ ياسين —وعبدالله يتابع باهتمام— المسافة على الخريطة بالسنتميتر، وقام بعملية ضرب وقسمة؛ لينغرز سن القلم في جزيرة. قال ياسين:

– إنها جزيرة مهجورة. كان بها مهبط للطائرات الحربية في زمن الحرب العالمية الثانية، وليس بها الآن غير ذلك البيت المبني بحجارة محلية، والمسقوف بقطع من الخشب. كان يسكن فيه الحارس العسكري، وليس بيت مصيف كما كان يهذي ذلك الطالب؛ شواطئها منيعة اللهم هذا الخليج الصغير الذي تظهر منه مساحة رملية عندما يتراجع البحر، فلا يُستبعد أن يكون قد نُقل إليه الطالب المخطوف. هل من وسيلة نقل سريعة للذهاب إلى هناك؟

قال عبدالله:

– أذكر أن الأستاذ العلامة حثنا على المضي في بناء وسائل نقل استكشافية.

قال الأستاذ:

– ذلك ما وجدتني أفكر فيه الآن، والوسيلة المناسبة هي المركبة الطائرة، لقد انتهى طلبة المعهد التقني من تصميمها، وهي الآن جاهزة لمثل هذه المهمات.

سار عبدالله يسترشد الطريق بأستاذه الذي كان يخطو بعجلة، وقد سيطر عليه هم العودة بالطالب سالما، دلفا إلى مرأب عالي السقف وواسع الأرجاء. وقف

عبدالله زمنا غير قليل ينظر مأخوذا إلى أربع وسائل نقل ماثلة أمامه وليست واحدة.

تقدم الأستاذ قائلا:

– هذه المركبة الطائرة وتلك غواصة تتسع لأربعة أشخاص، وما بعدها هناك مركب الخلايا الشمسية، وطائرة شراعية يُتحكّم فيها عن بعد. هذه المركبات تمثل سرا من أسرار مشروع الأستاذ العلامة، وأحد أسباب رفض المشروع، والقصة تعرفها؛ فابتكارها استند على قاعدتين أساسيتين: البساطة في التركيب ولكن بتكنولوجية دقيقة وحساسة، ثم المصدر الوحيد لطاقة تشغيلها وهي الأشعة الصادرة عن الشمس؛ إما بتركيزها أو باقتباس حرارتها من الأجواء المحيطة، واختزانها لليل، ونحن على متن إحداها؛ سأشرح لك كيف تعمل بمحركاتها الدافعة.

لم يتأخرا فخطا الأستاذ ومشى خلفه عبدالله. تمدد أمامهما سلم أوتوماتيكيا بثلاثة أدراج، وفُتح باب؛ ففاحت من الداخل أجواء عطرة، وبدا لهما أربعة كراس وثيرة من الجلد الطبيعي. جلسا على اثنين منهما مواجهين للوحة تحكم مليئة بأزرار تشغيل وتسيير المركبة. رُفع السلم، وغُلق الباب؛ فتحركت المركبة تلقائيا؛ لا يسمع لها هدير، ولا تُحدث اهتزازا. ارتفعت من الأرض؛ تصدر حفيفا، ولما كانت خارج المرْأَب تلقت ضوء الشمس؛ فغدت تستمد منه الطاقة. لم يتطلب تسييرها حركات عضلية؛ ظهرت على شاشة خريطة إلكترونية؛ اختار الأستاذ المكان الذي يقصدانه؛ فتتابعت الإحداثيات ليُشار إلى موقع الجزيرة:

35 درجة و60 ثانية عرضا جنوب خط الاستواء، و18 درجة طولا غرب خط كرينيتش؛ فارتفعت المركبة بقوة دفع عمودية، ثم تقدمت إلى الأمام بقوة دفع أفقية محلقة بسرعة. قال الأستاذ مُفسّرا الحركة الذاتية للمركبة:

– للمركبة أنبوب عريض له أغشية شفافة؛ بمقدمة ناتئة نسبيا تجعلها تنساب وتخفف من قوة دفع الهواء العكسية. رُكّبت على الغشاء الداخلي المقوس صفائح الألمنيوم؛ تعكس الأشعة على قضيب يتوسط الأنبوب؛ يمتص لونه الأسود الحرارة، فيصدر سخونة؛ فيتمدد الهواء داخل الأنبوب، فيجعل المركبة أخف وزنا، فبمجرد ما تشرع المروحة العمودية بالدوران ترتفع، وكذلك المروحتان الأفقيتان؛ فتتحرك المركبة إلى الأمام. محركات المراوح تُشغّل ببطاريات مشحونة بالطاقة المستمدة من أشعة الشمس، وباقي الحركات الميكانيكية للسلم والأبواب أيضا، وشيء آخر؛ فالسلم يتمدد ويُفتح لشخص تَمّت برمجة شكل ولون عينيه وبؤبؤتيهما؛ فبمجرد ما مثلنا أمام المركبة احتضتنا بحفاوة؛ فالمركبة نظام محكم ومعقد من التوصيلات الكهربائية الحساسة، وأنابيب وصفائح مصنوعة من مواد معدنية تتأثر بما يحيط بها بحاسة إلكترونية، وبنظام سبر لمورفولوجيا الأرض؛ يحول دون اصطدامها بأي جسم صخري؛ يجعلها كل هذا تسافر ليلا ونهارا وبدون توقف لمئات الكيلومترات، وببرمجة عالية الدقة، وسترى دليل ما أقول. ما عليك الآن إلا أن تنظر إلى الشاشة التي تُظهر ما بأسفلنا.

نظر عبدالله وعجب لما رأى؛ إنها الجزيرة، وكانت المركبة قد توقفت في أجوائها، وتستعد للهبوط على سطحها بثبات وبمهل. ترجلا وذهبا في طريق أوصلهما إلى

البيت الوحيد بالجزيرة؛ تضرب الأمواج في دعائمه الخشبية. غير بعيد رسا قارب مطاطي بمحرك يدوي، وهما يتقصيان المكان إذ برز رجل عُتُلّ ومسلح. رفع صوته آمرا:

– مكانكما أيها الغريبان.

قال الأستاذ ياسين:

– هل للجزيرة مالك أيها الرجل حتى نلزم مكاننا، وكما ترى لا نحمل سلاحا؟

قال الرجل:

– ما مجيئكما إلى هنا والجزيرة مهجورة؟

قال الأستاذ:

– هل في داخل ذلك الكوخ من نكلمه في أمر هام؟

دخل، ثم خرج يتقدمه آخر بوجه أصفر جاف؛ لا تسري فيه دماء. قال عاقدا ما بين حاجبيه الكثين:

– ماذا تريدان أيها السيدان؟

– قال الأستاذ:

– أنا أستاذ من البلاد التي ستعرفها، وهذا تلميذي. أولا لم نأت لنخوض معكم مصارعة بدنية أو معركة بالأسلحة؛ بدافع لعب أدوار بطولات سنيمائية كاذبة. جئنا لنبادلك.

قال الرجل المعقود الحاجبين متجاهلا:

– فيما وبماذا؟

قال الأستاذ:

– تحتجزون أحدا كنتم قد انتدبتموه جاسوسا ليهرب إليكم كتبا في تكنولوجيا الطب من مكتبتنا الرقمية، ولما أُلغز عليكم ما حمَّله اختطفتموه، ولا ندري ما أنتم فاعلون به الآن، ولا ينفعكم هذا في أي شيء.

قال الرجل بغضب:

– إذا فقد افتضح أمرنا.

قال الأستاذ:

– وفيه ما يُسئ إلى سمعتكم إذا كنتم حريصين عليها.

قال الرجل باستسلام:

– يظهر من كلامك أنك تريد استرجاعه.

قال الأستاذ بثقة:

– ولن أبرح المكان حتى يكون برفقتي.

قال الرجل وقد انفرجت أساريره:

– بماذا تُبادلنا فيه؟

قال ياسين مُستدْرِجا الرجل إلى الصفقة:

– مُحمّل من كتاب في تكنولوجيا روبوتات؛ تُحدّد مواقع الألغام في العالم، وتُبطلها عن بعد؛ عبر مسافة قد تصل إلى مئات الأميال. عملية عابرة للقارات.

قال الرجل بيأس:

– وهذا فيه منفعة للعالم.

قال الأستاذ:

– ها أنت ترى أننا لم نأت إلا لما فيه خير لك ولنا وللناس.

قال الرجل سائلا:

– هل هو رأي أستاذكم العلامة؟

أجاب الأستاذ ياسين:

– ولا يعرف إلا أنك انتهازي، ويدعوك إلى الروية وتغليب الضمير.

قال الرجل:

– ما أعظم علامتكم!

ثم نادى على أحد كان بالداخل ظهر مُشمّرا على ساعديه. أمره قائلا:

– أُتْركه يرحل.

أعطى الأستاذ ياسين حاملا إلكترونيا إلى الرجل، وقال:

– لقد منحك أستاذنا العالم حق تسويق هذا الابتكار مقابل الإبقاء على حياة الطالب.

قال الرجل بصرامة:

– كنا سنقتله بعد أن يُطلعنا على كل شيء؛ لأنه تلاعب بعقولنا كأننا أغرار.

قال الأستاذ بغضب:

– طغت من قبلكم أقوام وبغت.

قال الرجل:

– ما أكبر قلوبكم. أَ وَ أشُدّ على يدك أيها الأستاذ تحية؟

قال الأستاذ:

– لا أمانع، وسنرى أ هي تحية صادق ذو مروءة، أم تحية داهية؟

قال الرجل:

– ما كنت أحسب أن أساتذة العلم يُجيدون فن السياسة. كيف لا أكون صادقا وقد حصلنا على ما نريد.

قال ياسين:

– نتعاطى للسياسة إلا بمقدار ما فيه نفع للناس، وعسى أن يكون فيما مُنح درس لك ولأمثالك.

تصافحت يداهما، كانت ابتسامة الرجل ثقيلة، والأستاذ لم يتردد ليُحيّي، وقد نظر كل واحد منهما في عين الآخر، وكانت لا تزال الشكوك تساور الأستاذ، ويسأل في نفسه: "هل سيفي الرجل بوعده فلا يتعرض للطالب مرة أخرى".

غادر الأستاذ وصاحباه الجزيرة على متن المركبة؛ التي لم يفطن أولئك الرجال لوجودها.

كان الطالب المسترجع يذوب استحياء، وكان الأستاذ ياسين وعبدالله يعرفان ما مدى تأنيب الضمير له، ومدى ندمه على الموافقة على التجسس لصالح فئة من الناس؛ همها الوحيد هو جني المال بأية وسيلة؛ كالسطو على ما تفتّقت عليه عقول العلماء من إبداعات واختراعات. ما كان له وهو طالب علم مشهود له بالعبقرية والأخلاق الحسنة؛ أن يُجاري[1] أمثال هؤلاء.

---

[1] جاراه في عمله: سايره.

وإن لم يؤاخذ من طرف أي أحد؛ فما تغيرت معاملات زملائه من الطلبة له، وقد وصلهم خبر قصة مغامراته في التجسس، ولم ينفع ما أظهروه له من الحفاوة، وما يكفي لجلبه إلى صفوفهم من جديد؛ فبدا عليه أثر ما سبق. انطوى على نفسه، وغالبا ما كان يُشاهد وهو يسير وحيدا شارد الذهن على شاطئ البحر.

قال محمد يوما لعبدالله:

– هل هو الحنين إلى الأم وإلى القرية مسقط الرأس؟

قال عبدالله:

– أرى أن الشخص الذي باستطاعته أن يُعيد الطالب إلى حالته الأولى...

قاطعه محمد سائلا:

– من؟

أجاب عبدالله:

– الأستاذ العلامة.

فاستُدعي الطالب من طرف الأستاذ العلامة في خُلوة هادئة، وهي مكان ظليلة تحُف بها أشجار أجمة؛ ولا يعكر صفوها أي شيء.

قال له:

– لقد أبليت بلاء حسنا؛ كنت مُلهِم الجميع؛ ولقنت أولئك درسا. ستزور والدتَك، وأبلغها سلامي، وقل لها إن الأستاذ يطلب منك أن تدْعي له وأنت في سجودك خاشعة.

كان الطالب باركا في جلسته، مُطأطأ الرأس ومُنصتا؛ فلما سمع آخر ما فاه به الأستاذ العلامة؛ رفع رأسه ونظر في وجهه؛ لم ير غير ابتسامة طافحة، ووضاءة تدل على الصفاء والطمأنينة، وشُعيرات شيباء تموج وسط أخرى سوداء. قال:

– سأسافر في الحال لزيارتها وأقرئ لها سلامك، ثم أعود.

قال له الأستاذ العلامة:

– رافقتك السلامة، ورُم رُفقة طيبة في سفرك، ولا تزغ عن مرماك؛ فتكون من الواصلين.

قام الطالب وولى وجهه إلى الجهة التي تقيم فيها قريتُه؛ مستحضرا شخصه عندما كان ذلك الطالب الذي لا يعرف من الدنيا غير كتبه وفصله وأساتذته؛ فسَعِد، وشدَّ بيده وبحرارة على أيدي الأستاذ ياسين وعبدالله ومحمد. أشاروا له إلى هناك غير بعيد عنهم؛ فقد كانت المركبة الطائرة رابضة تنتظر صعوده لتنقله إلى قارة غير نائية، وليسير في برّ يوجد بعده البيت الذي شهد مولده.

الفصل الثامن

صناعة الإنسان

ينزل المطر؛ يكون وابلا في بعض الأحيان؛ فتجري مياهه على الأرض سيولا جارفة. تكشف عما طُمر وما قُبر؛ فتنقل حُمولتَها من كل ذلك من مكان إلى آخر؛ فينظر المار بعجب إلى المخْبوء. قد يكد فيعيد صياغة قصتها الحقيقية، أو تبقى سرا غامضا، ويثور البحر هو الآخر في بعض الأوقات؛ فترتفع أمواجه وتزحف مُدمرة ما هو قائم من مساكن ومرافق، وكذلك جذوع الأشجار والإنسان والحيوان؛ تاركة خليطا فوضويا؛ فتنقل حمولتَها من كل ذلك من شاطئ إلى شطآن أخرى؛ فما في بال سكان الجزيرة أن في شواطئهم أصدافا ومحارات بألوان قزحية، وقواقع تَنقُل إلى آذانهم صدى البلدان البعيدة، وشجيرات مرجانية متحجرة؛ تزين أركان البيوت، ولا شيء آخر غير هذا. إلا أن ما رمى به البحر بعد ليلة عاصفة؛ جعلهم يستفسرون بعضهم البعض، ويطرحون أكثر من سؤال واحد...

فما أيقظ عبدالله في الهزيع المتأخر من تلك الليلة؛ هو قصف رعد شديد؛ يُزلزل القلوب والجدران، وبرق يومض كالشهب؛ يضيء السماء، ويغشى به البصر، ورياح هوجاء تَهْدر في إطارات الأبواب والنوافذ، وتُهْدهد الدفات؛ فتُصدر هذه الأخيرة صريرا مُزعجا؛ فقام ونظر إلى الخارج؛ فرأى سحبا كثيفة دكناء؛ ترسل الأمطار مِدرار. كان جميع ما في الجزيرة ساكنا وهادئا؛ لا يُسمع غير خرير لمياه تجري في الممرات والطرق. أثار هذا الجو العاصف في نفسه الحنين

إلى والديه وإلى قريته. أحكم إغلاق النافذة ورجع إلى فراشه. تكوّم في أغطيته الدافئة ونام، ثم بعد ذلك سمع وَطئا سريعا، ولُهاثا وتسابقا وتدافعا؛ هو لأطفال يجرون. فتح عينيه في عتمة المكان. غادر سريره وفتح النافذة؛ فسطعت في وجهه أشعة الشروق، وأحس بحرارة الشمس تسري في وجنتيه. أنصت مرة أخرى؛ فما يزال هناك من يعدو من الأطفال؛ فتساءل: "ماذا أصاب هؤلاء؛ أي سبيل يسلكون؛ هل وراء جريهم سبب؛ أم هي فقط حيوية الصغار؟"، وجاءته من الشاطئ أصوات جلبة ولغط؛ فقرر أن يُعرّج على الشاطئ في طريقه إلى قاعة الدرس؛ ليعرف سبب كل ذلك؛ فتهيأ وتناول فطوره وخرج حاملا محفظته، ثم سار وهو ينظر حواليه في الدروب والممرات مُستقصيا. وجد الأمكنة شبه خالية؛ فتوجه إلى الشاطئ ليجد جمعا من طلبة فصول العلم وتلاميذ المدرسة يتحلقون حول شيء ممدد على الرمال؛ فنظر إلى هيكل عظمي لإنسان؛ ما يزال عليه لباس قباطنة البحر الرسمي؛ بكَتْفِيتيْن مُطرزتين وأوسمة من ذهب، وبأربطة من حرير.

أطلق عبدالله العنان لناظريه هنالك بعيدا في البحر؛ فلم ير بقايا سفينة غارقة أو غواصة جانحة. قال لمن حوله من الحاضرين:

– لقد حمله التيار البحري من مكان بعيد عن الجزيرة.

كان من عثر على الهيكل العظمي هم تلامذة المدرسة، وكان أول من أخبروه بذلك هو معلمهم مصطفى؛ الذي لم يصدق أول الأمر، واعتبر كلامهم هزلا؛ لأنه اعتاد أن يمازحهم في بعض الأوقات. إلا أن ما بدا على وجوههم من أثر

الموجود؛ دفعه إلى السير وراءهم ليدُلّوه على المكان، ثم شاع الخبر، وما دام كان أول من وصل، وهو معلم الأجيال التي تتعاقب أمامه كما تتعاقب حبات السبحة بين أنامل المتبتل؛ فلا بد أن يتكلم ويكون له رأي سديد في النازلة؛ يأخذ به الجميع؛ فقال:

– أرى أن نخبر أعضاء المجلس العلمي لعلماء الجزيرة؛ فلعل تحقيقا يقومون به؛ يُميط اللثام عن سر هذا الهيكل؛ لمن يكون وما أصله؟

وما كاد ينطق عبدالله والطلبة بكلام يُجارون به المعلم؛ حتى سمعوا من كان يقصدهم جريا من الأطفال ويقول:

– لقد عُثر على هيكل عظمي آخر هناك؟

وجاء طالب يسعى في مشيته هو الآخر قائلا:

– وهيكل عظمي ثالث في ذلك الانعطاف هنالك.

غادر البعض الجمع قاصدين مكاني الهيكل الثاني والثالث؛ برغبة مشاهدة هيئتهما. كانا كالأول؛ ما يزال عليهما بقايا نسيج، وتوجه إليهما المعلم وعبدالله وبعض الطلبة. تقدم أحد هؤلاء الأخيرين؛ فنبشت يده طيات الثوب البالي والمبلل. كانت تتدلى من الهيكل الثاني سلسلة معلق بها صليب مذهب، والثالث ما تزال على عظام رقبته قلادة مرصعة بالأحجار الكريمة، وعلى عظام معصمه سوار، وعلى خِنصره خاتم من ذهب؛ فأُبهم على الجميع ما قذف به البحر من عظام آدمية، ووقفوا بوجوم، فقد ألجم الموقف ألسنتهم.

كان من يريد الكلام هو عبدالله؛ فانتبهوا له. قال:

– ليتطوع اثنان أو ثلاثة منكم؛ للبحث في الشواطئ عما يمكن أن يرميه البحر إلى جانب هذه الهياكل العظمية.

انطلق ثلاثة من بين الطلبة؛ كل واحد يسير في اتجاه، وتبعتهم مجموعة من الأطفال. بعد وقت طويل عاد اثنان يحملان قطعا من خشب؛ هي ألواح لجوانب توابيت وأغطيتها؛ مدهونة بمادة عازلة للماء؛ فحافظت على طلائها البني اللامع؛ مرسوم عليها صلبان. وضعوها تحت ظل شجرة. قال المعلم:

– سنترك الهياكل العظمية حيث هي حتى تُعاين وهي لا تزال في أماكنها.

أخذ المعلم وعبدالله طريقهما إلى مقر اجتماع علماء الجزيرة. انفردا باثنين منهم. قال لهما المعلم:

– أغرب ما ستسمعون. ثلاثة هياكل عظمية لرجال؛ لفظها البحر وعليها ألبستها.

نظر العالمان باستغراب إلى عبدالله ثم إلى المعلم. قال لهما:

– هل كان أصحابها مدفونين في الجزيرة؟

قال الآخر:

– إذا كان هذا صحيحا فتكون سيول الفيضانات قد جرفتها إلى البحر.

قال عبدالله:

– ما استنتجتُ من الهياكل ومن ألواح التوابيت؛ أن تيارا بحريا حملها من بعيد؛ من خارج الجزيرة.

قال الأول:

– تريد أن تقول من مكان بإحدى الجزر أو القارات؟

أجاب عبدالله مؤكدا كلامه:

– وستتأكد بعد المعاينة.

بعد أن عاين فريق العلماء الهياكل العظمية وهي على الشاطئ؛ أمروا بحملها إلى المِشرحة؛ حيث وُضعت على منضدة الفحص، وتحلق حولها العلماء يُدققون فيها النظر، ويحاول كل واحد منهم أن ينطلق من فرضية يراها أساسا للواقعة، وتُطرح للمناقشة؛ فأول ملاحظة أعجزت تفكير الجميع هي أنها عظام بالية، فقاموا بفحصها بالمجهر، وقُدر عمرُ دفنها بعشرات السنين، وكذلك أثوابُها؛ فألياف لباس القبطان والهيكل الثاني من قطن، والثالث من حرير وقطيفة مُخمّلة.

سأل أحدُهُم:

– فما مصدر الخام لكل هذه الأنسجة؟

رد آخر:

– هذا لا يقودنا إلى أية نتيجة؛ فقد تكون بلاد مصر هي مصدر القطن، وبلاد الصين هي مصدر الحرير، وبلاد انجلترا هي مصدر القطيفة المخملة، وقد ساد العالم نظام تجارة دولي منذ عصر الاكتشافات وعصر الامبراطوريات البحرية؛ فما بالك في زمننا المعاصر.

قال آخر:

– قد يُمكّنكم فحص الموجودات من معرفة أصل أصحابها فقط. أما قصتهم الحقيقية، وكيف حمل البحر العظام إلى هنا؛ فلا بد أنها هناك حيث كانوا أحياء،

فكان لفرضية عبدالله آذان صاغية؛ ذلك أنه خبر التيارات المائية وهو في رحلته البحرية الطويلة؛ كانت تدفعه وتملأ رياحها المندفعة شراع مركبه.

التزم الجميع الصمت، وأمطروا عَالِم البحار والمحيطات واسمه أحمد بنظراتهم المتلهفة، وكان سامعا أكثر منه متكلما؛ فأُعطي الكلمة؛ ليدلو بدلوه. قال:

– لا أستبعد فرضية التيار البحري؛ خاصة وأن مياه المحيطات طرأ عليها تغيّر خطير؛ فقد زادت سرعة التيارات البحرية، وسُجّل تباين كبير بين حرارة المناطق الباردة والمناطق الحارة، وصارت التيارات تندلق بشكل ملحوظ، وما هو معروف أن هذه التيارات تأخذ اتجاه عقارب الساعة شمال خط الاستواء، وضد عقارب الساعة جنوب هذا الخط، وبما أن جزيرَتَنا توجد جنوب الخط الذي يقسم الكرة الأرضية إلى قسمين؛ فإن التيار الذي دفع بهذه الهياكل قدم من الجنوب الغربي لجزيرتنا. هل في طريقه يابسا من الأرض؟ فالخريطة هي التي ستُخبرنا.

بسط العالم أحمد خريطة كبيرة، ثم وضع سبابته على مجموعة من جزر متناثرة في محيط من المياه الزرقاء. قال:

– يتجه التيار المائي من الجنوب الغربي إلى الشمال الشرقي نحو جزيرتنا؛ مارا بمحاذاة الجهة الشرقية لهذه الجزر؛ فأقرب جزيرة إلينا في امتداد هذا الأرخبيل هي هذه. قد تكون هي مصدر الهياكل العظمية، والدليل العلمي القاطع الآخر هو أن من أسباب الحالة الجوية الاستثنائية للّيلة الفائتة هو أن التيار المائي حمل برودة مياه البحار الجنوبية، ومن يابسة تلك الجزر ذات المناخ البارد؛ إلى يابس

جزيرتنا ذات المناخ الدافئ؛ مما أحدث جبهة عاصفة بين كتلتين هوائيتين واحدة باردة وأخرى دافئة.

لم ينْبِس عالم الآثار والتاريخ محسن بِبنْت شفة؛ فقد آثر السكوت؛ لأن التحليل العلمي المادي للموجودات، والبعد الجغرافي الذي نَقَلت فيه الظواهر الطبيعية الهياكل؛ لم يترك له فرصة التدخل ليقول كلمته في الهياكل العظمية، فقال له أحد العلماء:

– كفاك يا أستاذ محسن سكوتا. أ ليس لك ما تضيف إلى ما قيل؟

تنحنح محسن وقال:

– إن التاريخ الاجتماعي والسياسي والاقتصادي لهذه الجزر قد يُرسل إلينا ومضة تُنير لنا الدرب الذي سرنا فيه وما زلنا نتخبط في ظلماته؛ فمن يُعمّر هذه الجزر من عناصر بشرية لا يُفصل ويُنظر إليه من زاوية خاصة؛ فهو جزء من التاريخ الحديث والمعاصر العام لجزر ما وراء البحار؛ فهم أهالي أصليون وآخرون وفدوا مع الاكتشافات الجغرافية ومع الاستعمار الحديث؛ فما هو ماثل أمامكم قبطان من القوات البحرية لسفينة حربية. كانت ترسو على شاطئ الجزيرة في أوقات معينة ومعلومة لتُفرغ حمولتها من الجنود والعدة والمؤن، وتشحن ما تجود به تلك الجزر من خيرات طبيعية يسيل لها لعاب الرأسماليين؛ يتباهى بما خُلع عليه من نياشين وأوسمة لبطولات أنجزها، وهذا راهب الجزيرة المسيحي ما يزال صليبه على صدره؛ يُبارك للنخبة الحاكمة أعمالها ويُجِلها، وهذا حاكم الجزيرة الثري وقلادته الذهبية وأحجاره الكريمة وأساوره؛ آيات أُبّهته وهيبته وتسلطه؛ فهو

جاني ما أنتجته سواعد العبيد والعمال من غِلال، وما نقبوا عليه من معادن ثمينة في صخور الجزيرة العذراء؛ فهم جميعا كانوا مقبوري مقبرة واحدة، هذا أقل ما توصلنا إليه من خلال ما عثر عليه، أما تفاصيل الحكاية فتجدونها هنالك في تلك الجزيرة.

وجاء الجواب على جزء من القصة الغامضة من حيث لا يدري الجميع.

قال العالم أحمد:

– وفي شكل التوابيت وفي نوع خشب ألواحها ما يُثبت أنهم دُفنوا في زمن واحد. هل هم قتلى حرب، أو لم يخطئ قاتل منهم أحدا لدوافع؟ أو هم غرقى عاصفة بحرية؟

قال محسن:

– ما دام الاستنتاج الأولي قد قادنا إلى أن معرفة القصة الكاملة لا يكون إلا هنالك؛ فلا مناص من أن نقوم برحلة إلى تلك الجزر للبحث عن الحقيقة.

قال العالم أحمد:

– لنأخذ مشورة رحلتنا من العلامة.

خطوا جميعا إلى الشاشة الكبيرة المثبتة على الجدار، ووقفوا متأهبين. كان المعلم قد خاطب الجهاز بلغته الرقمية؛ وذلك برقن الأرقام والحروف، ثم حرر تقريرا موجزا حول الهياكل العظمية، وما استنتج من دلائلها المادية، وما ينبغي أن يُفعل للوقوف على الحقيقة.

ظهر وجه العلامة؛ فسلَّم على الجميع، وداعبهم بكلمات خففت عنهم ثقل التحقيق والسأم، وزادتهم ثقة. قال:

– ولتكن رحلة استكشاف علمي للجزيرة، ثم ستجدون ما سيقودُكم إلى معرفة حكاية الهياكل العظمية الحقيقية. أصحابها أثروا فحكموا الجزيرة بيد من حديد؛ فلا أحسب إلا أن ثورة محلية قامت ضدهم؛ لتقتلع جذور حضارة نهب بائدة. رافقتكم السلامة.

عادوا إلى جمعهم؛ ينظرون إلى بعضهم البعض، وما تزال كلمات الأستاذ العلامة تتردد في أذهانهم؛ فقد توقع بما سيهتدون إليه هنالك من دلائل. كانت حافزا لهم؛ فخططوا للرحلة، ووقع الاختيار على من سيكونون أفرادا فيها، وجعلوهم في ثلاث مجموعات. الأولى ستستقل المركبة الطائرة، وفيها العالم أحمد وعبدالله وصديقة محمد وحسن الذي رجع من الزيارة التي قام بها إلى والدته، والثانية سيَحشُر أعضاؤها أنفسهم في الغواصة، والثالثة ستمتطي مركب الخلايا الشمسية، وفيها المعلم، وعُين العالم أحمد قائد للرحلة ومنسقها.

انطلقت المجموعات الثلاث في صباح اليوم التالي، ورسم العالم أحمد خط رحلة مركب الخلايا شمسية؛ يمتد مع سير التيار البحري؛ حتى لا يسير عكسه؛ فيعوق إبحاره، وشغلوا أجهزة التواصل اللاسلكية بينهم، وكما خُطّط فقد قام كل عضو من أعضاء الرحلة بتسجيل كل ما يلاحظه في طريقه وفي حدود اختصاصه العلمي؛ من كائنات بحرية ونباتية، وظاهرات طبيعية غير عادية تستحق الدراسة، والآلات تسجل وتوثق تغيرات الحرارة وقوة الرياح والضغط الجوي؛ ليتم تحليل

العناصر، لخلق نماذج لحالات الطقس متحركة على الشاشة؛ تتنبأ بالأحوال الجوية، وأخرى تسبر البحر؛ عارضة تضاريس الأعماق بالأبعاد الثلاثية.

بعد ثلاثة أيام وهم يتقدمون؛ يصارع مركبهم الأمواج، وتطفو الغواصة من وقت لآخر مُصوّبة منظار مسح سطح البحر، والمركبة الطائرة تجوب الأجواء العليا؛ مُستطلعة بانوراما في حيز دائرة قد يصل شعاعها إلى عشرات الأميال؛ نقلت إليهم الأجهزة من بعيد رصيفا إسمنتيا منهارا؛ لم يعد صالحا للرسو؛ فطافوا حول الجزيرة ليجدوا شاطئا رمليا؛ حطت على رماله الناعمة المركبة الطائرة، ودبت عليه الغواصة نافذة من الماء ككائن برمائي، ورسا على المياه الضحلة مركب الخلايا الشمسية، ثم وطئت أقدام الجميع أرض الجزيرة.

أول ما لاحظوه هو قطع من خشب سميكة، وقرميد مكسور ومتراكم عند نهاية المساحة الرملية على جذوع نخيل الجوز؛ فعزا ذلك العالم أحمد إلى أمواج زلزالية خلقتها هزة أرضية حدثت في عمق البحر، وتدفقت إلى داخل الجزيرة مجتازة منطقة المد والجزر؛ فدمرت البيوت والكنيسة الوحيدة بالجزيرة والطرق، واقتلعت الأشجار واجتاحت المقبرة؛ فحفرت مياهها في القبور كاشفة عن توابيت الموتى مُفككة أخشابها، ثم طوتها الموجة وكرّت بها إلى داخل البحر؛ لتحمل التيارات العظام والألواح إلى شاطئ جزيرتهم.

قال محمد مُتحمّسا باستنتاجات العالم أحمد:

– ما علينا الآن إلا أن نبحث عن المقبرة.

رد عليه العالم أحمد بهدوء كأنه يريد أن ينبه لشيء:

– لنتريث ونخطو بمهل مُتكيّفين مع ما يصادفنا، ومتعاملين بحيطة وحذر مع ما سنكتشفه؛ فإني لا أسمع غير دبيب الأفاعي والسحالي، ونعيق الطيور الجارحة وتغاريد العصافير. إنها جزيرة مهجورة لسبب من الأسباب، وجئناها في زمن انحطاطها؛ فهي من الأراضي المنسية. لم أر آثار أقدام، ولم أشم رائحة كائن إنسي؛ فهي في سبات عميق.

فانتبه الجميع لما قال العالم أحمد؛ فصاروا يُقلّبون أنظارهم فيما حولهم، وخاف المعلم مما يحيط به وطفق يدور بشكوك ناظرا في جميع الاتجاهات؛ فشاهد أحدا في إحدى الخلجان البعيدة؛ يغادر الشاطئ على مركب شراعي ويختفي بين الأجراف الصخرية، ثم لا يظهر بعد ذلك؛ فصاح:

– أُنظروا هناك، أحد بالجزيرة.

قال العالم أحمد مُستطلعا:

– لا يغرّنك وجودُه؛ فهو لا يمت بأية صلة بالجزيرة ولا بذرة منها. يقصد هذا المكان لحاجة، وفي أوقات معينة من الإبحار.

قال حسن مُتأهّبا:

– لنلحق به ليُطلعنا على ما كان يجري هنا.

قال الأستاذ محسن:

– سيعود. هو جاهل، جاني للمحارات والقواقع أو صياد سمك. لا يكترث لما يحيط به.

قال عبدالله سائلا:

– هل شاهدنا فغادر الجزيرة. قد لا يعود؟

قال محسن غير قاطع بذلك:

– ربما.

نصبوا خيامهم بين أشجار أجمة تحاذي الشاطئ الرملي، وقد تريثوا فعلا؛ فلم يتقدم أحد منهم إلى داخل الجزيرة، وانشغلوا بقية اليوم الأول لهم بالجزيرة في ترتيب حاجاتهم اليومية وتهيئ أجهزة مختبرهم المتنقل، وإنجاز الطعام.

في ساعة مُبكرة من اليوم التالي؛ استيقظ الجميع على صوت أحد منهم يستحث العالم أحمد على أن يفيق من نومه. كان هذا الشخص هو عبدالله؛ من عادته أن يكون يقظا لا يغمض له جفن. كان يقول مرددا ألفاظه:

– إن الرجل الزائر للجزيرة يرسو بقاربه الآن.

نهض العالم أحمد، ونظر من خلال المنظار المكبر في اتجاه الرجل، ثم قال:

– سنمضي إليه أنا ومحسن لنستمع إلى روايته؛ فعادة ما تُنسج حول الأمكنة حكايات وخرافات وأساطير.

امتطيا زورقا مطاطيا وجذفا بين جزر صغيرة من الصخور؛ متوارين قدر الإمكان عن الرجل؛ فقد يشك فيهما، وفي لحظة استغفال له رسيا حيث يرسو مركبه، وترجلا وسارا؛ فما يزال منهمكا حتى تناهى إلى سمعه وجود إنسان؛ فأدار وجهه إليهما. بادره العالم أحمد قائلا:

– أ لديك سمك لغِذائنا؟

قال الرجل:

– لا أصطاد السمك.

قال العالم أحمد مبتسما:

– فما أنت فاعل الآن؟

رد الرجل وهو يُحملق في وجهيهما:

– أستغرب وجودكما على شاطئ هذه الجزيرة؟

سأله محسن قائلا:

– وما الضّير في ذلك؟

قال الرجل بهدوء:

– لا أخطو على الشاطئ إلا قيد الجرف الصخري. أجمع بلح البحر والمحار، ثم أعود.

سأله العالم أحمد:

– هل من سبب لهذا؟

بعد لحظة صمت قال الرجل وهو يتكئ على حِربته التي يقتلع بها البلح والمحار:

– لا أعرف عن هذه الجزيرة إلا ما نُقل إلينا هنالك؛ نحن سكان تلك الجزر ما بعد ذلك الأرخبيل؛ ما يُريع وما يخيف. غاباتها تنفث سما قاتلا وثمارها تفرز سائلا صَديدا. يُسمع من حين لآخر بين حيطان بيوتها المهجورة حشرجات الموت. قيل أن أفراد قوم تعاركوا فيما بينهم، وأن قتالا حدث في أقباء تحت الأرض منذ ثمانين سنة؛ ذُبح فيها الراهب الشافع للمذنبين والجالب للغفران؛

فكان هذا لعنة على الجزيرة. غير أن سفينة غبراء اللون رست؛ فاجتاح جنودها أرض الجزيرة؛ أبادوا كل من كان عليها وانتهى كل شيء، وجُعل عليها عسس عساكر؛ جميعهم ماتوا بما يفرزه المكان من سموم؛ إلا واحدا ظل يحرس الجزيرة ببندقية عريقة وصدئة؛ لم يبق له ما يُلقمها من الرصاص، وهو يهذي كالمجنون؛ كان يقول أنهم نصبوه ملكا على الجزيرة، وأنه جاد في البحث في أرجائها عن التاج المفقود والصولجان الملكي. وُجد ميتا. هل قُتل أو جُرّع سما؟ لا ندري البتة. هي الآن لا تنفع في شيء؛ لا تُنبت زَرعا ولا تُغني ضَرعا.

تجاهل أحمد ومحسن ما روى عليهما الرجل. قال أحمد سائلا:

– هل ما تجمعه من بلح ومحار فقط لتأكله وتُطعم به عائلتك؛ أم...

قال الرجل:

– أحمله إلى تاجر للكائنات البحرية. يبيعه لصاحب فندق فخم يهيئ به أطباقا نادرة للسياح الأثرياء. أتعيش من هذا.

قال محسن:

– قد يصدق الناس ما حُكي من حال الجزيرة؛ فيُشكّ في مدى سلامة البلح والمحار.

قال الرجل بجد:

– ليس كل ما يُجنى من الثمار يُعرف مصدرها، والكثير من التجار يتكتّمون ويستغفلون إذا ما أرادوا أن تستمر تجارتهم الرابحة.

لم يكن مما تفوه به الرجل غريبا عنهما؛ فذلك ما يجري في الأسواق.

ودع العالم أحمد والأستاذ محسن الرجل، ورجعا إلى المخيم.

كان أول ما خاطب به العالم أحمد أصحابه:

– هل رصدت أجهزتنا ما يُريبُنا في هذه الجزيرة؟

استفسر حسن قائلا:

– مثل ماذا؟

أجاب العالم أحمد:

– معادن ممغنطة أو مواد مشعة أو قنابل خامدة وأخرى قابلة للانفجار. كانت الجزيرة مكانا للتجارب النووية التي اشتد حُمّاها بعد الحرب العالمية الثانية؛ فقد تَأسْمَنَت تربة جزء منها بفعل حرارة الانفجارات القوية؛ التي قد تصل درجاتها المئوية إلى الألف.

قال حسن:

لم تنبهنا الأجهزة إلى ما تقول؟

قال العالم أحمد:

– سنجوب الجزيرة شبرا شبرا؛ للبحث عن مخلفات وبقايا الانسان. قبل ذلك نرى ما توضحه لنا أجهزة سبر أعماق الأرض، والكشف عن المخبوء. ركبوا الآلة الماسحة هناك، وأوصلوها بالشاشة المرئية.

قام من يتقن هذا العمل بتشغيل الأجهزة؛ فرحل الجميع إلى عالم من الأبعاد الثلاثية. كان ما كُشف عنه مقبرة بها ركام من العظام، تَبّين من شكل الجماجم

أنها لحيوانات، وكهف كارسطي[1] ظهر بنوازله وصواعده. على أرضيته بقايا أشياء ببريق يُبهر العين، وعظام آدمية ومكان (تحتأرضي) دعائمه وحيطانه من اسمنت بمكونات غريبة؛ ظهر حالكا؛ لم يخترقه صدى الأجهزة؛ فبقي غامضا لدى أعضاء الرحلة. قال العالم أحمد مُفسّرا ذلك:

– كان هذا أحد الابتكارات السابقة لزمنها؛ فالعلماء الذين صمموا هذا المكان الذي لا يُخترق؛ متخصصون في تكنولوجية المستقبل. كانوا يتنبؤون بظهور الأجهزة الماسحة للأبعاد الثلاثية للأمكنة؛ فأخذوا جميع الاحتياطات.

ثم أردف موجها أمره إلى القارئ للأبعاد الثلاثية:

– حَدِّد الاحداثيات الرقمية لهذه المواقع، ثم مررها إلى طابعة الخرائط.

وفعل ذلك التقني البارع ما أُمر به؛ فلفظت الآلة ما في جوفها؛ خريطة متضرسة؛ مُجسِّمة لمورفولوجيا أرض الجزيرة؛ من جبال وهضاب وسهول وأودية وعيون وأنهار؛ مُبيّنة للمواقع.

وتابع العالم أحمد مراحل الاستقصاء قائلا:

– لتُبيّن لنا الأجهزة الممرات الممهّدة والذاهبة إلى تلك المواقع.

---

[1] تعود تسمية كارسط إلى "إقليم كارست Karst بيوغوسالافيا حيث تنتشر في أجزائه مجموعة من الظاهرات الجيومورفولوجية الفريدة في أنواعها وأشكالها، وتكاد ترتبط نشأتها جميعا بما ينجم عن عمليات التحلل والإذابة بفعل المياه الجوفية في الصخور الجيرية"، لذلك جرت تسمية مثل هذه الظاهرات الجيولوجية في العالم بهذا الإسم. حسن أبو العينين، أصول المورفولوجيا، الطبعة الخامسة، دار النهضة العربية، مصر، 1966، ص: 499.

واستنطق التقني مرة أخرى الأجهزة؛ فظهرت شبكة من الطرق المعبدة انهارت بعض أجزائها، ثم انساب لون أصفر راسما لأقصرها خطا متعرجا. قال أخيرا العالم أحمد:

– هذه هي المسالك التي سنسلكها؛ مستقلين المركبة ذات العجلات المرنة والخامدة للاهتزازات؛ فهي المؤهلة للسير على ما تضرس من أرض الجزيرة. أول موقع سنذهب إليه هو مقبرة جماجم الحيوانات، ثم الكهف الكارسطي، ونرجئ مجسم المكان الأسود إلى وقت لاحق.

ثم نادى على حسن قائلا:

– ركب ما أمرتك به قبل قليل.

أسرع حسن إلى بقعة من الأرض، ونصب بها صَحنا مُقعّرا صغير الحجم. شرح العالم أحمد الهدف من ذلك قائلا:

– إنه عاكس لعدسات أقمار التجسس؛ فلا تلتقط هذه الأخيرة وجودَنا بهذه الجزيرة، ولا تراقب أعمالنا من بعيد. إنه من وسائل الحرب التكنولوجية.

تزود أعضاء الرحلة البرية بمؤونة عدة أيام، ومكث البعض الآخر بالمخيم القاعدة، وفي تقدمهم في عمق الجزيرة كانت تدب بهم المركبة بروية وبهوادة؛ مُستأنسين بلُيونة سيرها، وهم يعاينون ما يمكن أن ترصد أجهزتهم الذكية من مواد مُشعّة، وحتى لا تتأثر جلودهم بها ورئاتهم؛ لبسوا كمامات تنفسية وألبسة واقية وتناولوا محاليلا مضادة، ثم توغلوا في غابات من أشجار باسقة وكثيفة، وفروع نباتات ملتفة، وأوراق عريضة. ما يزالون يسيرون حتى اعترض طريقهم

حاجز عال؛ إنه جبل من عظام التماسيح والأفاعي الضخمة والسَّمور؛ هذا الأخير حيوان مستزرع هنا فقط، أما موطنه الأصلي ففي روسيا واسكندنافيا. ترجل العالم أحمد وخطا إلى داخل مبنى مُنهار. خرج بعد ذلك ليقول لأصحابه إنه معمل لدباغة جلود الحيوانات، وتنعيم فرو حيوان السَّمُّور بمشط ميكانيكي؛ الأولى لأحزمة رجالية وحقائب نسائية، وأسماط لساعات نفيسة، والثاني لشالات دفيئة لنساء الغرب المتأنقات؛ فالأرجح أن هذا أباد تلك الحيوانات والزواحف من على أرض هذه الجزيرة.

ما كادوا يغادرون المكان حتى ظهر لمحسن عالم الآثار والتاريخ بقعة أرض برزت منها عظام جماجم؛ فأسرعوا ليروا كيف جرفت سيول وابل من الأمطار الأتربة عن مقبرة جماعية؛ فوقفوا بُكما لم يعد يدور في خَلَدهم ما يقولون.

قال محسن:

– إنها لجماعة من الناس؛ هل هم أهالي الجزيرة أم المنحدرون من أصلاب المهاجرين الأولين؟ فالأمر يحتاج إلى وسائل مخبرية لدراسة شكل الجماجم والذرات الوراثية. ما نريد معرفته الآن هو الأسباب، ودوافع من ارتكب الجريمة. في البقايا ما يؤرخ للحادثة.

قصد محسن صندوق أدوات؛ تناول معول الحفر وشظي الصخور وكاشطة؛ فحفر وكشط، وذرا الأتربة بفُرشاة؛ مُستخرجا نقودا، وأصداف ألبسة، وبطاقات هوية. نظر إلى كل هذه الموجودات، ثم قال نافضا يديه:

– إنهم عمال مصنع الجلود. كانوا يرتدون شكلا واحدا من الألبسة، ونقودهم نحاسية ضُربت منذ عشرات السنين، وما في البطاقات غير هوية رقمية. كان ما يجري هنا محاطا بسرية تامة؛ فما يزال الغموض يكتنف ما نصادفه؟

سأله أحمد:

– إذا ليس في هذا المكان ما يُرشدنا؟

رد محسن بيأس:

– نعم. هل في المكان التالي ما يخرجنا من هذه الدُّوَّامة. هذا ما سنراه.

وتابعوا زحفهم مُنبتّة أنظارهم في كل ما يحيط بهم؛ ملتقطة أسماعهم لكل ضجة أو نأمة أو حفيف.

حاول المعلم مصطفى أن يصف ذلك قائلا:

– لا شبيها لهذا المكان؛ فهو خارج عن المنظومة البيئية للأرض، وما نراه فهو إلا عافية مستعادة.

قال أحمد:

– سُلب من هذه الجزيرة نظامُها البيئي، والسالب الماحق الساحق هو الانسان.

قال عبدالله:

– إن وراء هذا جشع وجوع وظمأ لا يُشفي الغليل.

اعترض طريقهم جدار أخضر مكسوّ بأوراق النباتات المتسلقة. كان المتقدم منهم حسن، وكانت بقبضة يده عصا خيزران؛ فرق بها ما بين الأغصان التي كانت كأنها في مُشادّة، فظهر لهم حائط اسمنتي. هل من أداة لنقر مدخل فيه؟

قال محسن:

– دعوا عنكم هذا الحائط، فقد حفرت مياه الأمطار والسيول في منطقة التقائه بالصخر هشَّة، ولا يُتطلب فتح مدخل فيها قوة كبيرة من سواعدكم.

أخذ محسن المعول وانهال على التربة المتماسكة؛ فانهار جزء منها. كان أول الداخلين أحمد حاملا مِحسّا للمواد المشعة؛ الذي لم يسجل أية إشعاعات، فتقدم الآخرون في أثره.

لم تكن تطأ أقدامهم أرضا صلبة بل كانت تُهشّم عظاما وجماجم بشرية. أراد البعض منهم التراجع؛ إلا أن محسن قال:

– تصفية جماعية أخرى.

وقال أحمد:

– إنه الكهف الكارسطي. ستهوي بنا وهاد وأراض متهدلة وأنهار باطنية؛ فليأخذ الجميع حِذره.

سلطوا أضواء مشاعلهم الكهربائية على الحواف والنتوءات الصخرية؛ فعكست حجارةٌ بريقا تتراقص ألوانه الذهبية والبنفسجية، وتتلألأ ذراتها بومضات ساطعة.

قال المعلم:

– إنه ذهب وماس وزمرد وأحجار كريمة أخرى.

قال محسن:

– هذا هو خام صليب الراهب الذهبي، وصفيحة وسام قبطان البحرية العسكرية، وقلادة الحاكم وأساوره وماسة وزمردة خاتمه.

قال أحمد:

– إن ما قاله الأستاذ العلامة صحيح؛ فإن هؤلاء أثروا بهذا فحكموا الجزيرة وأخضعوا مقيميها بيد من حديد.

قال محسن:

– إذا تخيلنا الصورة فهي وحشية تُحزن وتُدمي القلب، فهو نَهْرٌ يوخز أعماق النفس، وسياط يُدمي الضلوع، وصفع يُدوّي على الأقفاء، ولطم على الخدود، يدل على التخلص من الآدمية الانسانية.

قال عبدالله:

– إنه استعباد الانسان للإنسان في جميع العصور.

تابعوا سيرهم لتتفرق بهم سراديب طولية غارقة في الظلام. مُدت فيها أسرة من حديد وخشب، ووضعت على الأرضية أباريق وأوان وقُدور وأكواب، وعُلّقت على الحيطان ألبسة رثة. قال محسن:

– إنه مأوى العمال. لا يرى نور الشمس أبدا.

وفي جهة أخرى؛ تراصّت عربات حديدية بعجلاتها؛ على قضبان سكة امتدت في عمق المنجم المظلم.

قال أحمد:

– حسبنا هنا لنعود، فأينما وُجد المعدن النفيس وُجد الصراع الدامي بين البشر.

قال محسن:

– لا تقربوا شيئا مما عثرتم عليه؛ فإن أيديكم تتبرأ مما تلطخت به دماء شهداء الفقر والحاجة.

وتراجعوا ليأخذوا الطريق الذي سيفضي بهم إلى الأرض المتأسْمنة. ما رآه أحمد بها جعله يناديهم بغبطة:

– أنظروا كيف تحيا الأرض.

شاهد الجميع أثر ما فعلته الطبيعة بتلك الأرض؛ التي قال عنها ذلك الرجل بأنها لا تُنبت زرعا ولا تُغني ضرعا؛ فقد غطت الأتربة التي جرفتها السيول الأرض، وتسربت ذراتها المبللة بماء المطر بين التصدعات؛ فتمددت جذور فيما بين الشقوق، ونمت سيقان وتفرعت أغصان، وانبثقت براعم وأورقت وأزهرت، وأينعت ثمارا، وطفحت خضرة.

قال أحمد:

– فلا تيأسوا ولا تحزنوا.

قال محسن:

– فماذا سيلقانا هنالك في ذلك المكان الذي بدا مجسما أسودا لا شكل له ولا جوف؟

قال أحمد:

– أبشع مما تتصور.

قال حسن:

– هل في كلامك تنبؤ؟

قال أحمد:

– لا أتنبأ، وكما سبق وأن قلت لكم إنها تكنولوجية المستقبل؛ تأخذ بألباب العلماء، أو قد يكونون قد أُرغموا على ما فيه شرّ للبشرية.

قال محسن:

– للعَالِم رغبة جامحة في العلم والمعرفة، وللآخرين في ذلك كله وسيلة لهدف. قد يخطف العالم ويُحبس في مختبره؛ يُنظِّر ويحلل ويستنتج ويكتشف؛ فيُصرف عن التفكير فيما أوتي غيره من الحيل والدهاء السياسي.

قال المعلم مشيرا إلى طريق معبد زحفت عليه النباتات، ونفذت منه الجذور:

– هذا الطريق المؤدي إلى ذلك المكان.

فتحرك نَفرُهم، وما يزالون يسيرون وجذوع الأشجار تزداد علوا في جانبي المسلك، وتتداخل الأغصان فيما بينها، وتتكاثف الأوراق فوق رؤوسهم؛ حاجبة عنهم أشعة الشمس. قال عبدالله رافعا رأسه إلى الأعلى:

– إنه ممر بناه الانسان بأن أنبت في حاشيتيه الأشجار؛ بين كل جذع وجذع مسافة بمقياس واحد، وامتدت أغصانها وأورقت سقفا طبيعيا.

قال حسن:

– وبهدف إخفاء المكان.

قال محسن:

-وأين هو أ لم تروا الأغصان وقد سدت دونكم الطريق؟

نبههم القارئ لآلة الإحداثيات الرقمية إلى أنهم خطوا أبعد من المكان المحدد بعشرة أمتار.

فعادوا يُقلبون الأنظار فيما حولهم. سأل أحمد:

- هل هو على يميننا أم على يسارنا؟

أجاب القارئ للآلات الماسحة:

- على يسارنا.

تقدم حسن وسبر بين الأغصان بطرف خيزُرانته، ودق بها؛ فسُمع صوت الدقات على خشب سميك. قال:

- إنه باب.

امتدت أيدي الجميع إلى الأغصان تُنحّيها وتُكسّرها؛ فظهرت دفتا باب من خشب برؤوس دبابيس كبيرة، وتشقق طلاء بلون أخضر؛ دفعوهما بمناكبهم ففُتحا، ثم ساروا بين حائطين مبنيين بالطوب؛ عند قاعدتهما نباتات زينة ميتة وأخرى خرفة، وصعدوا ثلاث درجات، ودخلوا إلى حجرة بها مكتب خشبي عليه هاتف أسود اللون من خمسينات القرن العشرين. يجاور الحجرة ممر ضيق ومحدود؛ على أرضيته باب فتحوه ونزلوا درجات سلم مسلطين في أرجاء بهو أضواء مشاعلهم الكهربائية. تفرقت عنه في اتجاهات شتى سراديب وأقبية. تعثرت خطواتهم فنظروا إلى الأسفل عند أقدامهم. كان المكان عامرا بعظام

وجماجم آدمية ترتدي شكلين من الألبسة؛ أحدهما باللون الأبيض والآخر باللون الأزرق. انتشل محسن منها صفيحة؛ قال مُكمِّما أنفه لرائحة عفونة طاغية في الأجواء:

– إبادة جماعية أخرى. صفائح بهوية رقمية، وأحرف تحتاج إلى البحث عن أي شيء تدل.

جاوز بهم أحمد المكان قائلا:

– لا تفرقوا، وسنرى ما بداخل هذه السراديب واحدا واحدا.

أول ما صادفهم مِحْرقة ومُدمّرة أوراق. قال محسن:

– كانت تحرق الجثث أو أعضاء الأجسام، وتدمر أوراق التوثيق حتى لا يُخلَّف دليل.

كانت أعلى أول سرداب سيتابعون فيه سيرهم لافتة. كشفت أنوار مصابيحهم اليدوية عن كتابة؛ فقرأ أحدُهم ما يلي: **الغازات المدمرة.**

التفت العالم أحمد إلى حسن المتخصص في تكنولوجية الطب باستغراب؛ سائلا إياه:

– ماذا يعني هذا يا حسن؟

فكر حسن قليلا دون أن يهتدي إلى ما يستحق التفوه به. قال:

– لم أدرك مما وراء ما كُتب.

قال أحمد بإقدام:

– لنرى ما بالداخل.

كانت تتوالى في طول السرداب على اليمين قاعات بحيطان زجاجية، وأخرى على الشمال. قرأ من ساروا يمينا اللافتات، وتعالت أصواتهم وهم يتوغلون. نطق هذا: غاز العقم، وتفوه ذاك: غاز الإعاقات، وجاء من أقصى السرداب صوت يقول: غاز فقدان البصر، وغاز فقدان السمع، وقال آخر: غاز فقدان الذاكرة وغاز الرُّعاش وغاز الجنون والحمق.

أما من ساروا في يسارهم؛ فمنهم من أُغمي عليه، ومنهم من تراجع يرْمل مخنوق الأنفاس، وآخرون انكفأوا يتقيؤون؛ إلا حسن فإنه كان رابط الجأش؛ مُتحمّسا بالفضول العلمي، وجاء من جهة اليمين العالم أحمد ومحسن. خطا الثلاثة وكان الذي هَمّ بالكلام هو حسن. لم يبد عليه الارتباك. قال:

– تواجه كلَّ نوع من الغازات قاعاتٌ أخرى للتجارب. في كل واحدة رجل أو امرأة يمدد على سرير ويوثق بأحزمة ويُنشق الغاز بقوة الذي يُتلف وظيفة أحد أجهزته، وتُجرى له عملية استئصال للجهاز، ويحفظ في ثلاجة أو في قارورة مغموسا في سائل حافظ؛ ليتم دراسة مدى أثر الغاز في الخلايا، ومدى قوة تدميره للعناصر الحيوية لوظيفة العضو أو الجهاز؛ فهذا رجل وأذناه، والآخر وجهازه التناسلي، وهذه امرأة ورحمها المحفوظ، وهذا ذو الجمجمة المشطورة إلى نصفين، وعلى الرف دماغه، وهذا لا فؤاد له فقلبه هناك، وفي القاعة الموالية في تلك الزاوية عينان جاحظتان ترمقانكما، وفي ركن منها صاحبهما، ومن بين هؤلاء من لا ساق له ولا ذراع ولا أصابع ولا لسان ولا رئة ولا كبد، والكل محفوظ رهن الاختبار.

قال أحمد:

– فذووا البدلات البيضاء علماء سُرقوا من بلدانهم، وذووا اللباس الأزرق مساجين من المحكوم عليهم بالمؤبد أو بالإعدام؛ يُساقون إلى هنا من سجون العالم كائنات للتجارب المخبرية، وبعد نجاح التجارب تُسوّق الغازات لأهداف عسكرية أو لغايات أخرى.

قال المعلم:

– كان الحراس يذرعون السراديب يُراقبون ما وراء الحواجز الزجاجية.

قال محسن وقد علا الشحوب وجهه:

– ماذا ينتظرنا في باقي السراديب؟

انتبه العالم أحمد من شروده كأنه وُخِز برأس إبرة. قال:

– أو نستمر؟

أجاب حسن بشجاعة:

– لن نترك المكان.

قال أحمد راسما خطة عمل:

– سنعيد الأجهزة والأعضاء إلى أصحابها، وسنقوم بجرد لكل الموجودات الإحيائية، وسننقل عينات إلى مختبراتنا لفحص الجينات بهدف التعرف على هوية كل شخص؛ اسمه ونسبه وتاريخ ميلاده ووطنه، ونُبلغ أحدا من ذويه أو ممن يتحدر من عائلته؛ أبناء أو حفدة أو أعمام أو أخوال، وسنصيغ موسوعة نسميها : "جزيرة صناعة الانسان".

انتقلوا إلى السرداب الآخر. ما قرأ المعلم كان أفزع مما تقدم: **متحف المعمرين في الأرض.**

نادى أحمد باشمئزاز:

– يا محسن يا عالم الآثار والتاريخ ماذا سيُخبّأ لنا هذا الجناح؟

كان محسن أول من مشى وشاهد. تماسك ولم يتراجع. قال:

– رويدكم. انتظروا قليلا من الوقت، واستعدوا لجميع الاحتمالات كأنكم جنود بجبهة حرب؛ فهذه صناديق من زجاج تُحفظ في سوائلها أجساد؛ نماذج من عمر طويلا على الأرض من أنواع السلالات؛ لم تتسرب إليها جينات وراثية غريبة، ولم تختلط بها؛ منها من انقرض وأخرى في طريقها إلى الانقراض.

سأله المعلم وفي داخله أسف شديد لما يحدث من غرائب لبني البشر.

– ولأي هدف كانوا يحتفظون بهم كمحفوظات الأرشيف؟

قال محسن:

– أو تدري إلى أي حد يخاف الانسان من الموت؟ وهل تعلم لماذا حنط فراعنة مصر القديمة موتاهم ودفنوا معهم حتى ما يحتاجون إليه بعد البعث؛ من وسائل العيش اليومية. هل هو حسد في نفس من هو هالكُ مرض؛ يُستعصى علاجُه؟ هل هو حب التملي فيما يفتقده الانسان من عمر مديد. جيء بهم ليأخذوا عينات من نخاع عظامهم ومن دمائهم؛ لتحليلها ودراستها لمعرفة السر الكامن في عمرها الطويل، وما إذا كان صحيحا أن أقواما كانوا يعمرون قرنين من الزمن أو ثلاثة أو أكثر، ومن يدري لعل هؤلاء سليل أولئك، وتمكّنهم

دراستهم هذه من ابتكار تركيبة إكسير الحياة لإطالة الأعمار، أو لتقوية عظام ذوي الأعمار القصيرة؛ بأن تُزرع فيها ذرات نخاع أو قطرة دم من المعمرين؛ يبيعونه بمبالغ كبيرة من المال فتكثُر أموالهم، وأكثر هؤلاء خُطفوا قبيل الحرب العالمية الثانية أو أثناء المعارك؛ من تلك القرى النائية والمنعزلة في أودية وفجاج وسط وشرق آسيا، أو في إفريقيا الشرقية؛ لم تكن قد وصلتها أمراض وملوثات صناعة الغرب، ويظهر هذا إذا أمعنت النظر في ملامح وجوههم.

لم يطق أحد منهم النظر طويلا؛ إلى هذه الأجساد المحفوظة في ماء معالج طيلة عشرات السنين. غادرهم محسن متابعا تقدمه، ثم ما لبث أن عاد قائلا:

– هناك أبشع مما ستُشاهدونه. ما قرأت: **مُستودع الأعضاء**.

قال حسن بيقين:

– إن الأعضاء تودع لتزرع فيما بعد في أجسام من تلفت أعضاؤهم؛ كالكلية والقلب والطحال وغيره، وربما أنكى مما نرى كما قُلت.

دلف الجميع وقد اشمأزت نفوسهم، لتنظر مرة أخرى إلى الكلي والقلوب والأذرع والسيقان مرتبة ومحفوظة؛ استُأصلت أو بُترت من أحياء أصحاء، ثم شدهم ما كُتب على باب القبو الأخير: **الجواسيس الإلكترونيون**.

ما وقعت عليه عيونهم كان أعظم. رؤوس كُشطت شعورها، وشُقّ قِحْفها[1] بشكل مربع بأشعة الليزر، وثبتت في الداخل رقاقات إلكترونية؛ بذراع روبوت لا

[1] "القِحْفُ: أحد أقحاف ثمانية تكون عُلبة عظمية هي الجمجمة، وفيها الدماغ". (نفس المعجم السابق؛ ص. 742).

يخطئ المسافات؛ موصولة بلاقط صوت وبعين اصطناعية ثُبّتت مكان الطبيعية هي عدسة التصوير.

قال أحمد متنهدا ومُجهداً مما رأى:

– يُدسّ الجاسوس في جماعة بشرية بأحد البلدان، وقد أصبح هذا الجهاز عنصرا في منظومة جسده؛ يقتبس طاقة تشغيله من دقات القلب ومن حرارة الجسم؛ حيت تتمدد أغشية وتتقلص؛ تنقل عينه الاصطناعية ما يسود من تواصل وعلاقات، وما يروج من أنباء وما ينجز من أعمال وما يُخطط له؛ إلى محطة استقبال توثيقية في مكان على سطح الكرة الأرضية، كما يحدد إحداثيات وجوده في أي مكان؛ سواء على اليابسة أو في أعماق البحر أو في الأجواء. يُعد هذا الجهاز طَفرة في عالم تكنولوجيا الجاسوسية.

كان أفراد الرحلة يجوبون القاعة الواسعة؛ يرسلون أنظارهم في الجثث، وفي الرؤوس المشقوقة، وفي آلات الصدع بالليزر، وفي الرقاقات الإلكترونية، وآذانهم تصغي لما يقول العالم أحمد، ثم هدّ عَالَم التشريح التكنولوجي قواهم العقلية والعضلية والبدنية، وكان محسن أول المغادرين للمكان؛ أسرع وانتحى ظل شجرة وانهار على الأرض؛ يملأ جوفَه بالهواء ويُنعش عقلَه بالأوكسجين، وتبعه الجميع في سكوت.

نادى محسن وهامته على جذع الشجرة وعيناه مغمضتان:

– يا قارئ الآلات الكاشفة ارجع إلى القبو، واثبت مهارتك؛ فإن سر ما كان يحدث ما يزال في غياهب المكان.

قال أحمد:

– أ لا نبحث في مضاجع العلماء والسجناء؟

قال محسن وهو يعرف ما يقول:

– لن تجد ما يقودك إلى طرف الخيط. كان كل ما تقرأ وراءه قصة هؤلاء يُطمس ويُدمر.

لم يتأخر القارئ للآلات وهبط. ما هي إلا دقائق قليلة حتى أطل برأسه وعلى شفتيه ابتسامة نصر. تحلق الجميع حول المسجل، وأعيد أمامهم الكشف؛ فالتقطت أنظارهم ما عقد ألسِنتهم؛ في أمعاء إحدى الجثث كتلة من أوراق مبلوعة.

قال محسن:

– كان للتدوين على الورق جريمة جزاؤها الشنق، والقصة الحقيقية للجزيرة في هذه الأوراق.

وقُرِأت الإحداثيات؛ فحُدد مكان صاحب الجثة البالع للأوراق، فقام محسن وغاب ليعود حاملا كيسا بلاستيكيا. رفعه في عيون أفراد الرحلة فرأوا أوراقا بكمية كبيرة ظلت محفوظة في الجوف.

قال حسن:

– بَلَعَ الأوراق خوفا على حياته، ولم يكن يدري أنها هي التي ستقُص ما كان يجري.

قال محسن بقلق:

– أ ما زالت على هذه الأوراق كتابة ذات مضمون؟

قال أحمد وقد بدا عليه الإرهاق:

– سنقيم هنا يومين أو أكثر؛ فإننا نحتاج إلى وقت كاف لأخذ أجزاء من المواد نموذجا لهذه، ونسجل كل ما في الأقبية من الجثث المحفوظة، والهياكل العظمية لمن قُتلوا، والآلات والأجهزة وأدوات التشريح، وما في محيط المكان من علامات دالة، ثم بعد ذلك نأخذ عينات من تربة وصخور الجزيرة، ومما تفردت به من نباتات وثمار برية، ونُوثّق معطيات الطقس المسجلة بآلات الرصد. تصدوا لكل ما يُزودنا بمعرفة شاملة حول الجزيرة.

نصبوا خيامهم، وتحت ظلال أقمشتها تناولوا طعامهم، ثم تفرقوا بحيوية وبجدية، كل واحد منهم يقوم بما يختص به.

أما العالم أحمد ومحسن وحسن وعبدالله؛ فإنهم اجتمعوا في خيمة حول مائدة. وُضع عليها كيس الأوراق المبلوعة. قال محسن:

– بَسْط الأوراق باليد قد يُشقّق المداد إلى ذُرارة فلا يبقى ما يُقرأ.

قال أحمد وقد بدا أكثر هما:

– فلا مفر إذا من تصوير كتلة الأوراق بالأضواء المتدرجة؛ لسبر طبقاتها ونشرها إلكترونيا.

أُرسلت كتلة الأوراق إلى مختبر التصوير بمخيم القاعدة، وقام من ظل هناك بالتصوير والتحميل. بعد أن أُرجعت؛ مكثوا ينظرون وبرنامج سبر الطبقات يُعيد

نشر الأوراق؛ فلاحظوا أنها صفحات من كتاب بحروف مطبعية، وعلى هوامشها البيضاء وبين السطور فقرات خُطت باليد.

نظروا إلى بعضهم البعض بذهول. قال محسن:

– إنها صفحات من الإنجيل.

قال عبدالله بهدوء:

– هل سُمح للعلماء والسحناء بالاحتفاظ بنسخ من الإنجيل؟

قال حسن قائلا:

– لا أستبعد أنه كان يخضع لمراقبة دورية.

قال محسن:

– ولم يجد هذا الشخص ورقا يحرر عليه رسالة ينوي أن يبعث بها إلى خارج الجزيرة، أو يُدوّن عليه مذكرات حبسه بهذا المختبر...

قاطعه أحمد قائلا:

– فخط الحكاية بقلمه على صفحات هذا الكتاب، ولا أستبعد أنه أخذ الفكرة من نُدرة الورق أو الرقّ في قرون أوروبا المظلمة، واستعمال مخطوطات العصر القديم اليونانية والرومانية؛ لتدوين النصوص الدينية من طرف رهبان الأديرة.

قال محسن:

– لنقرأ، فقد نجد بين طيات الورق جوابا على ما التُبس علينا.

بدأ محسن يتهجى حروف خط طال عليه الزمن فتضرر، والآخرون يصغون إليه باهتمام بالغ:

"لم أجد ما أدون عليه قصة خطفي والمجيء بي إلى هذا المختبر؛ بهذه الجزيرة المنعزلة في هذا المحيط من المياه الشاسع؛ غير أوراق هذا الكتاب؛ لأن أمرا كان قد صدر من أولئك الذين يحكمون الجزيرة ويسيرون شؤونها؛ بتدمير وإحراق ما بحوزتنا من أوراق هويتنا وغيرها، وتلك التي نُوثّق عليها ملاحظاتنا واستنتاجاتنا العلمية؛ فكانت هذه تُسحب منا بعد دقائق من تسويدها؛ حتى لا يتسرب إلى الخارج ما يجعل الناس يعلمون بما يجري في هذه الجزيرة؛ التي أقيم بها أبشع مختبر للتجارب في تاريخ البشرية؛ ولأفظع عملية تحويل الإنسان إلى صناعة تُخضع الشعوب المستضعفة وتدر أموالا طائلة تقدر بالمليارات.

كنت أحد علماء مختبرات ألمانيا النازية. أُقتيد بي مُحبطا أتجرع مرارة الخسران والهزيمة؛ إلى هذا البناء الدامي -ولا أدري مآل عائلتي- إنه مركب اختباري لا مثيل له في العالم؛ بعض أهدافه غامضة؛ ذو نظام عمل معقد، وينفرد بتجارب غريبة، وإذا حاولتَ أن تصنفه، وتفهم ما يجري فيه ولأي غرض فإنك لن تستطيع. جاء التخطيط له بعد الحرب العالمية الثانية؛ التي استخدم فيها آخر ما توصل إليه الانسان من اختراعات وابتكارات؛ سُخرت لأهداف عسكرية؛ فطور المتحاربون من أداء الغواصات والبوارج الحربية والطائرات، ووسائل التجسس والاتصال؛ فاتسعت بذلك رقعة الحرب؛ لتشمل مختلف بقاع العالم؛ فهي في القارات والبحار والمحيطات، وإنزال الفيالق لم يكن في مساحة معركة واحدة؛

كما هي عادة الشعوب قديما، أو في جبهة ثابتة؛ بل في أكثر من قارة ومن ساحل؛ فقُتل فيها الملايين من المدنيين والعسكريين، واستخدم فيها السلاح النووي. كانت لهذه الحرب مخلفات وآثار وتداعيات؛ فأهبة دائمة لحرب ثالثة محتملة، والتشبث بالحياة إلى حد الهوس. لن يتأتى ذلك إلا بالاهتمام بالعلوم الاستشرافية والانجازات المستقبلية؛ لحيازة قصب السبق واكتساب الريادة، وكان الخوف كذلك من يقظة الشعوب في البلدان المستعمَرة.

الذين أنشأوا هذا المركز المستقبلي غير معروفين؛ ففكرت مليا وخلصت إلى حد ما إلى أنهم مجموعة من أفراد أثرياء؛ أصحاب الشركات العالمية؛ يدْعَمون حكوماتهم وبلدانهم؛ يريدون إعادة تشكيل المجتمع الانساني؛ حتى لا تكرر مأساة الحرب العالمية الثانية، ويكونون أحد ضحاياها. لن يتأخروا في إبادة شعب بأكمله إذا كان وجوده يهدد مصالحهم وحياتهم؛ فلا تستغرب إتلاف أعضاء من أجسام أفرادها وتعطيل أجهزتهم التناسلية للحد من تكاثره، وإذا أدركوا أن هؤلاء يُكنّون العداء ويُخطّطون للمواجهة؛ فاستقدموا إليه علماء بطريقة لا تفطن أنها سرقة للأدمغة، وسجناء وسجينات. لا يعرف السجين إلا أنه في مصحة وأنه سيخضع لعملية جراحية؛ فيُستدعى المتخصص منا، ولا يعرف هذا إلا أنه سيقوم بعمل لا يُتقنه غيره، وما الحكام والزعماء إلا دمى من خشب تحركها خيوط هؤلاء.

ونحن غارقون في عمق التنظير والتجارب، وماضون إلى أقصى النجاح، جاءت فطنتنا عندما شاع خبر أننا نحن العلماء؛ ذباحون وآكلون للحوم البشر، ومن

يدري لعل اللحم الذي يقدم إلينا في وجبات الأكل؛ هو من أجساد هؤلاء المساجين، وأن آخرين يَغتنون، وأننا نصنع أجزاء من قنابل نووية وعنقودية تحول مجرى التاريخ الانساني. لا تُركب أمام عيوننا، وإنما في مصنع آخر لا نعرفه، وغازات تدمر أو تُتلف أو تُغير وظائف أعضاء الانسان، ونعبث في الجينات الوراثية.

فتوزيع المهمات داخل هذا المركب كان يجري بمنهج خفي وفي غاية الذكاء. لا تشك أبدا أنك تمارس عملا يُثمر ما يُغني الحصيلة النهائية، ولعل خبراء في مجال التسيير هم من تصوروه ونفذوه.

في إحدى الأُمسيات والحراس يقصفون؛ ضمّنا اجتماع فيه ثلاثة علماء وستة مساجين. قررنا الاستيلاء على أسلحة الحراس، وأُبلغ أحد ممن يغادرون أسِرّة التمريض إلى منجم الذهب والماس، وحتى إلى من كانوا يعملون بمصنع جلود الحيوانات خُطة ثورتنا. نصبنا كمينا بأن استدرج سجينات جميع الحراس إلى حجرة؛ فأحطنا بهم وسربنا في أجوائها غاز الإغماء؛ فتساقطوا وهم عشرة، ثم حملنا البنادق وصحنا في باقي من كان بداخل المختبر؛ من العلماء والسجناء والسجينات بأن: "أُخرجوا فلا فرصة ستسنح لكم بعد هذه"، وخرجنا، وما كدنا أن نجتاز عتبة حجرة الإدارة حتى شُهر مسدسان في وجوهنا. كان واحد بيد حاكم الجزيرة والآخر بيد قبطان السفينة الحربية؛ خلفهم كان يسير راهب الجزيرة؛ لم يتأخر أحد من السجناء فذبحه صائحا: "كان يأتي الكثير من الفواحش. إنه دجال ولم ينفعه علمه الديني إلا في استجداء الجبابرة العتاة"؛

فشرع القبطان العسكري في إمطارنا بالرصاص وقتل الكثير؛ فأفرغنا في جذوع أجسادهم ما احتوته بنادقنا من رصاص؛ فأرديناهم قتلى. كان صوت الطلقات قد سمع من طرف جنود مُعسكِرين في شواطئ الجزيرة. كانوا يفوقوننا عدة وعددا؛ فأدركنا أن لا طاقة لنا بهم في ذلك اليوم؛ فارتد الجميع على أعقابه؛ إلى المنجم وإلى معمل الدباغة وإلى قبو المختبر. حشرونا في الغرف الضيقة وفي مدخل القبو، وأوصدوا دوننا الأبواب. في الغد سمعنا وطء أقدام حازمة وأصوات البنادق تُلقم الرصاص...".

رفع محسن رأسه وأعلن أنه انتهى من القراءة.

قال حسن وقد غدا أسيفا بأثر ما سمع:

– وكان ما حدث أن أُبيد العلماء والسجناء رميا بالرصاص؛ الذي ما يزال منتشرا بين الجثث المتحلّلة والعظام، وكذلك فعلوا بالعاملين في المنجم وفي مصنع الجلود، وأُسدل الستار على الجزيرة. كان يحاط بما يجري فيها بسرية تامة، وظلت هكذا لا نأمة حياة فيها.

قال محسن:

– والأرجح أنهم فُتشوا قبل قتلهم، لذلك بلع الذي قص ما حدث الأوراق.

قال عبدالله موضحا:

– كانت قد وفدت فرقة عسكرية أخرى؛ دعمت تلك التي كانت مُعسكرة من قبل، وقد قال الجاني للمحار وبلح البحر أن سفينة رست وأن قتالا وقع، ودُفن الثلاثة في وقت واحد وفي نفس المقبرة: الحاكم والقبطان والراهب.

قال العالم أحمد:

– هذا ما جرى وبمقدورنا أن نفعل الكثير تقديرا لهؤلاء الموتى من العلماء والسجناء والسجينات. أنبئوا الآخرين بأن ساعة رحيلنا عن الجزيرة قد حانت.

اجتمع أفراد الرحلة في مخيم القاعدة، وجعلوا ما جمعوه من عينات وأدلة وما وثقوه في صناديق صيانة، وطووا خيامهم؛ ثم انتظموا كشأنهم دائما في المجموعات الثلاث، ولم يبق أحد منهم من أثره شيئا على شاطئ الجزيرة. غادرت بهم الطائرة والغواصة كذلك والمركب، وبحوزتهم ما يكفي لتحرير تقرير شامل، أو لتأليف كتاب حول جزيرة صناعة الانسان؛ يُلفت أنظار العالم فيتساءل البعض:

"هل هذا حقيقة أم هو من نسج الخيال؟".

بعد ظهيرة يوم مشمس من شهر أبريل؛ رأى من كان يستروح من الطلبة أجواء الشاطئ الهادئة؛ سفينة عملاقة وبيضاء. يرفرف على سواريها علم أخضر؛ يطبعه رسم للكرة الأرضية بلون أزرق؛ تدنو من شاطئ الجزيرة، وتلقي بمرساتها، ثم تُنزل رافعاتُها ثلاثة قوارب للرسو بتصميم عصري؛ ذات سقوف تحمي من يركبها من رذاذ الأمواج وبرد الرياح في جو عاصف، وتدفع بها المحركات، فترتفع مقدماتها شاقة الأمواج، وقد ظهر أنها تتجه للرسو على الرمال، ثم يخرج منها رجال ونساء؛ تختلف ملامحهم وسحناتهم؛ فبعضهم شُقر من سكان أوروبا وشمال القارة الأمريكية، وآخرون من آسيا ذووا البشرة الصفراء والعيون الخطية، والبعض الآخر من إفريقيا ذووا البشرة السمراء. إنهم جماعة من الناس متعددي الجنسيات.

قال من قدموه عليهم إلى الطلبة:

– هؤلاء مندوبون من المنظمات الإنسانية، وأعضاء من جمعية المحققين بلا حدود في جرائم الحروب، والبعض ممن يحتمل أن يكونوا من ذوي من قتل –ابناء وحفدة– في الجزيرة التي حكى كتابكم ما كان يجري فيها. إننا نريد لقاء أستاذكم العلامة.

ابتسم الطالب في وجوه القادمين وقال:

– مرحبا بكم في جزيرتنا.

كان الوافدون يطؤون الرمال بحذر. أَ وَ في ظنهم أن رمال الجزيرة ليست كباقي الرمال؟ خطوا ببطء وافرنقعوا[1] في طول الشاطئ؛ يُقلّبون أنظارهم في الأرصفة المعشوشبة جوانبُها، والممتدة في ثنايا بديعة، وفي المركبات الكهربائية ذات السطوح الزجاجية المقببة. في انسيابها صمت وهدوء، والمكان طافح بروائح زهر الشجر والورود، ورذاذ مياه منفوث يُنعش النباتات، والأشجار تتدلى أغصانُها بثمار يانعة؛ فقطفوا ما اشتهت إليه نفوسهم. جاءت ثلاث عربات؛ الواحدة تلوى الأخرى. فُتحت أبوابها. قال الطالب للمُقدّم من طرف القادمين:

– أُدخلوها مطمئنين؛ فلِحفاوتها تفَرد.

استقل العربات الإلكترونية ستة منهم فقط؛ سيدتان وثلاثة رجال ومُقدَّمهم. بعد نصف ساعة كانوا خلف دليلهم الطالب؛ يدلفون إلى مقر المجلس العام للعلماء. كان في انتظارهم جمع ضم الأستاذ العلامة والعالم أحمد ومحسن وياسين

---

[1] افرنقعوا: تفرقوا.

وحسن وعبدالله، وبعض العلماء الآخرين؛ جلس هؤلاء في جانب من المائدة الطويلة، وفي الجانب الآخر جلس الوافدون؛ وعيونهم لا تبرح وجه الأستاذ العلامة الوضاء، وفي بواطنهم تعظيم لهذا الرجل، ويجوبون بعيونهم المشدوهة في أرجاء القاعة. قال مُقدَّم الوافدين:

– إنكم بحق ذوو كفاءة علمية وأُوتيتم أخلاق العلماء، وإلا لما أرسيتم بمثل مدنية العلم هذه ولا طرأت عليكم فكرة استكشاف المجهول والمطمور في تلك الجزيرة.

قال الأستاذ العلامة:

– ما نتفرد به وهذا هدفنا دائما؛ هو سيادة ذوي العقول النيرة في هذه الأرض؛ الفرد منا وفي مجتمعنا يستنير بعلم منذ نعومة أظفاره؛ فلا جهل ولا بلادة دنيوية بيننا. إننا نعزي ذوي النفوس المكلومة في العالم؛ فيمن مات مقتولا أو مسحولا أو مقيدا في الأصفاد وأغلال السجون، أو امرأة أُسْتُبيح عرضُها وعُبِث برحمها. سبقكم إلينا سبب قدومكم.

قال المقدَّم:

– أدهش كتابكم الملايين. يظل القارئ بعد الصفحة الأخيرة يتأمل؛ فلا يُعقّب الذي في صف الانسانية بغير الإعجاب والخجل، والذي كان طرفا فيما حدث فلا يشعر إلا بالخزي.

قال الأستاذ العلامة وهو يقدم حاملا إلكترونيا إلى المقدّم:

– هذا تقرير بأكثر من ألف صفحة حول (جزيرة صناعة الانسان)؛ فقد أنار علماؤنا لكم الدرب إلى هناك؛ الذين تربوا على الأمانة العلمية ولما فيه خير للناس.

قال المقدّم:

– إن البشرية تستضيء بنور عقولكم وتشكركم على ما أمطتم عنه اللثام.

قال الأستاذ العلامة:

– لا نتأخر عما يوجبه العلم من البحث والتدقيق والإقرار بالحقيقة.

عاد الوافدون ومقدَّمُهم إلى قواربهم، وعيونهم ما تزال متعلقة بجزيرة تلامذة العلامة. منهم من فكر في أن يتخذها مستقرا له؛ حاملين معهم التقرير الشامل، ثم أبحرت بهم سفينتهم في اتجاه (جزيرة صناعة الانسان). بعد أن اطلعوا على واقعها وحقيقة ما حُكي عنها؛ قاموا بما توجبه أرواح الموتى؛ وهو دفن الأجساد التي كانت محفوظة وقد أرجعت إليها أعضاؤها وأجهزتها، وما تبقى من جثث وعظام الذين قُتلوا في المواجهة في مقبرة واحدة، وجعلوا أمكنة الجزيرة متحفا؛ فتقاطر الناس على الجزيرة من أنحاء العالم؛ وكأن لكل واحد قريب له كان ضحية ما جرى، وهو الآن دفين تربة الجزيرة؛ فيتأسف ويأسى لما يرى، ولأن أغلب من أُقبروا مجهولون، ولم يُسعف الحمض النووي العلماء في تحديد هويتهم.

الفصل التاسع

اختطاف الأستاذ العلامة

في أحد اجتماعات المجلس الأعلى لعلماء الجزيرة، وباقتراح من الأستاذ العلامة؛ تقرر القيام برحلة علمية إلى أعماق مياه البحر المحيطة بالجزيرة؛ لتثبيت مجاسّ على الرصيف القاري؛ لمراقبة نشاط البركان الذي هو بؤرة التكوين الجيولوجي لأرض الجزيرة، والقيام بمسح طوبوغرافي وإحيائي للأراضي الغارقة؛ فعُيّن من العلماء والطلبة من سيقوم برحلات الغوص؛ أحمد عالم البحار والمحيطات، وعبدالرحمان عالم الزلازل، وياسين أستاذ المركبات المتفاعلة مع محيطها، وعبدالله وحسن ومحمد، وسيقود هذه الرحلة أيضا العالم أحمد، ولتسهيل عملية التراقص بين الأعماق وسطح البحر للتزود بالأوكسجين الذي يعبأ في القَناني، وتحليل عينات من صخور الأعماق؛ تَمّ تركيب طوافات متحركة على الماء؛ على سطوحها حُجُرات للمبيت، وأخرى مختبرات للتحليل، كما خُصصت واحدة منها لأجهزة استقبال ما تصوره وتسجله كاميرات الأعماق؛ يجلس إليها العالم أحمد في مُناوبة مع عبدالرحمان؛ لتتبع أطوار الرحلة، وللإرشاد والتنبيه من مخاطر الغوص.

كانت رحلات الغوص هذه تجربة فريدة؛ خاضها أفرادها بحماس وبجدية؛ فاكتسبوا مهارات، وعرفوا الكثير من المعلومات عن أعماق البحار والمحيطات، وتعلموا كيفية التكيف مع عالَم ما يُبقي الإنسان فيه حيا هو مقدار من

أوكسجين مضغوط في قنينة، أو مُنْتَج داخل الغواصة بالتحليل الكهربائي لماء البحر المالح[1].

كان عبدالله عندما يعود في المساء مهدودا بالغوص؛ الذي يتطلب جهدا لحمل قوارير الأوكسجين على الظهر، وحركات عضلية مجهدة لتحريك الزعانف الطويلة والعريضة؛ ينزوي في حجرته ويفتح مذكرته ليدون عليها الأحداث اليومية، ويعود كما اعتاد مرة بعد مرة؛ إلى رسومات تلك الأجسام التي كانت تطفو على سطح البحر مدة قصيرة من الزمن ثم تختفي. لم يعرف كنهها وإن تصور تكوينا لتكنولوجيتها وأهدافها، وكان قد نسي أن يُريها لأستاذ المركبات المتفاعلة.

حمل مذكرته وغادر الحجرة. كانت ظلمة الليل قد زحفت. خطا على قاعدة الطوافة الخشبية؛ فسُمع لوطئه وقع، ورفع رأسه ناظرا إلى القمر الذي كان في شكل هلال مُضيء، ثم لمح أحدا يجلس على كرسي يتأمل صفحة الماء، لم يعرف من هو؛ فسار يدنو منه حتى عرف الشخص الجالس؛ إنه ياسين أستاذ المركبات. كان يقرأ في كتاب؛ على ضوء المصباح ذي البطارية المشحونة بالكهرباء والمثبت على جبهته. انتبه ياسين لقدوم عبدالله، وقال:

- ابحث لك عن كرسي وتعالى لنتسامر ونُناجي القمر.

جلس عبدالله على مقعده وفتح مذكرته قائلا:

---

[1] يتم تزويد الغواصة وهي في أعماق البحر بالأوكسجين عن طريق تحليل ماء البحر المالح بقطبي الكهرباء الموجب والسالب؛ يُنتج الموجب الأوكسجين، وينتج السالب الهيدروجين.

- هذا رسم لجسم غريب.

وجه ياسين ضوء مصباحه الباهت إلى الصفحة، وقال:

- أ لم تخطيء رسمه؟

قال عبدالله بثقة:

- رسمته بالشكل الذي التقطته عيناي.

سأله الأستاذ مرة أخرى:

- هل بهذا الحجم الصغير؟

وكان عبدالله قد خط بالسنتيمترات، وما يُقابلها من الحجم الحقيقي لذلك الجسم؛ فقال:

- نعم ولم أُخطئ قياسه في الواقع.

قال الأستاذ:

- إنها أجهزة متحركة؛ تمسح كاميراتها في دائرة كاملة بالثلاثمائة وستين درجة؛ ناقلة بالصوت والصورة لكل ما يظهر على سطح الجزيرة. هل لاقتفاء أثر شخص أم شيء آخر؟

قال عبدالله بتحفظ:

- إذا فكرنا فبهدف اقتفاء آثار الأشخاص، فإن أقمار التجسس كافية بأن تنقل ما يحدث في السنتيمتر المربع من الجزيرة.

قال ياسين مُعجبا بملاحظة عبدالله:

- هذا ما وجدتني أخلص إليه أنا أيضا.

قال عبدالله متسائلا:

– فمن يكون هذا الشخص الهدف؟

قال الأستاذ ياسين:

– لم يبق من مدة رحلتنا إلا يوما واحدا وسنعود؛ فنعرض الأمر على المجلس الأعلى للعلماء.

قبيل غروب شمس ذلك اليوم؛ عاد فريق رحلة الغوص العلمي إلى الجزيرة، وما كادت أقدامهم تتحسس طراوة الرمال المجففة بأشعة الشمس؛ حتى ارتفع صوت محسن عالم الآثار والتاريخ من جهاز استقبال؛ كان يحمله العالم أحمد؛ يقول:

– التحقوا سريعا بمقر المجلس الأعلى؛ فإن الأستاذ العلامة قد اختفى.

كان أول من نطق بحَنق هو عبدالله. قال:

– فعلتها تلك الأجسام الغريبة التي كانت تطفو وتغوص.

فنُودي على العربات؛ خفت بهم ولفظتهم على الرصيف كحبات الخَرَز، وتوجهوا إلى المدخل، ثم إلى قاعة الاجتماعات وأخذوا أماكنهم. قال الأستاذ ياسين موجها كلامه إلى عبدالله:

– أرينا ما سَوّدته من رسوم في مذكرتك.

اتجهت عيون الجميع إلى ما رُسم. قال ياسين:

– هذه مركبات تطفو على سطح البحر وتغوص؛ بكاميرات تصور بدائرة الثلاثمائة والستين درجة؛ هي التي حددت مكان وجود الأستاذ العلامة.

قال العالم أحمد:

– إذا فإننا كنا مراقبين.

قال عبدالرحمان:

– هل لهذا الوقت الذي اختطف فيه الأستاذ العلامة من سبب؟

قال محسن:

– لا أرى في فضح ما جرى في جزيرة (صناعة الانسان) سببا آخر غيره.

قال العالم أحمد:

– إن كان هذا هو السبب أو غيره؛ فالأولى أن نسرع إلى الاهتداء إلى المكان الذي سيق إليه الأستاذ.

سأل العالم أحمد محسن قائلا:

– أين كان الأستاذ العلامة لحظة اختطافه؟

أجاب محسن:

– كان يتمشى على شاطئ الخليج للاستجمام.

سأل العالم أحمد:

– هل كان برفقته أحد؟

قال المعلم مصطفى:

– لا؛ كان بمفرده. هذه عادته.

قال أحمد:

– لم يتسرب إليه الخوف يوما. كان على ثقة بنفسه وبما يفعل.

أردف سائلا:

– منذ متى؟

أجاب المعلم:

– منذ الصباح الباكر من هذا اليوم.

سأل مرة أخرى العالم أحمد:

– هل سمعتم مثلا أزيز طائرة مائية، أو قارب كان يدنو من شاطئ الخليج؟

قال محسن:

– لم نسمع صوتا نشك فيه، ولم تلتقط أجهزة المراقبة شيئا مما سألت عنه.

قال أحمد:

– لا يمكن إذن أن يتنقل المختطفون في مياه الساحل وبين الأجراف الصخرية للخليج مترصدين؛ إلا في غواصة يُحتمل أن تكون مُغلّفة بغِشاء يُقوْقعها؛ فلا تُصدر تَمغْنط محركاتها لتلتقطها أجهزتنا، وتلك الأجسام المتحركة والطافية مرة وغائصة مرة أخرى؛ هي من حددت مكان وجود الأستاذ العلامة في اللحظات الأخيرة لعملية الخطف؛ فأين ذهبوا به؟ هل لاستجوابه للحصول على معلومات ذات قيمة. هل لقتله؟ لا ندري حقيقة الأمر.

قال عبدالرحمان:

– فماذا سنفعل من أجل الأستاذ العلامة؟ أ نبقى هنا كتماثيل رومانية من المرمر[1].

[1] يختلف المرمر عن الرخام؛ في أن المرمر يتكون في الطبيعة كيميائيا، وهو شديد البياض، أما الرخام فهو صخر كِلسي متحول.

قال محسن:

– لنُكلّف طلبة باستطلاع أرجاء البحر بالمركبة الطائرة؛ لا يظهرون لأحد في ظلام الليل.

قال العالم أحمد موجها أمره إلى ثلاثة من الطلبة:

– عبدالله وحسن ومحمد؛ رؤيتكم من الجو ستُمكّنكم من رصد نور مصباح أو معدن يعكس ضوء القمر، وستلتقط أجهزة الطائرة ما نستدل به.

ارتفعت الطائرة؛ دفعتها المراوح الأفقية وبسرعة؛ لا يُسمع لها صوت إلا احتكاك الريح بصفائح الألمنيوم الخفيفة؛ تجاهد الرياح، وغابت فيما رواء الأفق. جلس الآخرون أمام شاشات؛ يظهر عليها المسلك الجوي المتسارع أمام الكاميرات الأمامية للطائرة، وكاميرا الأسفل تُصور بساطا من مياه البحر يُسحب من تحت المركبة بسرعة فائقة، وهي التي التقطت بومضة برق نور سفينة راسية في توغلها في البحر؛ فنادى العالم أحمد في جهاز الاتصال على الطلبة الثلاثة:

– حسبكم؛ ارجعوا.

سأله محسن:

– بماذا أوحت إليك تلك السفينة؟

قال العالم أحمد:

– شكلها ووجودها في وسط البحر يثير الشك. شغِّلوا ما سجله جهاز التسجيل، وركزوا انتباهكم على اللقطة الحاسمة.

ما أظهرته جعلت العالم أحمد يقول:

– لا أشك في أن السفينة راسية كدجاجة حاضنة، أو كحيوان الكنغر يأوي صغيره في كيسه.

سأله عبدالرحمان:

– ماذا تعني؟

أجاب العالم أحمد:

– جوف السفينة مفتوح على أعماق البحر.

قال محسن:

– تريد أن تقول بأن هنالك جسر اتصال عمودي بين السفينة الطافية وغواصة قابعة في عمق الماء، وفي هذه الأخيرة الأستاذ العلامة؟

قال العالم أحمد:

– بل أكثر من هذا؛ إن الأستاذ العلامة مُحتجز في محطة تحتمائية كانت بغرض الأبحاث العلمية؛ في عمق قد يزيد عن أربعمائة متر.

قال عبدالرحمان:

– هذا تحد لنا.

قال محسن وكأن شيئا أضناه:

– امتحان عسير.

قال عبدالله وقد ثارت ثائرته:

– مجانين. يريدون أن يُخضعونا بالقوة.

قال عبدالرحمان بعصبية:

– رياضة ذهنية هذه التي سنخوضها.

قال العالم أحمد كابحا جماح الجميع:

– كما ترون اهتدينا سريعا إلى مكان حبس الأستاذ العلامة؛ بالتدرج من فكرة إلى أخرى؛ كذلك سنفكر في طريقة ذكية لتحريره، ولم نعرف حتى الآن إلا القليل؛ لذلك سنرسل إلى هناك من يمدنا بالمزيد من المعلومات التي يجب أن تكون دقيقة وصحيحة.

بعد لحظة صمت أصدر أمره ثانية إلى عبدالله ومحمد:

– أنتما ولا أحد غيركما؛ ستغوصان في قعر البحر الذي يوجد مباشرة تحت السفينة الرابضة بحنان على الموقع. خمنا ما يجب عليكما القيام به؛ لنرى ما يجري في محيط المحطة التحتمائية، وما بداخلها.

نحيا كرسييهما جانبا وسارا. توقف عبدالله وأدار وجهه إلى العالم أحمد مبتسما؛ فقد أدرك ما يتطلب منهما فعله. وضع يده اليمنى على كتف محمد حاضا إياه على السير حثيثا.

كانت الغواصة راسية في مرآبها المائي؛ تخضع لصيانة دورية من طرف تِقنيين؛ فلا يُشك أبدا في مدى أدائها، ولا يُتطلب تشغيلُها حركات ميكانيكية؛ فهي تستجيب للمسات الأنامل على تقسيمات شاشة حساسة. رَقَن محمد إحداثيات مكان السفينة الحاضنة؛ فظهرت دائرة تنتشر في محيطها أجسام. مال رمز السفينة إلى المركز؛ فدارت الغواصة حول نفسها، وغاصت في الماء بسرعة

فائقة؛ في مراوغة لما تَضرّس؛ يرتدّ إليها صدى التوجيه؛ عندما يصطدم بأي حاجز. كان كل ما زُوّدت به الغواصة من آلات تصوير وتسجيل رصد يُرسل إلى الشاشة العملاقة التي لا تبرحها عيون الحاضرين؛ في القاعة من الأساتذة العلماء والطلبة، وآذانهم تسمع ما يقوله أحمد عالم البحار والمحيطات؛ محللا المعطيات الرقمية التي تبعث بها أجهزة الغواصة، والأطياف والأجسام والأحجام والأبعاد والمسافات والأمكنة:

– إن معرفة ما أحاول ترجمته ضروري لنجاح إخراج الأستاذ العلامة من الحجز؛ فدرجة حرارة الأعماق عشرون درجة مئوية. ضغط المياه أربعمائة الديسي بار[1]. المياه صافية؛ يُتيح هذا رؤية جيدة؛ هل لأننا في فصل الصيف؟ طول المسافة إلى هناك عشرة أميال بحرية؛ وبما أن الميل البحري يساوي كيلومترا واحدا وثمانمائة واثنين وخمسين مترا (1 كيلومتر و852 مترا)؛ فإنها تعادل ثمانية عشرة كيلومترات وخمسمائة وعشرين مترا (18 كيلومترا و520 مترا)، وإذا قطعت الغواصة تلك المسافة في ستة ثوان وأكثر؛ فإن سرعتها تصل إلى ثلاثمائة كيلومتر في الساعة؛ فهي أسرع مما ابتُكر الآن في مجال تكنولوجيا أعماق البحار. ما ترونه سكن بحري ثلاثي الأسطوانات؛ يستقر على رصيف قاري قبالة إحدى الجزر؛ يمتد ذلك الرصيف عرضا إلى عشرين كيلومترا؛ كان قد أُقيم لإيواء الانسان لمدة تزيد عن أسبوع؛ بهدف الأبحاث العلمية في مجال الأوسيانوغرافيا،

[1] الديسي بار dbar : وحدة قياس ضغط مياه البحر؛ وازدياد ضغط المياه مع العمق يؤثر على سلامة الغواصين. ويزداد الضغط بمقدار 1 dbar كلما زاد العمق بمقدار 1 متر .

وإجراء التجارب. أعرف نوعين من المحطات التحتمائية؛ أحدهما صممه الفرنسيون في سبعينات القرن العشرين، وآخر صممه الأمريكيون في نفس العقد، وهذا لا يهمنا أ هو من تصميم هؤلاء أم من تصميم أولئك؛ به حجرتان للنوم؛ في كل واحدة سريران ومختبر وخزانة لعُدّة الغوص، وفُرن كهربائي. يوجد المدخل إلى السكن البحري في الأسفل طبعا، مبني بتقنية تحول دون تسرب الماء إلى الداخل، وعبره يدخل الغواصون ويخرجون بدون أخطار.

وقَبَعت الغواصة خلف مِسلّة صخرية؛ قد يغادر أحد السكن البحري فينتبه لوجودهما، ثم بعد وقت قصير ارتدى عبدالله حُلّة الغوص وضرب بالزعنفتين في الماء؛ دفعتاه في اتجاه المحطة التحتمائية؛ ترك جهازا يلتصق بمغناطيسه بالصفيحة الفولاذية، ثم عاد وانساب صاعدا، وركب كاميرا صغيرة على قمة المسلة الصخرية بين أعشاب البحر، ثم رجع إلى الغواصة. سمع هو ومحمد صوت العالم أحمد يملأ جوف الغواصة صادرا من جهاز الاتصال:

– حسبكما؛ ارجعا.

نقل إليهم جهاز المغناطيس ما يجري داخل المحطة التحتمائية؛ أبعاد حجرات وأشباحا؛ اثنان يستلقيان على سريريهما، والثالث قابع يختلي بهمومه، والرابع جالس إلى مكتب، والكاميرا التي ثُبتت لتتبع ما يجري، ولمعرفة ما إذا كان هناك نظام توقيت يتَّبعه ساكنو المحطة التحتمائية؛ لم تنقل حركةً ذات بال في محيطها.

تنفس الجميع الصعداء؛ فقد كانوا يحيون رحلة الاستطلاع بالغواصة بعقولهم وقلوبهم. التفت إليهم العالم أحمد متسائلا:

– بأية وسيلة نُقل الأستاذ العلامة إلى داخل السكن البحري؟ بغواصة طبعا. لكن بأية طريقة، ما زالت هناك حلقة مفقودة للربط. ستظل عيوننا شاخصة إلى الشاشة.

قال عبدالرحمان وقد لمعت في ذهنه فكرة هادفة:

– إذا ما أخضعنا أعماق البحر لمراقبتنا؛ فماذا عن سطح البحر؟

قال العالم أحمد وبشاشة فوز تبدو على وجهه:

– ها أنتم ترون كيف نزحف بتأن وروية.

أمسك عن الكلام وتصفح وجوه الحاضرين، ثم استقرت عيناه على المعلم مصطفى. قال له:

– اختر يا مصطفى من شئت من أفراد يؤازرونك في مراقبتك لسطح البحر. ستتأكد من أمرين: الأول معرفة أوقات مغادرة (السفينة الكنغر) للمكان والعودة إليه، والثاني إذا ما كان للمختطِفين امتداد إلى الجزيرة التي يستقر على رصيفها السكن المائي؛ مترددين إلى أحد أمكنتها لغرض ما؛ فتوارى أنت وأفراد مجموعتك بمركب الخلايا الشمسية في خليج من خُلجان الجزيرة؛ عُدتك المنظار المكبر، وشاشات استقبال التصوير الفوري من أعماق البحر.

مضى أعضاء الفريق إلى الرصيف المسقوف. كان مركب الخلايا الشمسية باسطا على مياه هادئة ركيزتيه الانسيابيتين. هيكله القصير والممتد طولا وعرضا مُغلّف بألواح تُصدر مزيجا من بريق بنفسجي وآخر برونزي. التقطت نواة عقله الالكترونية عيون القادمين وتضاريس وجوههم؛ فتعرفت عليهم، لأنها عُبّأت

ببرمجة قادمة من مكان سري بالجزيرة، وهذا جميعه في إطار نظام مراقبة صارم؛ فانكمش باب على نفسه، وتراجع ليفسح لهم الطريق إلى الداخل؛ فضمتهم كراسي وثيرة. امتدت أصابع المعلم مصطفى إلى أزرار الشاشة الحساسة؛ فتواثبت اللغة الرقمية مُحدّدة موقع الجزيرة؛ فمال المركب بجبهته المصقولة بالزجاج، واندفع إلى الأمام يلاطف أمواج البحر.

قال محسن مفتقا الأفكار:

– أجهزة مراقبة تحتمائية، ولاقط مركب الخلايا الشمسية، وشاشة إدارة خطة التحرير، ودائرة اللفّ بالغواصة؛ هذه رؤوس مربع الطمر النهائي.

قال حسن في مقابل ذلك:

– أما تحرك المختطِفين فهو خَطّي في الغالب.

قال العالم أحمد مُذكّرا:

– لنبقى يقظين؛ عيوننا على شاشة الاستقبال، وعلى ما تُصوره كاميرا الأعماق، وما ينقله جهاز المغناطيس المخترق للجُدُر الداخلية للسكن البحري؛ فعلينا أن نُضفي على العملية طابع السرعة الخاطفة، ولتدُم ثوان من دقيقة واحدة.

قال محمد بيأس:

– أَوَ نكون في انتظارنا مثل صائد طيور نصب حِبالته، وظل ينتظر الفراغ. هل سيغادر فعلا أحدهم المحطة لتسنح لنا الفرصة؟

قال العالم أحمد:

– إن المتخصصين في اقتفاء آثار الأشخاص لهم علم ودراية بالدوافع النفسانية، والعوامل الخارجية ودواخل الانسان؛ أو تظن أن يمكث الانسان داخل مثل هذه المحطات التحتمائية؛ دون أن يبرحها لتسرح عيناه في أفضية مشمسة وممتدة إلى الأفق، ودون أن يتنفس هواء الخلاء المنعش؟ قطعا لا.

في منتصف ليل اليوم الخامس؛ شدت نظر أحد المجتمعين حركة في جانب من السكن البحري. قال بحماس من حاز قصب السبق:

– أُنظروا.

هرعوا متهالكين على الشاشة الكبيرة، وتتبعوا بعيونهم المحدقة. قال العالم أحمد:

– إن ما تشهدونه وليد يخرج من رحم أمه. كانت هذه فكرة مبتكري المحطات التحتمائية؛ إنها غواصة. هل ينقلون الأستاذ العلامة إلى مكان آخر، أو ضاق بهم المسكن المصفح بالفولاذ والحديد؛ فتاقت نفوسهم إلى بيئتهم الأصلية؟ ماذا يقول الجهاز المغناطيس؟

بدا في الداخل شبحان؛ ما يزال أحدهم يختلي بما تتأثث به حجرته، والآخر في قاعة الجلوس المركزية.

قال عبدالرحمان:

– إذا بقي في السكن البحري شخصان.

قال العالم أحمد:

– اتصلوا بفريق مركب الخلايا الشمسية، وأنبأوهم بأن غواصة ستطفو على السطح في طريقها ربما إلى السفينة الحاضنة.

جاءهم بعد قليل صوت المعلم:

– نعم؛ إننا نرى على ضوء القمر من يُشغّل رافعتي رصيف مؤخرة السفينة التي سترسو عليها الغواصة. إنها على سطح السفينة الآن. يخرج من جوفها شخصان. السفينة تتحرك.

سيُفاجأ الجميع عندما تُسرّ إليهم أسماء الغواصين الذين سيقومون بتنفيذ خطة تحرير الأستاذ العلامة. إنهم العلماء: أحمد ومحسن وعبدالرحمان، ثم الطالب حسن الذي لن يبرح الغواصة؛ لأنه سيحمي ظهورهم من ضربة غادر؛ فعندما كان المعلم يبعث إليهم بتقريره؛ كانوا الأربعة بغواصتهم في تجويف صخري؛ ينظرون إلى غاطس السفينة الكنغر، وإلى الأمواج وهي تحركه، وإلى المروحتين وهما تدريان الماء فتدفعان السفينة، وإلى أستار أضوائها الكاشفة؛ نازلة في مياه الأعماق. سارت ثم ابتعدت؛ فهبطت الغواصة في اتجاه القعر بسرعة؛ كعقاب جائح ينقض على فريسته، وصوت مصطفى يملأ أجواء الغواصة قائلا:

– إن السفينة تتجه الآن إلى الجزيرة السياحية لغرضين: ليقْصِف ركابها بكؤوس خمرة معتقة، ولمداعبة غوان. لا تخلوا لياليهم من أنس ماجن.

أبطأت الغواصة من سرعتها واستوت في الماء، ثم سارت بتُؤدة ودائرة المحطة التحتمائية المنفرجة يتسع محيطها على شاشة المراقبة؛ إنهم في مسارهم إلى الداخل، وما إن ولجت الغواصة حتى تمدد باب مكرشة جوانبه ملتصقا بالغواصة، وهي صارت تُنحي بابها إلى الأعلى منطويا على نفسه تحت سقفها الزجاجي. دخل العلماء الثلاثة إلى المحطة باحتراس. وجدوا حارسا واحدا

منكفئا على طاولة؛ أمامه تنتصب قنينة خمر، وبيده المنهارة كأس ما تزال به ثمالة. رفع رأسه المتدلي ناظرا إليهم بعينين غائبتين. قال:

– أَوَ رجعتم؟ لم أحظ هذه الليلة بغانية. تركتموني مختليا بهذه القنينة المخمرة؛ زجاجها أسن منكم. حدثوني؛ هل نلتم قليلا أو كثيرا من أجسادهن الهلامية؟

قال عبدالرحمان بغضب:

– أُتركاه في عربدته واستهتاره.

انتقلوا إلى الحجرة التي يظهر فيها دائما صاحبها مختليا بما يحيط به، والذي لم يكن سوى الأستاذ العلامة؛ كان يتمدد على أريكة بجسده الواهن. نظر إليهم مبتسما في وجوههم؛ سُرعان ما فترت ملامحه.

قال محسن:

– إنه في غيبوبة. لا أستبعد أن يكونوا قد حقنوه بمخدر للأعصاب والعضلات. احملوه وادخلوا به إلى الغواصة.

لم يتأخر حسن ثانية واحدة؛ فقد همز الغواصة؛ فدبت فيها نعرة انطلاق مفاجئة، ومرقت من رحم المحطة التحتمائية كما يمرق السهم من القوس؛ في اتجاه جزيرتهم.

الفصل العاشر

نهاية الجزيرة

ظهرت جزيرة العلامة في مياه الكرة الأرضية، وازدهرت علوم مدنيتها، وسيكون لها زوال، ويبقى المحفوظ منها مما أنتجته عقول العلماء.

أصاب الأستاذ العلامة مرض شديد على إثر حبسه في السكن البحري مدة خمسة أيام. لا يرى نور الشمس ولا ينعم بدفء حرارة الأشعة، ولا تتجدد الأهوية التي تملأ رئتيه، ويفتقد جسده إلى هبات ريح ساخنة تغلي بها دماؤه؛ فينتظم انسيابها في عروقه التي بدت من تحت جلده الجاف، وظل طريح الفراش مدة شهر.

بعد أن أَبَلّ[1] قليلا أبى إلا أن يقصد قاعة المجمع العلمي؛ التي اعتاد أن يحاضر فيها؛ ليتحدث بقصة حجزه إلى سكان الجزيرة. قاده أصحابه متأبطين ذراعيه وهو يمشي بتأن، والابتسامة المعهودة لا تفارق محياه. مُهّدت له الطريق فجلس على كرسي الأستاذية؛ يرنو بعطف شمل كل الحاضرين، ثم قال:

– أ أكون في رغد من العيش؟ أ أرفل في أثواب من حرير وقطيفة مخملة؟ هل أكون خيرا من العلماء السابقين واللاحقين منهم؟ هكذا كان دائما مآل العلماء أبيي النفوس في كل زمان ومكان؛ الاضطهاد والتعذيب والتهجير والقتل وتكميم الأفواه؛ لأنهم ينطقون بالحق والحقيقة. تروق أفكارهم للبعض القليل، ويصم البعض الآخر الكثير آذانهم عنها. هل أكبح جماح عقلي الذي أُنعِمت به؟ لن

---

[1] أبلّ المريض: برأ.

أتردد في التفكير فيما فيه هناء وسعادة وإخاء. ما دفع هؤلاء إلى خطفي لأن في علمنا بالأشياء فضح لما هم عليه من عقيدة فاسدة، ومنهج شيطاني وتدليس وافتراءات وتلبيس. بينما كنت أتأمل الطبيعة في ذلك الصباح المشمس من صباحات هذه الأرض؛ في وقت كان فيه ما يزال نسيم البحر يهب باردا؛ يُنعش العقل ويُحيي الآمال، ويَذهب بالخيالات بعيدا نحو آفاق تُغري بالاكتشاف والتحقيق؛ حدث ما كان في الحسبان عبثا؛ شخصان مغواران في حلتي غوص؛ دب بهما بغتة قارب مطاطي من مياه البحر إلى الرمال، ثم يقفزان منه ويستنفران قوتيهما، فتمتد أيديهما الصلبة لتُحكم قبْضاتها على ساعدي، ويُرغماني على امتطاء القارب. خاطبتهما:

– مهلا بجسدي الشائخ ورويدكما؛ لقد كلفتما أنفسكما مشقة المجيء إلى عمل لا طائل وراءه.

قال أحدهما:

– إننا نأتمر بأوامرهم.

قال الآخر:

– نتعيش من هذا، ولا مورد رزق لنا غيره.

قلت لهما:

– ما أضعف قلوبكم.

وحلق القارب بي فوق الماء يهدهد جسدي، وأنفاسي ذاهبة وآيبة، وانتابني دوار البحر ففغرت فمي عن آخره استعدادا للتقيؤ. هي لا مبالات صادرة ممن

لا يعرف قدرك. استقبلت القارب غواصة بسواد الغربان؛ التقمتني وغاصت لتظهر ثانية بعد مسافة على سطح البحر، ويستقبلها رصيف سفينة متحرك عموديا بأذرع رافعة إلكترونية. ما شعرت به حفاوة دبلوماسية؛ قال أحد الجالسَيْن بارتخاء أرستقراطي يرمش طوال الوقت بعينيه:

– ليس لنا في خطفك خيار آخر؛ فقد تماديت وتجاوزت؛ فآذيت من حيث أردت أن تجهر بالحق والحقيقة؛ فلو تكتمت وأمسكت لسانك الذي سلطته على رقابنا لكان أهون. ماذا دها أصحابك حتى ينتهكوا حرمة جزيرة (صناعة الانسان)؟ هل استسلموا لروح المغامرة؟ هل أغرتهم عقولهم وشطح بهم ذكاؤهم؟ هل اشتهت نفسك أن ترعى في حمانا؟ لعل هذه اللغة تُرضيك. أردنا أن نُطمر ما كان عليه آباؤنا وأجدادنا، ونترك الجزيرة كما يؤول إليها أمرها؛ أن تفعل فيها الطبيعة فعلها.

قال آخر يرتشف من كوب عصير الليمون؛ يسبح فيه طوب الثلج، ويتلمظ مُتلذذا. فاض لحم شاكِلتيه عن خشبة كرسي محصورة.

– هل تذكرني أيها الأستاذ العلامة؟

حدقت في عينيه مدققا، وتفرست ملامح وجهه، وذاكرتي تستحضر موقفا حاسما. قلت له:

– أذكرك؛ أنت من ترأست أعضاء المجلس الأكاديمي، وحرضتهم وألبتهم علي، ثم سحبت من بين أيديهم ورقة توقيعهم القَسري؛ عليها قرار رفض المشروع والتشكيك في جدواه، وسحب الثقة منه.

قال ثالثهم وهو يزهو بنظارة تحلق بصاحبها مع السحب؛ ذات إطار ببريق حلقات من خشب مُصنّع؛ هو رمز التسلط على كنوز الطبيعة:

– وماذا عن مملكتك العلمية؟

قلت:

– لا أملك شيئا. هي نموذج حي لمن يريد أن يعلم ويتعلم ويحْكم ويَستحْكم ويستعبر، ويُرضي فضوله العلمي.

قال المرماش[1]:

صرفت الناس عما راكمناه نحن من تكنولوجية هي مصدر ثروتنا. أذهلتهم تِقانتُك المستقبلية، وفوق هذا دفنت نفائس مملكتك العلمية ببرامج معلوماتية لا نظير لها ولا تُخترق، وسخرت لحراستها مردة من الجن، وأحطتها بطلاسم ورموز سحرية؛ فأصبحت عسيرة المنال.

قلت لهم:

– أرفض أن يستأسد أحد منكم على الناس بتلك النفائس العلمية.

قال ذو الشّاكِلتين الطافحتين:

– لا ضير عليك إذا سلمتنا مفاتيح خزانتك العلمية، ومتاحفك الطبيعية، وما صغت من نظريات علمية.

قلت:

---

[1] "المِرْماش: من يحرك عينيه كثيرا عند النظر". (ج) مراميش (نفس المعجم السابق؛ ص. 386).

– لا يُستأمن جانبكم، ولا يجب أن تتصرفوا فيما ليس لكم به علم ولا حق.

قال ذو النظارة المخيفة:

– فيما أنجزته انكماش للمسافات الجغرافية في الأرض وفي الفضاء اللامتناهي؛ فغدا الفضاء الكوني أدنى من الانسان، وفيه تمفصل عما تقدمنا نحن فيه من علوم.

قلت:

– أ لهذا اجتمعتم من مشارق الأرض ومغاربها؛ لترغموني على منحكم علما لا تستحقونه؟ وما كنت أظن أن يجعل تواطأكم علي العالم بهذا الصِّغر والقُرب.

قال المرماش:

– أنت فعلا عجوز عنيد.

قال الثاني ذو الشاكلتين الطافحتين؛ موجها كلامه إلى الشخصين اللذين نقلاني بالقارب المطاطي:

– أودعاه السكن المائي الذي تحتنا، واحقناه بسائل الثرثرة، ثم أجلساه أمام الحاسوب لعلنا نحصل على عصارة تنفعنا من علمه.

أنزلاني إلى ذلك الكهف الفولاذي، وفعلا بي بما أُمرا بأن أفرغا في عروقي سائل الثرثرة كما سماه ذلك المُستجْوِب. لم يكن ناجحا؛ فقد ثرثرت أقوالا لا تستقيم على هيئة، ولا أساس لها ولا منهج؛ فلم يجدا مُحتَجِزاي طيلة ذلك الوقت المِمل غير احتساء الخمور والضحك حتى الجنون. إنه الهزل في كل شيء الذي أصبح يطبع العالم، ولا جدية لمن يكذب ويفتري وينافق ويتعالى ويسرق

من أملاك الآخرين. هل حصلوا مني على ما كانوا يسعون إليه؟ لا... فإفراغ الجُعبة لها لحظاتها، وما حُشيت به من معلومات يحتاج إلى صيغ وإلى منهج. ماذا كانوا يريدون مني أن أقول؛ فقد فات الأوان. يوم عرضت عليهم مشروع فكري وعلمي؛ أرادوا أن يأخذوا منه جانبا يصب في مصلحتهم، ويطمسون الجوانب الأخرى، وفي هذا تقزيم للفكر وخلخلة للبنات البنيان التاريخي للعلم. أوصيكم بالتردد على مجالس العلم، والاختلاف إلى قاعات الدرس، وملازمة العلماء؛ فإنهم ينيرون للبشرية الدروب.

كانت خاتمته ابتسامته طافحة، ورجاء وتمني يُطمْئِنان القلوب، وألقى عليهم تحية السلام، ثم قام يتكئ ويطأ بقدميه المرتجفتين على الأرض. ترسل يده المرتعشة قبلات من بعيد. تتلاحق الأيدي بعطف؛ على ثوبه الفضفاض القطني؛ المترامي على كتفيه البارزين، وفي النفوس أثر واقعة خطفه وحجزه.

منذ حادثة الاختطاف وعيون الطلبة على الأستاذ العلامة. يتطوع كل يوم طالبان يحفان به في بيته أو في خَلوته على أحد شطآن الجزيرة، ويخدمانه؛ فبعد لقائه الأخير ذاك بخمسة أيام كان عبدالله وصديقُة محمد هما من تطوعا؛ يجلسان إلى الأستاذ العلامة؛ يسمعان منه ما يُشرح الصدر ويُسعد، ويُستأنس به من طرائف وحكايات ومُلح؛ تتخللها من حين لآخر جدية العلم، ويلوح الأستاذ العلامة بيده مرة في إباء عن ذلك؛ وقد اهتز صدره بضحكة كان محمد قد حاك من واقعة الحجز أضاحيك؛ فأمهله. إلا أن فكرة داهمت الأستاذ العلامة؛ فالتفت إلى عبدالله قائلا:

- أُدع الأستاذ عبدالرحمان بالحضور إلى هنا.

طلب عبدالله الأستاذ عبدالرحمان بجهاز الاتصال، وبعد عشرين دقيقة سمعوا حفيف إحدى المركبات الكهربائية يدنو، ثم سكون وانزلاق باب أوتوماتيكي، فخطوات تقترب، وظهور عبدالرحمان يشغل يدَه حاسوبُه المحمول؛ غمرته سعادة كبيرة بلقائهم، وبجو الأنس الذي كان يشغلهم.

قال الأستاذ العلامة لعبد الرحمان:

- كادت أن تُنسيني الأحداث الأخيرة عما كُنّا بخصوصه.

قال عبدالرحمان:

- المسابير؟

قال العلامة:

- أو ركبتموها كما ينبغي في قعر الرصيف البحري؟

كان عبدالرحمان يُمسك بخريطة بحرية للأعماق؛ تُبيّن نقط تثبيت المجاس؛ فنظر فيها العلامة وقال:

- أي مُعطى طبيعي اعتمدتم عليه؟

أجاب الأستاذ عبدالرحمان:

- تبعا للمنحنيات الطبغرافية.

قال العلامة:

- هذا من حيث الارتفاع؟

أجاب عبدالرحمان قائلا:

– بين مجس وآخر ثلاث كيلومترات.

قال الأستاذ العلامة:

– أحسنتم. أروني الرسوم البيانية التي سجلتها آلات الجس طيلة المدة السابقة.

نشر عبدالرحمان أمام عيني الأستاذ العلامة الورق المليمتري. طالت قراءة العلامة للمنحنيات، والآخرون سكوت ينتظرون بصبر يكاد أن ينفد، ثم قال:

– نحتاج إلى ما ستقوله مسابير أخرى تُثبّت على فوهة البركان.

قال عبدالرحمان بأُهبة لا نظير لها:

– نضعها في الحال.

سأله العلامة:

– بأية كيفية؟

أجاب عبدالرحمان:

– تُنزلنا على منحدرات الفوهة المركبة الطائرة.

قال الأستاذ العلامة:

– أكون سعيدا إذا تتبعت العملية.

قال محمد:

– سنحقق لك ما تريد يا أستاذنا.

جيء بشاشة ونُصبت أمام الأستاذ العلامة، وأبرق من وصل إليه الخبر إلى طلبة الجزيرة؛ فهرول البعض منهم، وتشكلوا في نصف دائرة؛ منجذبين بسمت العلامة وبالإثارة.

برزت من زاوية التصوير المركبة الطائرة وهي متجهة بمقدمتها إلى فوهة البركان؛ تنساب ببطء وبثبات، ولا ترتج؛ لتدور حول صخور البركان المنحدرة على الجوانب، وفي كل دورة من دورات الرحلة يَنزل الأستاذ عبدالرحمان، ويضع مجسا ويُشغّل لواقطه، قفلت به المركبة، فكان ما ظهر بُشرى للجميع.

اشتاقت نفس الأستاذ العلامة إلى الاجتماع بعلماء الجزيرة وبالطلبة؛ بالمجلس الأعلى، والذي هو في نفس الوقت مركز لتحليل ما تنقله الأجهزة الراصدة من معطيات رقمية للظواهر الطبيعية للجزيرة.

كانت العربة الكهربائية التي ركبها الأستاذ العلامة محفة له؛ اجتمع حولها الطلبة وهم يَهزِلون ويضحكون. كان محمد يقول للعلامة من وقت لآخر: "إنك يا أستاذنا بأعيُننا"، والبعض من الطلبة يقلد في سخرية خُدّام الأباطرة والفراعنة بحركات الخنوع، والأستاذ العلامة سعيد بكل هذا؛ قائلا بجدية:

– لا تنصاعوا إلا لسلطان العقل والعلم.

كانت اللحظات تلك التي تجري كأنها بمقياس وحدات زمن طويل، والعلامة والأستاذان أحمد وعبدالرحمان يقرأون المعطيات المرسلة بمجاسّ البحر، وتلك المعلقة على حواف فوهة البركان، ويحللونها ويترجمونها؛ فانبرى من بينهم الأستاذ العلامة قائلا:

– إن نيران باطن الأرض تصهر صخور الجزيرة وجوانب قناة الغليان، سينفجر البركان بعد ثلاثة أشهر. لا أتنبأ بمدى قوته. هل سيُسيخ بالجزيرة في أعماق البحر، أم فقط ستنساب صهارتُه وحِممُه على أراضيها؟ خَطّطوا لعملية إجلاء

الجميع عن الجزيرة، ولا تنسوا من أُقبروا بتربتها، فانقلوا رفاتهم إلى جزيرة (صناعة الانسان) المهجورة. إنها الواقعة وفي ذلكم حكمة وعبرة؛ لتعودوا إلى بلدانكم، ومن شاء منكم فليتخذ من الجزيرة المهجورة مستقرا له، واحذروا فقد يُعظِّمونكم البعض من الناس فينحتونكم تماثيلا؛ يجعلونها آلهة يعبدونها للتدجيل واستقطاب الأغرار من الناس.

وقف من كان حاضرا في سكون وفي صمت مطبق؛ كأن الموت دب بينهم بغتة. رجع الأستاذ في ذلك اليوم إلى بيته سريعا؛ فقد عاوده المرض.

في فجر الغد استيقظ عبدالله من نومه، ولم ينهض من فراشه، وظل في أغطيته وألحفته؛ يستحضر كلام الأستاذ العلامة عن مآل الجزيرة؛ حتى داهمت سمعه طرقات متوالية على الباب؛ فقام وأرسل رجليه إلى الأرض، وأسرع في انتعال ما صادفه وفتح الباب. كان الطارق هو محمد؛ جامد الملامح ولم يتفوه بقول. سبقت حركات لسانه دمع ساح على مقلتيه. قال أخيرا:

– مات الأستاذ العلامة.

رجع عبدالله إلى سريره وتهاوى مجهدا بأثر المصاب؛ دافنا وجهه في باطن كفيه يحزن لرحيل العلامة، ثم رفع وجهه وقال:

– كان لنا مربيا ومرشدا، وحبب إلينا العلم، وعلمنا كيف نبحث ونفكر ونستزيد من المعرفة.

قال محمد:

– كان المعلم البديل.

قال عبدالله:

– خلف بفكره ونظرياته وبمنهجه مدرسة لعلم دنيوي مُبهر.

وسأل عبدالله محمد قائلا:

– أين سيدفنونه وساعة الجزيرة آتية؟

أجاب محمد:

– قرار مكان دفنه سيتداوله علماء الجزيرة.

قال عبدالله:

– سيُعقد إذن اجتماع في هذا الصباح.

قال محمد:

– حتى يتاح لهم الوقت الكافي للإسراع بدفنه؛ لا سيما إذا كان المكان الذي سيعينونه بعيدا عن الجزيرة.

تماسكت يداهما في مواساة أحدها للآخر، وسارا مع الآخرين إلى مقر المجلس الأعلى للعلماء، ووقف الجميع بالباب ينتظرون عما سيُسفر عليه الاجتماع. بعد عشرين دقيقة خرج العالم أحمد يتقدم أعضاء المجلس العام، ونظر في الوجوه الحزينة. قال بكلمات يغمرها الأسى:

– بما أن الأستاذ العلامة لم يوص إبان حياته بمكان دفنه، وبما أن فضل إماطة اللثام عما كان يحدث من جرائم في جزيرة (صناعة الانسان) يعود إليه؛ فإنه تقرر دفنه بها.

شيع سكان الجزيرة جنازة العلامة إلى المرفأ؛ ليُحمل نعشُه في موكب مهيب على مركب الخلايا الشمسية؛ إلى الجزيرة التي كانت منسية فيما مضى من العقود ليُدفن في تربتها، وقدم ممن كانوا بسفينة السلام التي رست يوما بالشاطئ للتحقيق في ضحايا العلم النفعي؛ يشاركون في التشييع.

بعد أن عاد المشيعون من مكان الدفن؛ تسرب خبر بين سكان الجزيرة يُفيد أن العالم أحمد سيوجه إليهم كلاما مقتضبا؛ لم يستبعدوا أن يكون حول مصير الجزيرة؛ فلم تمل نفوسهم إلى القيام بأي عمل وظلوا ينتظرون طيلة الوقت.

بعد يومين وفي وقت الصباح أذيع أن العالم أحمد سيلقي خطابه المختصر، فتوافد الجميع إلى مقر المجلس الأعلى. قام الأستاذ أحمد من بين الحضور، وبعد أن ذكر بمناقب الأستاذ العلامة وفضله عليهم جميعا؛ قال:

– إن الوقت قد حان لتغادروا الجزيرة وتتركوها تلقى مصيرها المقدر؛ فلا تتأسوا على شيء فقدتموه فيها؛ فقد عُوّضتم بأحسن منه. في نهايتها حكمة؛ فلا تمتد بها الأزمنة التاريخية فيعيث فيها الانسان فسادا، ولا تدنس بجرائم الانسانية البشعة؛ فقد ولدت طاهرة وستموت على ذلك، وأيضا لا يستعيض أحد عما مثلته من نموذج يُحتذى به، ومنحى ينحوه الفرد في حياته الشخصية، وفي تواصله وتعامله مع الآخر؛ سواء كان فردا أو جماعة، وأنتم مخيرون بين أن تذهبوا إلى جزيرة (صناعة الانسان) تسكنون فيها؛ حيث يرقد جثمان الأستاذ العلامة، أو تعودون إلى البلدان الأخرى؛ فأنتم مقدرون عند الشعوب والأقوام.

ورحل الجميع عن الجزيرة، وفي عقل كل واحد منهم وفي باطنه قبس مما كان قد أُرسي من علم وسلوك قويم؛ في تلك الأرض وما ساد فيها من علاقات إنسانية، ويجالس الواحد منهم أفرادا في أي مكان فيقبسهم من ذلك كله.

وعقب الكلام الموجه من طرف العالم أحمد التقى أعضاء المجلس الأعلى من العلماء للمرة الأخيرة. لأي غرض؟ لا أحد يعرف، وقد تظاهروا بأن اجتماعهم لا يُستثنى عما هو مألوف، وما تقتضي عاداتهم في اللقاء؛ لكن قبل أن ينفضوا بنصف ساعة؛ استدعوا عبدالله الذي خرج بعد وقت وجيز جاد الملامح؛ إن ما جعلوه استحقاقا له اعتبره هو تكليفا؛ لقد منحوه الحامل الإلكتروني الذي سُجلت فيه الموسوعة التي تضم ما ألفه الأستاذ العلامة وعلماء الجزيرة؛ في مختلف مجالات الفكر والعلم والتكنولوجيا، وفيها تطرّق لكل مراحل التصنيع والتركيب التقاني، وواعد نفسه بأن لا يبوح بسر هذا العطاء لأي أحد.

بعد ذلك كان أول ما فكر فيه هو قارِبه؛ فأبحر به إلى الجزيرة المنسية، وهناك التقى بالعالم أحمد. قال له عبدالله:

– لقد اشتقت إلى والدي. سأعود على متن هذا المركب كما قدمت به أول الأمر.

قال له العالم أحمد:

– لن أدعك تتكبد مشقة الابحار مرة أخرى، وستحملك المركبة الطائرة إلى هناك. أما مركبك فسيُحفظ مُذكرا بذلك اليوم الذي رسوت فيه على رصيف جزيرة العلامة.

والطائرة ذات الخلايا تتزود مما يُشغّل محركاتها؛ لا طارئ يوقفها؛ إذ انخرطت في سفر طويل، وعبدالله وصديقه محمد على متنها؛ يستمتعان بكرسييهما الوثيرين وبقراءة كتبها الرقمية، ولم يشعر عبد الله بزمن الرحلة، ولم ينتبه في إحدى اللحظات أنه حل بشاطئ القرية، وأن والده هناك ينشر شباكه. نزلت المركبة الطائرة بدون ضجة على الأرض؛ كأنها نسر قدم من بلاد بعيدة؛ يُسمع لأجنحته حفيف لا يثير أحدا. ارتمى عبدالله في أحضان والده عبدالرحمان وأمه، ثم ودع صديقه محمد الذي رجع بالمركبة الطائرة إلى جزيرة (صناعة الانسان).

لم يبق عبدالله في القرية غير أيام قليلة؛ فالتحق بمندوب القرية والفتية الثلاثة؛ الذين كانوا قد هاجروا من قبل إلى شاطئ بعيد، واتخذوا من بيوت بنوها من الخشب سكنا لهم؛ حتى أتى ذلك اليوم الذي عاد فيه عبدالله، وفي متناوله ما يؤهلهم جميعا للزحف على القرية البغاة أهلها.

فبعيد المدة التي تنبأ بها الأستاذ العلامة؛ شاهد العالم بأسره ما أدهشهم إلى حد عدم التصديق؛ فقد اهتزت أعماق البحر مرة أخرى كعهدها في ميلاد الجزيرة، ونفث البركان في الأجواء لهيبا ومعادنا مشتعلة صهرت الجزيرة، وأذابت صخورها، ثم غارت في أعماق البحر؛ فكانت أثرا بعد عين.

وراح الناس فيما أتى من الأزمان؛ يتساءلون عمن يحوز الحامل الإلكتروني أو وُرّث له؛ المعبأ بعلوم جزيرة العلامة، ولم تتأخر المؤسسات المسلحة بترسانة من الغواصات، وعُدّة الغطس، وآلات المسح والرصد، والتقاط صدى المعادن؛ في

ارتياد الجزيرة الغارقة؛ باحثة عما يحتمل أن تكون في بقاياه رقاقة ما تزال تحمل شيئا مما حُكي عنه من علوم الجزيرة.

تمارة؛ في ربيع عام 1439 هـ، الموافق ل 2018 م.

الفهرس

الفصل الأول: **القرية** 3

الفصل الثاني: **الفُلك** 11

الفصل الثالث: **الرحلة البحرية** 19

الفصل الرابع: **عين الأب لا تنام** 133

الفصل الخامس: **الرسو في رصيف** 149

الفصل السادس: **مدنية العلم** 159

الفصل السابع: **الجاسوس** 181

الفصل الثامن **صناعة الإنسان** 207

الفصل التاسع: **اختطاف الأستاذ العلامة** 249

الفصل العاشر: **نهاية الجزيرة** 265